

هدى عبد الرحمن النمر

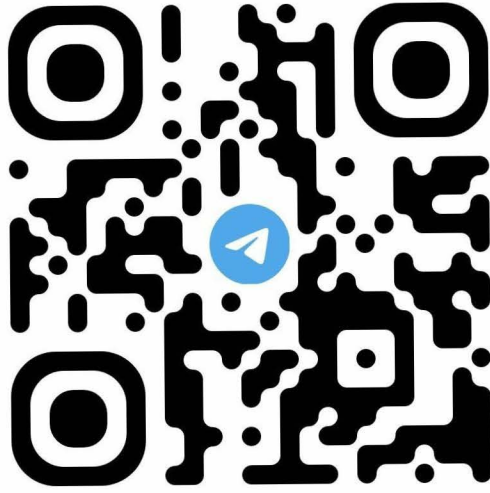
مكتبة

نظرية الصباح

كيف أجعل لحياتي معنى؟



دار المعذفة
للنشر والتوزيع



سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

نظريّة
الصباح

كيف أجعل لحياتي معني؟

رقم الإيداع : 3300 / 2025

الترقيم الدولي: 6 - 286 - 764 - 977 - 978

نبيه

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

مكتبة

t.me/soramnqraa

القاهرة - أمام مسجد عlish - خلف جامع الأزهر

(002) 01111322668 - (002) 01008584820

elmarefa@hotmail.com

DarElmarefah

darelmarefa

01004520496

elmarefa.store



نظرية الصباح

كيف أجعل لحياتي معنى؟

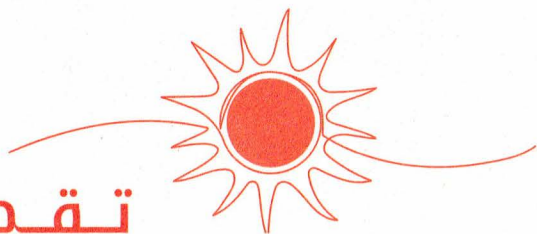
مكتبة

t.me/soramnqraa

هدى عبد الرحمن النمر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

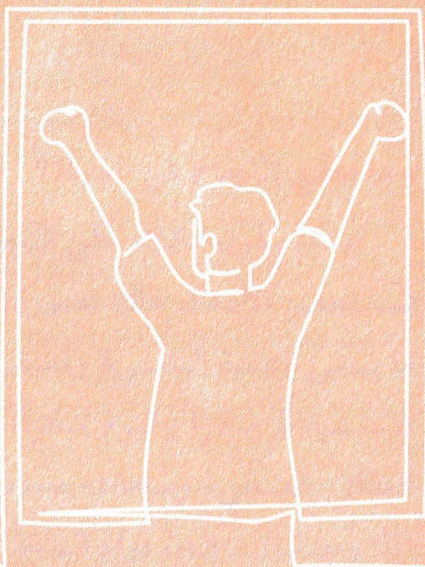


تقديم

ثمة ترابط لازم بين لفظتي الصباح والنجاح، فلا تُذكر واحدة إلا ويتوقع المرء ورود الثانية في أية لحظة، فكأنما صار الصباح نظرية وهذه معادلتها! فهل أدى إكثار الكلام في النجاح الصباحي لميلاد النوابع الذي يبدوون نهارهم مبكرين مدفوعين داخليًا بكل نشاط؟! بل إنه مما يدعو إلى التأمل أن كثرة شحن النفسيات بالنصائح وحشو العزائم بالشعارات دون توابك الأفعال وأنماط الحياة معها، أدى لانتشار الإحباط الدائم من الذات عند من لا يوافقون تلك الصورة «المشرقة»، وتعرّس السيطرة على اليوم لأصحاب البدايات «المتأخرة» فيه، والتخوف من معاني الجدية وبذل الجهد، والتملل من محاولات تعويد النفس على ما يخالف هواها الذي هوت في أحضانه!

ومن ثم كان هذا الكتاب لإعادة النظر، لا في نظرية الصباح وعلاقته بالنجاح، بل في الناظر إليهما نظرة متحسر لا هو أدرك الصباح ولا هو أصاب النجاح.. فهل من أمل في الفلاح؟!





الفصل الأول

خيط الأفق

عن الشغف والمسؤولية
والنجاح في الحياة



مكتبة

t.me/soramnqraa

• ما معنى النجاح في الحياة؟

عندما يكون الكلام على النجاح والطموح الجدية في الحياة، تستحضر الأذهان غالبًا تصورات نموذجية مما ورد في مواد ما يسمّى التنمية البشرية وقصص «العظماء» و«الناجحين»، مثل الاستيقاظ مبكرًا والنوم مبكرًا، وممارسة الرياضة، والنظام الغذائي الصحي، وساعات محددة لمشاهدة التلفاز أو اليوتيوب (إذا وجدت)... إلخ، دوام النشاط والحيوية وغلبة العزم والمثابرة وندرة أو انعدام الخمول والكسل وعادات اللهو وتضييع الأوقات... إلخ.

والحق أن المسألة أبسط من ذلك التصور.. وأعمق!

أترى إلى ذلك الموظف القابع على مكتبه، يُنهي الوظيفة المطلوبة منه على وجهها دون زيادة ويكون أول المسارعين لباب الخروج عند انتهاء الدوام بالدقيقة؟

ثم انظر لزميله.. ذاك النجم الاجتماعي، الذي يبذل طاقات جَمَّة يَمَنَّة ويسرة فوق المطلوب وظيفيًا، لأنه متطلع للترقي مهنيًا. والآن لنعد لصاحبينا بعد عام أو عامين. الأول حيث هو، والثاني ترقى وصار مدير الأول!

هل نشأ في نفسك حُكم بالنجاح أو الفشل على كل منهما؟



لعلك تُحابي النموذج الثاني البراق على الأول التقليدي؟

حسنًا، تمهل قليلًا، وتعال معي بعد انتهاء الدوام..

الموظف التقليدي يعود لمنزله مستقبلًا أهله ببشاشة، فيصلي ويتغدى معهم غداء «صاخبًا» مقارنة باستراحته المنعزلة في العمل. أطفاله يشاركونه تفاصيل يومهم وهو يناقشهم، ثم يخلو بزوجه ويتمتعان. ثم يخرج للصلاة، ويتم تسميع جزء القرآن على شيخه المُجيز له بقراءة ورش بعد أن أتم قراءة حفص. ثم ينصرف لمسامرة الأصحاب في مجلس ذكر أو سَمَر مشروع، وينقلب وسطهم من موظف المَكَنَّة لأنيس الجلسة. ثم له أوقات دورية في الأسبوع يتطوع فيها لخدمة فئة محتاجة بمهاراته.

ما رأيك؟ فجأة، لم يعد هذا التقليدي بذاك «الفشل» المبدئي، أليس كذلك؟!

طيب، دونك الآخر.. النجم الاجتماعي!

يعود لمنزله مرهقًا، فيُسلِّم على والدَيْه (لم يتزوج بعد لأن طموحه لا يتحمل منافسة بذلك الثقل)، وقد اشترى ما طلبته منه والدته، وتذكر شراء حلوى والده المفضلة، فيشكرانه ويحييهم، ثم يجزّ نفسه جزًّا لفراشه فيرتمي عليه. يصحو متأخرًا وأهل البيت نيام، فيأكل من الطعام المتروك له في المطبخ، ويُعدّ الأعمال الإضافية لتقديمها في الغد (ليست مطلوبة وظيفيًا لكنها



ثمن تطلّعه المهني للترقّي في مجاله). ثم يصلي الفجر ويقرأ أوراده، ويترك لوالديه تحية الصباح في ورقة على باب الثلاجة، لينطلق بعدها لعمله.

هل بدأ بريق هذا النموذج «الناجح» يَخْفَتُ عن ذي قبل؟! إذا صارت كِفّة حُكمك تميل للأول على الثاني.. فقد جانبك الصواب في هذه أيضًا!

الصواب أنّه ليس ثمة صواب أو خطأ في هذين النموذجين، وما بينهما. بل هي موازنات ارتضاها أصحابها من أنفسهم في الحياة ومن الحياة في أنفسهم.

ولست مطالبًا أو مدعوًا حتى للحكم على أيهما أو الميل لأحدهما! وإنما أنت مدعوٌ للنظر في هذين النموذجين من حيث تعريف كل منهما لمعنى «النجاح» المُرتضى عنده، وترتيبه لأوليّاته وأشغاله وفأقا، وارتضاء دفع ثمن تحقيقهم من جهده ووقته وسنوات عمره على المدى، لأنه ارتضى في المقابل مردودها المعنوي والمادي.

واصطلاح «دفع الثمن» ليس تهديدًا بالخسارة بل هو تقرير لواقع. فآية موازنة في الحياة لها ميزانها أخذًا وعطاء. ولا أحد تكتمل له المحاسن كلها أو تجتمع عليه المساوئ جميعها، وإنما الشأن في ارتضاء موازنة ما، وتحمل مسؤولية مُعطياتها، والرضى بما قُسم في مردودها. فإذا كان تعريفك - مثلاً - لصلتك بوالديك



تحية الصباح على الثلاجة والمساء في السرير، فأنت وشأنك. إذا شئتَ تعريفاً أرضى عندك فابذل له.

وإذا كنت ترتضي - مثلاً - أن تقيم الفرائض وتجنب المحرمات ثم ترتمي فيما بينهما على الآرائك أمام التلفاز أو تقلب في وسائل التواصل.. فأنت وشأنك. وإذا كان من أولوياتك في الحياة أن تكسب من المال ما يوفر لك مستوى معيشة رفاهي، وتكدح لأجل ذلك في عدد من الوظائف أو ساعات عمل طويلة.. فأنت وشأنك. وإذا كانت أولويتك في بذل أقل جهد ووقت ممكن لتوفير دخل معيشي يستر الحال ثم تنفق فاضل وقتك وعافيتك في أعمال خيرية أو أهواء شخصية.. فأنت وشأنك.

المهم في المسألة كلها أن تواجه نفسك مواجهة صادقة، فتقرر ما ترتضي ولا ترتضي ثم تتسق مع قرارك. المطلوب أن تحيا حياة ترضاها لنفسك وترتضي عاقبتها والحساب عليها يوم تقوم لرب العالمين، بكل ما تفعل ولا تفعل فيها، وبكل من أنت ومن لست أنت فيها. فالمطلوب من كل فرد مسؤول أن يصوغ لنفسه نمط الحياة التي يرتضي الحساب عليها والجواب بها أمام الله تعالى.

لكنك حين تسير في الحياة كيفما اتفق دون أن تبذل جهداً في صوغ وتعريف وتحديد ما ترتضي تحمّل مسؤوليته حقاً، ستشعر آخر المطاف كمن حزم أمتعته لرحلة صيفية وانتهى به المطاف في القطب الشمالي! أو كمن عاش عمراً دون أن يحيا حياة!



إنك تدفع من عمرك لعمرانك، وتنفق من أنفاسك لنفسك، وتقدم من دنيائك لأخراك، وتبعث وحدك، وتُحاسب وحدك. فواجه نفسك بصدق في تعريف حياتك ومعاني حياتك، وفي الثمن الذي ستبذله جادًا فيما تريد طلبه أو تركه فعلًا، وفي الكيفية التي ستوازن بها كفوف اهتماماتك ووجهات طاقاتك وأطوار طباعك، متنزّها عن أوهام انفصام الدين والدنيا، ومتحرّرًا من عقدة المقارنات المحمومة والقوالب الجامدة والتصنيفات الجائرة للقيمة والقاع والنجاح والفشل والطموح والهمود... إلخ.

”

الخلاصة: إما أن تفصل تطلعاتك في حياتك على مقاس طاقاتك، أو تربّي طاقاتك على قدر تطلعاتك في حياتك، أو تظل متنقلاً بين هذا وذاك حتى تستقيم على طريق. وإنّ مفتاح الحياة الهانئة ليس في النجاح ولا الترقّي ولا الشهرة ولا كثرة المال والأولاد والأهل والأصحاب... إنما مفتاحها أن تكون صادقًا مع نفسك، مسؤولًا عن حياتك؛ وأن تكفّ عن مدّ عينيك لحيوات الآخرين، وإرهاق نفسك بالمقارنة بموازينهم التي ارتضوها لأنفسهم أو اتّبعوها بأنفسهم، ولسع حياتك بزفريات الحسرة واللو والليت!

“



• سرابية انتظار الشغف

مفهوم الشغف هلامي المعالم في أذهان غالب الحالمين به، لكنه عمومًا يتضمن العثور على مجال «اشتغال»، يبعث فيك «حالة» جميلة من المتعة والرغبة والنشوة والمزاج وكافة مرادفات أسرة الهوى أو «إيجابيات» المشاعر. فإلى أن تجد ذلك العمل الذي يبعث فيك تلك الحالة المنتشية أثناء عمله، لم تجد شغفك الحقيقي في الحياة بعد.

إذا تركنا الشغف جانبًا ونظرنا إلى ما يوقد فينا جذوة تلك الحالة الجميلة والنشوة البهيجة في نمط حياتنا المعاصرة، نجد أنه ببساطة اتباع أهوائنا وتدليل نفوسنا وترويق أمزجتنا. خاصة في ظل ضغوط دوامات العيش وساقية استيفاء طلبات المعيشة، التي لا تدع لنا فرصة بعدها للحياة! فلا نجد مفرًا - ولا نفكر في البحث الجاد عن مَفَرٍّ - إلا «قتل» باقي الوقت وهدر فائض الطاقة ما بين دوامة وأخرى، بأشكال الشُّكر الروحي والخمور المعنوية، من إدمان الفرجة والخروجات والتقليب العبثي في الإنترنت، وغيرها من أنواع اللهو والتلاهي. ظاهريًا لتناسي مرارة العمر المتسرب منا في غير قيمة حقيقية ومضض الحياة الماضية بغير معنى يعيننا. وداخليًا لنخمد أية أنفاس باقية لأنين المسؤولية فينا، ولنحجب عن أنفسنا أية فُرَجَة يتسلل لنا منها نور يدعونا لمراجعة النظر في نهج الحياة وتقويم نهجها!



وفي عصر الازدهار الحضاري اليوم صارت النشوة والمزاجية في الحقيقة بضاعة استهلاكية رائجة ومربحة، بما تسخره الرأسمالية من جهود حثيثة لتوفيرها في كل ثانية من الـ ٢٤ ساعة يوميًا: بدءًا من الطعام الجاهز والتسالي المعلّبة والمشروبات السريعة، إلى نَهَم الفرجة المفتوحة على منصات المرئيات أونلاين فما إن تفرغ من مشاهدة مقطع أو مسلسل عليها حتى ترشح لك عشرات على غرارهِ يمكنك مشاهدتها تباَعًا وفورًا، وليس انتهاء بالمنتزهات والمجمعات التجارية والمقاهي العامة، والوقت المفتوح للنوم ثم القيلولة بعد النوم والغفوة قبل النوم... إلخ. حتى إنّ كثيرًا من وظائف وأشغال اليوم لم تعد الحركيّة والنشاط يشغلان منها حيّزًا معتبرًا فوق ٣٠٪ على أعلى تقدير، والباقي انزاح وراء المكاتب والكراسي والسلالم المتحركة والميكنة الحديثة... إلخ.

تخيل نوع النفسية التي تنشأ محمولة على أرائك الراحة وأجنحة الخمول، ومحفوفة بصواني الحلوى ونكهات المقرمشات، بلا جهد منها ولا شغل لها سوى التلقي السلبي والتشرب الآلي: فرجة وسماعًا وأكلًا وشربًا! وليته على ذلك تلقّ سلبي حقًا، بل السَّلْبُ فيه نوع جهد، لأنه يعني في اللغة الحِيازة والأخذ والنهب. لكنّ الحاصل هو تلقّ خامل بليد بدون جهد حقيقي مبذول من الطرف المتلقي (اللهم إلا القرمشة والتسلّي).



تخيّل مثل تلك النفسيّة التي ترعرعت على طعم ذلك الكساد الفكري والوجداني، ونشأت فيه من العمر ما نشأت، أنّي تحلّ عليها الإرادة أو تواتيها الرغبة أو يقع فيها الميل لأيّ «اشتغال» جاد في الحياة، فيه بذل جهد «حقيقي» و«أصيل»، أي لا يتضمن قوالب الأشغال الحياتية الروتينية والمفروضة علينا من الخارج أكثر منها نابعة من دواخلنا؟! سواء أسميته ذلك الاشتغال الشغف أو الرسالة أو أيّ مسمى يفيد المعنى!

”

أنّي يَنْتَظِر مثل ذلك المُنتَظَر أن يحضره المزاج في غير السياق الذي عوّده الحضور فيه أعوامًا مديدة؟ بل أيّ شغل في الحياة يمكن أن يكون طعمه كطعم الاستلقاء على الأريكة أمام التلفاز وفي أحضان التسالي؟!

“

إنّ مجرد فكرة بذل أيّ جهد حقيقي مفزعة، ومجرد خاطر المبادرة بأيّ عمل جادّ بدافع داخلي لا بقهر خارجي عسيرٌ ومُنْفَر، لِمِثْل هذا المزاج الذي انغمس في همود الراحة وهذه النفسية التي اعتادت التلقي البليد. وإذا شبّ ذلك المسكين عن طوق الهوى مرّة، وأخذته حَمِيّة محاولة التمرد على حياة الخمول الأجوف تلك، عاد طوق الهوى يُغويه بسهولة جدًّا بعد قليل، كما تجتذب الأم الطفل إلى حضنها مهما جرى منها!



وبهذا ينكشف سر نكد انتظار شغف لا يحلّ أبداً، وسراب إنجازات وهمية لا تزيد الظمآن إلا عطشاً! بل ويتضح سرّ دراما المأساة وسراقات الرثاء التي يُقيمها الهائمون وراء الشغف ويعلقون حياتهم بانتظاره، فيُعنون أنفسهم بلعب دور الضحية والتعلق الكاذب بذلك الوهم من أية مسؤولية أو ملامة، ويصير ذنب العمر المُهدر معلّقاً بذمة الشغف الذي لم يتبدّد والرسالة التي لم تتضح، والقدر الذي ظلّم، والرزق الذي حُرِم! وربما يتمادى البعض وراء ذلك السراب حتى يشعر بأنّ الحساب عن حياته مرفوع عنه حقيقة طالما أنه في «حالة ضلال» إلى أن يجد ما «يثير» شغفه و«يستثير» شغافه!

• سرابية انتظار هبوط العزيمة والإرادة

كم من عمل جاد في الحياة يطول تخطيط صاحبه لعمله وتمنيه له ورغبته فيه، لكنه لا يكاد يُحرز فيه عملاً مهما طال أمله.. لماذا؟ لأن الإرادة - بمعنى الرغبة والميل - وحدها لا تؤدي لشيء، ولا يمكنك أن تصدق فيها على هيئة مُجرّدة، فمجرد الإغراق في إرادة الإرادة ينقلب بسهولة لتمنيات وأحلام يقظة! فلا بد من عمل، بل إن العمل في كثير من الأحيان هو الذي يربّي الإرادة ويولّدها في نفس صاحبها. وذكر الغزالي في إحياء علوم الدين: «وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا: بعلم، وحال، وعمل». فالحال أي نية القلب وصدق الوجدان طرف وسط بين علم العقل وعمل الجوارح، فلا بد من الكل معاً.



وأما أن مادة خلق الإنسان ضعف، وأنه بحاجة لتسنيده وتشجيع وتحفيز دائم، ففيه وجه حق أريد به باطل. ذلك أن الإقرار بحقيقة الضعف الكامن في خلقتنا لا يعني اتخاذه حجة للتخاذل أو مبررًا للانغماس في القهر النفسي والعجز الوجداني، إذ إن في تركيبنا كذلك تطلعًا للمعالي وتشوقًا للجد في معاملة الحياة، الذي منه بذرة القدرة على التكليف. فإننا لم نُكَلَّف على الرغم من ضعفنا بل وفاقًا له، فالخلقة من الخالق والتكليف من الرب الذي خلق.

لذلك لا الضعف مانع صاحبه من أخذ حياته بقوة، ولا أخذ الحياة بقوة مانع صاحبه من الانزلاق لما لا بد لابن آدم أن يذوقه من ضعف بدني ووجداني وحزن وألم وانجراف وراء الهوى... فإنما هي أحوال وأطوار النفوس في الحياة، وكل حول وكل طور له عبودية وقته.

مسكين أنت أيها الفتى!

أين أنت من أمانيك الطَّمَّاح؟!

أين أنت من تلك الأجواء التي تحلّق إليها بفكرك؟!

أين أنت من هاته المشاعر التي تنتفش في أغوار فؤادك؟!

في كل عام أراك تقلّب كتاب الماضي، وتُتمعّن النظر فيه.

كم كسبت لنفسك؟ وما حققت لها؟ وبم ظفرت من عمرك؟



ثم أراك تقلّب شفتيك أسي وأسفًا!

على أنني لن أدعك الليلة إلى سالف ما تعودت، وما أريدك على الأسف والأسي، وإنما آخذك بالرفق واللين، وأقرأ لك من كتب الماضي صفحاتك الزّاهرات. حتى إذا هدأت نفسك إلى ذلك، واطمأن إليه فؤادك، أخذتك بالصبر والمثابرة، فقرأت لك في صفحات الآتي ذاك الذي تنشّد من رفيع الشّأو^(١) وبعيد الخطر. فما على الأسي بُييت الحياة، ولو كانت كذلك لهلكت مآقي^(٢) البشر من سحق الزمن وغابر الأيام!

إنما الحياة صبر وجَلَد وكفاح. وما عرفتكَ إلا صاحب هِمّة ذات مَضَاء^(٣). أَفْتَرَكَنَّ^(٤) إلى الأسي والنحيب وذرف الدموع؟! أم تنهض إلى الصبر والجَلَد والكفاح؟! هَيّا، إذن بمفتول العزم فما خُلِقت للهْدُر. واستقبل عامك هذا الجديد بالبشر والتفاؤل. وسارع فابذر فيه بذور الخصب والنماء، والله يرعاكَ وغرسك^(٥).

(١) رفيع الشأن عالي المكانة.

(٢) المآقي: مجاري الدُموع من العين.

(٣) مَضَاء العزيمة: قوتها وشِدَّتْها.

(٤) رَكَن إلى/على الشَّيْء: مال إليه واعتمد عليه، استند إليه، وثق به.

(٥) من مذكرات أبي عبد الرحمن رحمه الله، سنة ١٩٧٤، وعمره ٢٣ عامًا.



• متلازمة الفراغ والخواء

يرتمي الكثيرون طواعية في دوّامات متطلبات المعيشة والأشغال الجوفاء والقوالب الروتينية، ويتزامن ذلك الارتواء مع معزوفة نَدْب ضيق الوقت ومتلازمة النياحة على عدم توافر فراغ في جداولهم المتكدّسة. فإذا حَلَّت بهم أوقات فراغ عريضة كإجازة مطوّلة مثلاً، فكأنما مَسَّتْهم صاعقة من السماء اسمها الملل والسأم والحيرة، وهاجت أشواقهم لحياة الأشغال الشاقة ودوامة الضحيّة المجبورة - أو بالأحرى المجبولة - عليها!

فما السرُّ في ثقل أوقات الفراغ أو الخلوّ من قوالب الأشغال الجاهزة، مع أنّنا عادة ننادي بها وننتظرها بصبر نافذ؟! السرُّ يكمن في أنّ شعورنا بالحرية حين يزداد، يزداد معه ضمناً طنين مسؤولية ذاتية لا جواب لها عندنا. فلا فكرة لدينا ولا تصوّر عما يمكن أن نفعل بنفوسنا حين لا يحضر قالب جاهز يُملّي ذلك علينا: كوقت دراسة أو شغل منزلي أو شغل وظيفي. وكذلك لا طاقة عندنا ولا دافع ذاتي لبذل أي مجهود جادّ في أي أمر ذي نفع، لأنّ طعم المنفعة والجدية والمسؤولية ليس مغرياً بقدر مذاق الهوى والكسل والخمول! وما أزمة منتصف العمر إلا تعبير منمّق عن مشكلة خلوّ حياة الفرد من القوالب الجاهزة واستشعاره الحاجة لشق طريق أصيل، لكننا لم نتعلم في حياتنا شقّ الطرق ناهيك عن الأصالة!



هذه الظاهرة من تبعات استيراد تصوّر ونهج الحياة الأعجمي، وكثير من مذاهب علم النفس الحديثة تبحث في جذور أزمة الشعور «بالخواء الوجودي» و«فقدان المعنى» لدى الإنسان المعاصر، في ظلّ تقدم النظام الآلي وزيادة أوقات الفراغ وقلة بذل جهد حقيقي بالنسبة للشخص العادي. وتُعرف تلك الحالة بالإنجليزية بعدد من المصطلحات، أشهرها: Sunday Neurosis أو Weekend Crisis. واصطلاحها المقابل بالعربية: عُصاب يوم الأحد، أو فجيرة أيام الإجازات! وذلك لأنها توفر من الخلوّ ما يُظهر لصاحبها مدى الخوّاء الذي هو فيه، حين لا يكون ثمة دوامة أو قالب جاهز يرتمي فيه.

والتعريف الكامل للحالة بالإنجليزية من قاموس كامبريدج: "A form of anxiety resulting from an awareness in some people of the emptiness of their lives once the working week is over."

ويعني بالعربية: «نوعٌ من الاضطراب الناشئ عن وعي البعض بخواء حياتهم متى انتهى أسبوع العمل».

ولا يقصد به هنا فراغ الوقت من الشواغل أو قوائم المهام والأهداف الجزئية، بل المقصود الفراغ من تصور الحياة المتكامل على النحو الذي تمّ عرضه حتى الآن. ما طبيعة اهتماماتك في الحياة ونهجك الحياتي بالأساس؟ وإذا جئت تتخفف من اتباع الهوى وإدمان التسلية، فبماذا يمكن أن تشغل نفسك؟ لا شيء غالباً؟! أو إذا وُجد شيء ما فلعله لا يهتمك كثيراً



ليدفعك لاستبدال الأدنى بالخير. أو ربما هو شيء لا يعينك على الحقيقة، ولا تحتاج أن تشتغل به إلا اضطرارًا بدافع من خارجك لا داخل نفسك؛ كالدراسة للامتحانات أو إنجاز شغل منزلي بإلحاح من الوالدة.

أمّا أن يكون لديك اهتمام من نفسك لنفسك، وراقب من نفسك على نفسك، وعناية بعمرِكَ المُنقضي من أنفاسك أنت، فهذا ليس في الحسبان عادة! وبسبب هذا النوع من الفراغ، لا يمكنك أن تُقبل على اللهو أو التسلّي - كالفرجة على المرئيات مثلاً - إقبالاً طبيعياً لمجرد الترويح المؤقت وتغيير الأجواء، بل تنقُص عليها انقضاؤ الجائع والمتعطّش معاً! فبدل أن تصير ترفيهاً وسط اهتمامات عامرة أخرى وحياةٍ فيها غير الفرجة والخروج والتسلي، تنقلب تلك الملهيّات عندك لوسيلة تفرّغ شُحْناتِ طاقاتٍ فائضة وفراغٍ نفسيّ قاتم وفسحة زمنيّة مُهدّرة لا لساعات فحسب بل لأيام ولشهور وربما لسنوات، لا يزاحمها فيه اهتمامات أخرى، أو حتى محاولة جادّة لإنشاء اهتمام بأشياء أخرى!

• السرطان الحديث: الفراغ^(١)

لم تفرع البشرية من شيء قدر فزعها من ذلك الأخطبوط المخيف المُسمّى السرطان. فهو قريب الشبه بالتنين الخرافي

(١) مقالة لأبي عبد الرحمن رحمه الله، في مذكراته سنة ١٩٧٧، وعمره ٢٤ عامًا.



الذي تناولته الأساطير، وإن كان يخالفه في أنه حقيقة ماثلة. وهذا الداء العضال ناعم كالثعبان، ويتسلل إلى ضحيته في رقة بالغه، فلا تكاد تُحسُّ له ركُزًا. حتى إذا ما تشعبت جذوره، وقويت أنيابه، راح يُنشب أظافره هنا وهناك في جسد ضحيته، ينهش منه في نهمٍ بالغ، وهو يُقهقه في سخرية مريرة من عجز الأطباء وحيرة العلماء.

على أن العصر الحديث عرف داءً أشدَّ وبالأ من السرطان، وأبعد منه أثرًا في تدمير البشرية. إذ لا يقف أثره على أفراد قلائل، بل يطوي تحت لوائه أممًا وشعوبًا. ذلك هو الفراغ! علّة العِلل في عصرنا الحاضر. ومن عَجَب أن الإنسان قد خلق بنفسه ذاك الداء الخطير، وهياً أسبابه، ووفر بواعثه! فقد كان للميكنة الحديثة أثر لا يُنكر في تقليل الجهد وتوفيره الوقت؛ على سبيل المثال: فعملية حسابية من العمليات المعقدة كانت تستغرق من الإنسان فيما مضى ليالي وأيامًا برُمَّتْها، يمكن اليوم في دقائق معدودة بواسطة الآلة الحاسبة!

وقد ترتب على توفر الوقت في العديد من مجالات الحياة وأنشطتها بروز هذا الحجم الهائل من الفراغ إلى حيز الوجود. لقد جنى بنو الناس على أنفسهم جناية كبرى يوم أدخلوا «الماكينات» في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، فولدت لهم الرفاهية التي يبحثون عنها ذلك المَسْخ الدميم: الفراغ!



والفراغ مَفْسَدَةٌ للمرء أي مَفْسَدَةٌ! انظر إلى هاتِه المئات من الشباب قد تراصّت على المقاهي كخُشْبٍ مُسَنَّدَةٍ، تقتل الوقت قتلاً، وتَبْدُ العمر وَأُذًا، في حجر نَزْد تلقيه، أو في وُريقات تتلهّى بها! وانظر إلى هاتِه المئات من الشباب تتسكع في الطرقات ككلاب ضالة، تقطع على المارّة سبيلهم، وتتندّر عليهم بفاحش القول وبذيء الكلام! ثم انظر إلى هذه الزرافات من الفتيات، يتلکّان أمام واجهات المحالّ، بحثًا عن أحمر للشّفاه وأسودّ للعينين وضيقٍ من الثوب لا يكاد يستر حتى يكشف! ثم أَجَلُ بَصْرِكَ كَرَّةً أُخْرَى، ترى النّسوة في البيوت قد اجتمعن في حلقات - كحلقات الذّكر في سالف الأزمان الحسنّة! - وسرى بينهنّ حديث يأكل من أعراض الناس ما تأكل النار من الهشيم!

فهل بقي بعد ذلك من شيء؟! نعم، بقيت «جماعة الفتوى بغير علم»، وهم قوم من البشر يختبئون تحت جُناح الليل، يقتاتون ما يُذهِب العقول ويُلْهِي النفوس، وكلما حَفَّت عقولهم وطاشت أحلامهم، جادوا بالنّفيس من الرّأي في كل شأن من شؤون الحياة، وفي كل أمر من أمور الدين والدنيا!

إن الفراغ يعصف بحياة الإنسان عصف الرياح بذرّات الرّماد! ولا يَذرو أيام العمر فحسب، بل يذرو كل القيم الرّفيعة ويُحيلها هباءً منثورًا! فأَي خَيْر يُرَجَى وأَي خلق يبقى في حَلَق الغيبة ومجالس النّميمة ومقاهي اللّهُو، وأفواج الشّعور المُرسلة والأبدان الكاسية العارية؟!!



الفراغ، يا له من داء عُضال! إنه أشد فتكًا بالبشرية من كل أسلحة الدمار التي تكتظّ بها ترسانات الأسلحة.

أرأيتم إلى السرطان الحديث؟!

ما أشدّ حاجتنا - نحن أبناء العروبة - لليقظة لهذا الخطر الماحق. ما أمسّ حاجتنا إلى قتله قبل أن يُنْشِبَ أظافره في حياتنا، فينسفها نسفًا. إن أجدادًا لنا رفعوا مشعل العلم وحملوا راية القيم ينظرون إلينا من قمة حضارة شامخة، جعلوها للبشرية منارًا ونبراسًا؛ ينظرون إلينا والدمع يكاد يطفر من مآقيهم، والحسرة علينا تذيب قلوبهم.

إننا إن أعرضنا اليوم عن مشاعلهم، وأشحنّا عن قيمهم، فسيفتك بنا السرطان الحديث، ولن نحمل أمانتهم ولن نكمل سيرتهم، ولن يكون لنا من الغد أدنى نصيب!

• حالة الهاكونا ماتاتا!

من أفلام ديزني الكلاسيكية الفيلم البديع «الأسد الملك The Lion King»، الذي يحكي قصة الشُّبل «سيمبا»، بدءًا من ولادته ومغامرات طفولته، وصولًا لنضجه وتوليّه حكم الغابة. يقابل الشبل سيمبا الخنزير البري «بومبا» والشُرقاط^(١) «تيمون» في مرحلة فاصلة وقاصمة في حياته، بعد موت والده الأسد «موفاسا»

(١) الشُرقاط: نوع من أنواع السموريات، ويعرف بقط الصخور أو الميركات Meerkat.



في حادث مُرَوِّع، يظن سيمبا أنه السبب فيه. وعندما يسألانه عما جرى معه يكون توصيفه لحاله:

- فعلتُ فعلة نكراء،

- لا أود الحديث عنها،

- لا يمكن تصحيحها،

- لا معنى لأي وجهة في الحياة بعدها.

بناء على تلك المعطيات، يُعلِّم تيمون سيمبا فلسفةً مفادها أن «يرمي الماضي وراءه»، ويدير ظهره للعالم كما أدار العالم ظهره له، ويتبنى نهج حياة «هاكونا ماتاتا» الذي يخلو من أية مشاكل أو تعقيدات، لأنه بلا قوانين أو مسؤوليات!

وعبارة هاكونا ماتاتا Hakuna Matata تعني في اللغة السواحيلية: «لا تَحْمِلْ هَمًّا»، وما في معناها. ومع أنَّ المبدأ في حدِّ ذاته لا بأس فيه، إلا أنَّ الفيلم يعرض لتطبيقه الخاطئ بوصفه نهج هرب من الإشكال لا حلًّا له، وإهدارًا لمسؤوليات تعلّقت بالذمّة ولا فُسحة لخيار التفريط فيها. (من اللافت أنَّ كلمة المسؤولية تتكرر عدة مرات في فيلم كرتوني موجه للأطفال في سنة ١٩٩٤، أما اليوم فتلك مفاهيم ورسائل منقرضة في النتاج الإعلامي عامة، الذي يتمركز حول اتباع أهواء الذات والمزاج الشخصي وأولوية الحرية الفردية وتبلّد حس المسؤولية والحظ من روتين الواجبات...).



ينغمس سيمبا بكليته في حالة الهاكونا ماتاتا حينًا من الزمان، ويرمي ظاهريًا الماضي وراء ظهره، ويبدو ظاهريًا سعيدًا بالانغماس في ملذات اللحظة وعدم التفكير في أي شيء أو تحمل أية مسؤولية مزعجة. ثم يظهر في مشهد مدى عدم استقراره الداخلي، وعدم رضاه الحقيقي عما آل إليه حاله، ويتضح أن تهربه من مواجهة ما وقع وتولية ظهره لمسؤولياته لم يحل إشكالاته الداخلية، بل حوّلها لعقد كامنة! فتبدأ المرحلة الثانية في حياته بمراجعة اختياراته السابقة وتقويم نهجه في التعامل مع الماضي والحاضر معًا.

ويمكن تقسيم مراحل الصراع في كيان الشبل الصغير ثم معالم جلّائه في كيان الأسد الراشد، كما يلي:

١. موت موفاسا (الأب):

الطعنة النجلاء التي تُفتّت قلب الشبل الصغير، والطامة الكبرى التي تقلب كيانه رأسًا على عقب، والجرح الغائر الذي لا يندمل بالهروب بل يزداد غورًا.

٢. لقاء تيمون وبومبا (السلوان والعزاء من الأصدقاء):

النشوة المبدئية بخيار التجاهل التام والهروب الكلي، لا من مواجهة عواقب ما جرى فحسب، بل من تحمّل حمله أصلًا. فالإقرار بالجميل أو الإشكال سيعني بالضرورة نوع مواجهة عند نقطة ما، مهما تأجلت.



٣. لقاء اللبوة نالا (الغضب الداخلي بسبب الهروب من مواجهة النفس):

يغضب سيمبا من نالا التي تستفزّه بمحاولاتها تذكيره بالماضي بالتلميح أو التصريح، ويشتدّ عناده في الإصرار على عدم مواجهة ما جرى لأن تناسيه أسهل (ظاهريًا). ويتزامن لقاءه بها مع بدء قلقلة غطاء الغضب المكبوت في نفسه بسبب نزاعه الداخلي بين: عدم الرضا بحالة الهاكونا ماتاتا وعدم القدرة كذلك على الفكّك منها!

٤. طيف موفاسا (يقظة صوت الضمير أو حس المسؤولية):

في إحدى الليالي التي يشتد فيها ضيقه ويصيح ناشدًا سبيل الخلاص، يتراءى له طيف والده موفاسا، يذكّره أنه الملك الشرعيّ والمسؤول الأصلي عن قيادة الرعية القيادة الرشيدة، وأن الهروب من مواجهة المشكلات والآلام لا يحلها. فتكون هذه اللحظة الفارقة أولى معالم انجلاء الغمّة، بالمكاشفة أخيرًا والبوح صراحة بما جثم على الصدر وكمن فيه، فيتهيأ سيمبا نفسيًا للنظر الجاد فيما كان يهرب منه.

٥. ضربة القرد الحكيم (إعمال العقل):

تأتي تلك الضربة في الختام لتعلّم سيمبا - والمُشاهد معه - الدرس المقصود عمليًا. يضرب القرد سيمبا على رأسه بالدُرّة (العصا) التي يحملها، فيصيح فيه سيمبا:



- لماذا ضربتني؟

- لا يَهْم! لقد صارت الضربة حادثة من الماضي!

- نعم، لكنها ما زالت تؤلمني!

- أحقًا؟! صحيح إذن أنّ الماضي يمكن أن يظلّ مؤلِّمًا، لكن

ما أفهمه هو أنك إمّا أن تهرب منه.. أو تتعلم منه!



لم تنتهِ حالة الهاكونا ماتاتا مع انتهاء فيلم الأسد الملك، بل هي اليوم أوسع انتشارًا وأرسخ جذورًا في نهج حياتنا عما كانت عليه وقت إذاعته. كيف ذلك؟

أولًا: في حياة كلّ منا فزاعة أو فزاعات ما، هي - بصفة عامة - إحدى هذه الأربع أو مزيج منها:

• إشكال في الماضي لم تعالجه معالجة تجعله حقًا يمضي لحال سبيله، بل يظلّ عثرة في حال سبيلك.

• حُلْم في الحاضر تتذبذب في الدوران حوله عِوَضًا عن الشروع المباشر فيه، فتستثقل بذل الجهد في غرسه وزرعه ورعايته بالدأب والصبر والمثابرة، ومع ذلك تستعجل لذّة حصاده.

• أمل في المستقبل تتوجس منه أكثر مما ترجوه، وتستعجل الوصول لمحطة الختام فتمل وتهمد وأنت في بدايات الطريق.



• همّ التصقّت به فالتصق بك، في ماضيك وحاضرك
ومستقبلك معًا!

”

تعدّدت الماتاتا وجوهر الهاكونا واحد!

“

ثانيًا: ينجرف الكثيرون للهرب اللاإرادي من طيف تلك
الفزاعات في حياته. وأقول اللاإرادي لأنّ الهرب قد يكون أحيانًا
سياسة مُستحسنة عندما يكون مدروسًا ومقصودًا من صاحبه، ويتّخذ
وقتها مسمّيات أدق: كالتجاوز أو التغاضي أو التعايش.. إلخ. أمّا
الهرب المذموم فهو مجرّد تَوَلِيّة الظّهر والفرار إلى أرض الهاكونا
ماتاتا، غير متنبه أنك ستجرّ لا مَحالة أذيال فزاعاتك معك. وكلما
أُمعنت في تولىة ظهرك، أُمعنت هي في الارتماء فوقه وزادت وطأة
ثقلها عليه، لتشعرك بوجودها وتُرغمك على الالتفات لها. ولن
يعدّو الحلّ لتلك الحالة عمق الحقائق التي بسطها الفيلم ببساطة:

٦. تذكّر حقيقة نفسك

أصرّ سيما على تناسي كلّ ما فات، حتى كاد ينسى في خِصَم
ذلك حقيقة نفسه هو. وهي أنه الملك الشرعيّ والمسؤول الأصلي
عن قيادة الرعية القيادة الرشيدة، وأنّ إخلاء مكانه لعمّه الذي
اغتصب الحكم وبطى بالرعية يسيء له ولأمانة والده وذكره أيضًا،



كما نبهه طيف أبيه حين تراءى له. وكذلك قد يقع لأيّ منّا في الحياة ما يُغيّر عليه نفسه ويُغيّر نفسه عليه، تغييرًا مذمومًا في تصوّر صاحبه، حتى يحسب أنّ هذا الغير المذموم صار هو. وأنه لا سبيل للعودة لأصل نفسه الأوّل، أو حتى لإنشاء أصل جديد لنفسه.

والحقّ أنّ حقيقة نفسك، أو الأصل الذي عليه نفسك، ليسا فحسب هيئة كنتَ عليها في الماضي ثم جدتَ عنها حينًا فتعود لها من جديد، بل يمكن أن تكون ما تشعر في قرارة نفسك أنك يجب أن تكونه الآن، أو ما تتوق في أعماق نفسك لتكونه مستقبلًا. بل يكفي أن تشعر بعدم الاتساق مع الحال التي تنساق وراءها والشخصية التي تُظهرها لتدرك أنّ هذا ليس أنت في قرارة نفسك، ولا هو حقيقة جوهرك، فلا تُسلم له، مهما يكن ما أدّى بك إليه.

٧. تذكّر حقيقة مكانك الوجودي

يؤنّب موفاسا ولده سيمبا لتركه مسؤولياته ونبذه لما تربّى عليه وما أُعدّ له بالارتقاء السّفية في حالة الهاكونا ماتاتا. فيقول له: «إنك أكثر مما صرت عليه». ولعلّ كلّ منا قد ذاق في مرحلة ما قدرًا من ذلك الشعور، بأنه يمكن أن يكون أكثر أو أفضل مما هو عليه. وربما كانت ترجمة تلك الكثرة أو ذلك الفضل عنده: المزيد من الإنجاز أو المال أو سعة قاعدة المعجبين أو بسطة في العلم أو الجسم، أو غير ذلك.



ومعيار الحكم الحقّ عند هذا المُفترَق، هو مدى شعورك أنت بالجودة الداخلية، أي بالاتساق مع ما تؤمن به وتطمئن له من مبادئ وتطبيقه في حياتك، وبمدى استثمار أو إهدار طاقاتك التي تستشعرها كأمنة في نفسك. يجب أن تتولّى أمانة مكانك المقدر والمُقرّر لك في دورة الحياة، وإلا ستحيا دائمًا في داخلك مُعاكسًا للحياة، مهما بدا ظاهرًا أنك تتمتع بالمعيشة عبرها. وبوصفك مسلمًا، فإنك تعلم يقينًا مكانك في تلك الدورة: بشرًا عبدًا، ويبقى أن تتعلم كيفية التحقق بتلك المكانة على وجهها.

٨. تذكّر حقيقة مسؤوليتك

إن فزاعات المسؤوليات التي نهرب منها ليست فزاعات حقيقية، بل هي انعكاس لتصورنا نحن عن أيّ أمر «جاد»، في حياة بُنيت على المسؤولية عن الجِدّ كما للهو. فالإشكال في النفوس التي نُشِئت في اللهو إنشاءً فهي في الجِدّ لا تكاد تُبين! واجه نفسك بنفسك، واتخذ موقفًا واضحًا من حياتك، وقرّر قرارًا يقظًا واعيًا ألا تسير فيها كالنائم بعد الآن.

ولا يعني ذلك أنك لا تحيد ولا تزلّ ولا تخطئ، ولا يكون لك عوارض هوى ونزوات شهوة. بل يعني أن تحدّد أصلك من طائرئك، وتعرف رأسك من رجلك! وقتها يكون حتى الرضى بالانفصام في حدّ ذاته اتساق مع النفس المنفصمة بدل السخط عليها مع استمرار فصمها!

العبرة أن تختار جادًا وترتضي واعيًا وتحمل العواقب آخرًا.



٩. تذكر ضرورة القرع ولزوم أعمال العقل

عندما يُسأل سيمبا عن سرّ تغيير موقفه بعد أن كان يرفض الرجوع لموطنه وتولّي زمام القيادة، يجيب: «لقد قرّعتني (ضربني) أحدهم بالمنطق»، في إشارة لضربة القرد. وتلك الضربة عميقة المغزى الرمزيّ كما الوَقْع الفعليّ. إنّ الانجراف لحالة الهاكونا متاتا في جوهره ردّ فعل وجدانيّ نفسيّ ارتبائيّ، لذلك لا ينفع انتظار تغيّر الحال أو تعدّله من جهة الشعور والميل الوجداني، بل يكون المفتاح غالبًا من العقل؛ لأنه ذو حكمة وحزم وبُعد نظر، وهو أقدر من القلب على القرع حين يلزم.

لذلك فهو ركن في التقرب لله تعالى والدخول من باب العبودية، وكم وردت في القرآن الإشارة إليه بوصفه كذلك: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]... لكنه لم يُعط حقه في تيارات الوعظ والتذكرة ومناهج التربية، الموجهة للقلب واستثارة الوجدان في غالبها، والتي تعتمد على نبرتين أساسيتين قد لا يفيد منهما غالب من اعتاد حياة الهوى. وهما:

• نبرة الترهيب من الموت

إنّ النفس التي اعتادت طعم أن تعيش كأنها تحيا أبدًا لا ينفع معها كثيرًا التوجيه بأن تجتهد في يومها كأنها تموت



غداً. وغاية ما يمكن أن تثيره تلك النبرة في هذه النفس هو حالة من الهلع على ما فات، والجزع من فوات ما هو آت. فيظل صاحبها مذبذباً في التقلب بين الحالين تقلباً يمنعه التركيز فيما هو حاضر، حتى يختم تلك الدوامة بالجملة الخالدة «لا فائدة فيّ ولا أمل منّي!». وإذا ثابر على العبادة وسط تلك الفوضى، فلعلّه يؤدّي ما يؤدّي من العبادات وهو غير منتفع بها أو حاضر فيها، وشبه موقن بعدم قبولها منه أو عدم أهليّته لها!

• نبرة الترغيب بالرفائق

وذلك باستنهاض معاني محبة الله تعالى ورغبة القرب منه والشوق للقاءه، وما شابهها من الأذواق الإيمانية. ومثل هذه النبرة إما أن تكون نفحة مؤقتة، فكلّ بحسب ما يصله من «الشحن» وما يدوم معه؛ وإما أن تكون ذكرى دافعة حقاً، وهذا يصلح لمن كان في قلبه أثارة من حياة سابقة أو بعض حياة متصلة. أمّا القلب الذي طالت عليه الغفلة وأطال فيها، فقد لا تتجاوز هذه المعاني عند صاحبها الإدراك العقلي للشعور الوجداني. أو إذا بلغت المعاني القلب أورثته الألم والحسرة على الذنب والتفريط دون الهمة والباعث على التوبة والتدارك الجادّين في الغالب. فيظلّ صاحبها موزّعاً بين الشعورين، بما ينعكس في ذبذبة عمله بين الجدية ساعة والتلاهي في المقابل ساعات.



”

والحقيقة الوجودية هي انه لا دافع أصيل وحقيقي يمكن أن يدفع حيًا للمثابرة في الحياة على كل تقلبات أحواله ومزاجياته، إلا دافع حس المسؤولية في ميزان الله تبارك وتعالى، وموقف الحساب بين يدي رب العالمين. خلاف ذلك، كل الدوافع الأخرى مرهونة بعوامل متقلبة ليس لها ثبات دائم أو مطلق. وهذا الدافع مركوز في الإنسان بالفطرة، ثم يختلف الفهم والتأثر والتعامل معه وفقًا للإسلام أو عدمه.

“

وتأمل في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. أي كما أنه لا يجتمع عضوا قلب في جوف امرئ، فكذلك لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب، أي كفر وإيمان. وإذا كنا نتكلم في مقام مسؤولية المسلم عن حياته وفيها، فهو أولى من غيره بألا يعيش بقلبين بل بقلب واحد مهما تقلبت أحواله. فإن لم تستطع أن تذكّي في نفسك شعورك بالاحتياج للانضباط والاتساق مع فطرتك، عليك أن تعقل حاجتك لذلك وخسارتك بغير ذلك. ففي ذلك الكفاية لتصبيرك على أول الطريق حتى تتربى فيك الإرادة فتتأوى الرغبة. ومن لم يذُق من نفسه وجع القرع مرة، ذاق أوجاع الندم والحسرة مرارًا.



”

ولا يفوت أوان الهداية والأوبة إلى الله تعالى أبداً ما دام
في الصّدر نفسٌ يتردّد.

“

وكلما بدا لك أنّ الأوان تأخر اذكر نبيّك وقدوتك، خاتم
الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمّد عليه أفضل الصلاة والتسليم، إذ
بعث وهو في الأربعين، وهاجر وهو في الثالثة والخمسين، وفتح
الله تعالى له مكة وهو في الحادية والستين، وحجّ حجة الوداع
وهو في الثانية والستين، ﷺ. وكثير من أعلام سلفنا الصالح من
الصحابة والتابعين هداهم الله تعالى على كبر.

”

«وإنّ يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمراً ما ينبغي أن
يُستهانَ به» [مصطفى صادق الرافعي]

“

• واجب الوقت ووقت الواجب

لكلّ مرحلة في العمر شغلها، ولكلّ واجب وقته كما أنّ لكلّ
وقت واجبه. وقد تتفاضل مراتب الأعمال باختلاف أحوال
أصحابها. ومفهومك للفرص الحياتية وميزانك للتنقل بينها،



يختلف تمامًا بتحديد الأقدار وترتيب الأولويات... لكن كل تلك الموازين ليست في حسابنا، لاشتغالنا بموازين مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يستقيم بها سلطان أصلاً. فلا عجب أن صارت حياة الكثيرين أشبه بلعبة «بنك الحظ» حيث تجمع المال للمال، وتكديس المقتنيات لمجرد التكديس، والتنافس للفوز من أجل الفوز فقط، وإزجاء الوقت (أو بالأحرى «قتله») لمجرد الإزجاء... وهكذا تنقلب الوسائل لغايات وتصير هي الأولويات، وتتلاشى معالم الغاية الكبرى في غفلة من «اللاعبين».

”

كم نكلّف أنفسنا فوق طاقتها فنلزمها ما لم يلزمها به الله،
ونكتب عليها واجبات عرفية متوارثة دون استبصار،
تشغلها عن الواجبات الشرعية التي لها خُلِقَتْ وهَيِّتْ
وعليها تُبْعَثُ وتُحَاسَبُ!

“

فلا تنظر لمسؤولياتك في الحياة على أنها حياة غيرك يلزمك بها، فإنما هي حياتك أنت وأنت ملزم بها مسؤول عنها وعمّا تُحمّل نفسك فيها. لذلك لا تُلزم نفسك ما لا تصدّق التطلّع له على الحقيقة، فيثقلك وهم حمّله عن حمّله، وتهدر عمرك في التسويف والتأجيل والتملّل، ثم لا يعود كل ذلك عليك إلا بنكد التذبذب في الدنيا وحسرة التفريط في الآخرة!



والموفق في هذا الجهاد المستعين بالله على الدوام، ذو البال الطويل والصبر العنيد في تربية نفسه وإنضاجها على نار لا تنطفئ شعلتها تمامًا، وإن تذبذبت أحيانًا بين الاتقاد والخفوت^(١).

• ليست كل الأحلام ممكنة ولن تقدر على كل شيء

ليست كل الأحلام ممكنة لكلِّ أحد، ولا كلُّ أحد يقدر على كل شيء. ولا نقول إنه لا بأس في الإقرار بمحدوديّات الطاقات واختلاف القدرات وتفاوت البُعد بين الحلم وصاحبه، بل نقول إنه لا بد من الإقرار بذلك! لأنّ ذلك من طبائع الوجود والموجودين.

”

فما الإشكال في أن يحلم الحالم ويسعى في تحقيق حلمه، ليكتشف ببساطة أثناء الطريق أنه لا يقدر على متطلبات ذلك الحلم أو أنّ ذلك الطموح لا يصلح له؟

“

من قال إنّ مجرد خطور الحلم على قلب حالم يعني قطعًا ويقينًا انبناء صلة وثيقة وارتباط خالد بينهما؟ إنّ الطموحات

(١) من المفيد مراجعة الفصل الثالث من كتاب (إضاءات على طريق بناء الذات) للمؤلفة عن اغتنام الأوقات وآفات التسويف والتلكؤ.



والأحلام مطامع مشروعة وليست نُبُؤَاتٍ مكتوبة! والميل لمجال والرغبة فيه وإن كانتا عاملاً معتبراً، لكنهما ليستا العامل الوحيد، فثمة كذلك متطلبات المطلوب نفسه. أي أنّ كل مطمع تطمع فيه أو طموح تَطْلُبُه، يتطلّب منك في المقابل مُتطلّبات، إمّا أن تُوفّق إليها وفيها فتقدّر عليه، أو لا يكون ذلك لك مهما سعت فيه.

ومن قال إنّ المثابرة تعني الإصرار الأعمى على نفس الوجهة، بدل أن تكون العزم الأكيد على جوهر المسؤولية أينما توجّهت بصاحبها؟ لماذا يُقيّد المسلم نفسه بتصورات هوائية تُعدّد الآلهة ثم تُوحّد وجهة الإنسان في شغف ما، على إيمانه بتصوّر سماويّ يوحد الإله ويعدّد في سبيله الوجهات والاهتمامات؟! فيم التضيق حيث جعل الله تعالى سعة، ولماذا التحجّر حين تحسّن المرونة؟

ومن قال إنّ نتيجة السعي يجب أن تكون شيئاً غير ذات السعي أو خارجة عنه؟ أحياناً ذات السعي، أي ذات الرحلة التي تسلكها وذات الطريق الذي تسيره، بكلّ عثراته واكتشافاته وخبراته، هو عين الثمرة، ودروس التجربة هي النتيجة. ولا يُلقَى تلك الثمار إلا ذو بصيرة لا تشغله الرؤية المستقبلية عن التيقظ لتفاصيل الحاضر.

ودونك هذه القصة مثلاً:



• بين وزير الملك وملاحه

في إحدى أيام الصيف الحارة، كان الملك يقوم بجولة نهريّة مع وزرائه، في القارب الملكي بقيادة ملاحه الخاص. حتى إذا قاربت الشمس على الاستواء في كبد السماء غفا الوزراء، في حين لم يكن الملاح بقادر على أخذ استراحة، إذ لم يكن هناك غيره ليجدّف. فما كان من الملاح إلا أن غمغم لنفسه متبرماً: «انظر كيف ينامون وينعمون كما يشاؤون. لست أدري لم لا يعاونوني في التجديف. ألسنا كلنا بشرًا في النهاية؟ ألا يفترض أننا جميعًا قادرون على القيام بنفس الأعمال، ومساعدة أحدنا الآخر؟».

تناهى لسمع الملك ما غمغم به الملاح لنفسه، لكنه لم يُعقّب. ثم سَمِعَا أصواتًا من جانب البحيرة، فأمر الملك الملاح بإيقاف القارب، وأرسله للبحث عن مصدر تلك الجَلْبَة. بعد قليل، رجع الملاح، فسأله الملك:

- «ما تلك الجَلْبَة؟»

- فأجاب: «إنها بعض الجِرَاء يا مولاي».

- فعاد الملك يسأل: «وكم عددهم؟»

- لم يكن الملاح قد انتبه لذلك، فعاد أدراجه للجِرَاء ثم رجع وأخبر الملك أنّ عددهم ستة.



- فسأله الملك: «وما ألوانها؟» للمرة الثالثة، اضطر الملاح للعودة إلى الجراء، ثم رجع وأخبر الملك أنّ ألوانها أسود وأبيض وبني على التوالي.

- فقال الملك: «يبدو أنها جِراء لطيفة. ترى هل هي ذكور أم إناث؟»

- لم يتمكن الملاح من إجابة ذلك السؤال كذلك، حتى ذهب وتحقق. ثم عاد، وأخبر الملك أن أربعة منها ذكور، واثنان إناث.

فأيقظ الملك عندها أحد وزرائه، وأرسله إلى مصدر الجلبة، كما فعل مع الملاح. ولما عاد، سأله الملك:

- «ماذا وجدت؟»

- فأجاب: «إنها جِراء حديثة الولادة، يا مولاي. عددها ستة، أربعة ذكور، واثنان إناث».

- فسأل الملك: «وما ألوانها؟»

- أجاب الوزير: «واحد أبيض، وثلاثة سود، والبقية بنية اللون كأمّها».

عندها التفت الملك إلى الملاح قائلاً: «عندما سألتك عن تلك الجلبة، توجب عليك التردّد على المكان أربع مرات، أما هذا



الرجل فذهب مرة واحدة فحسب. هذه إحدى الأسباب التي جعلت منه وزيرًا بينما أنت ملاح. بعض الناس يجيدون النصح وتقديم المعلومات، وآخرون لا يحسنون سوى التجديف. أفهمت الآن؟». ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الملاح يتذمر من عمله! ^(١).

• اعمل أقل، تنجح أكثر!

هذا عنوان كتاب من تأليف الكندي إيرني زيلنسكي Ernie Zelinski، الذي يعمل مستشارًا ومحاضرًا في تطوير الذات وريادة الأعمال الحرة.

على مآخذي على مسلك التنمية البشرية وأثر مترجماتها على حياتنا الفكرية والنفسية ^(٢)، إلا أن هذا الكتاب أحد الكتب التي ظلت قيمة في تقديري؛ لأنه يعتمد على شحذ حس الفرد بمسؤوليته الفردية عن حياته، عن إنشاء مسلكه الخاص في رحلة الحياة، وعدم التسليم لاتباع القوالب الجاهزة التي يلدها المجتمع ليدفن أفرادها فيها.

يناقش الكاتب بعمق الحيل النفسية الكامنة وراء اختيار معظم الناس الغرق في دوامات يثنون منها على انتشال أنفسهم

(١) قصة مترجمة عن الإنجليزية، منشورة ضمن مجموعتي القصصية المترجمة: «البعيد والقريب».

(٢) لمزيد تفصيل عن هذه المآخذ، يُراجع كتابي «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة».



منها، تحت مسمى «ضمان الدخل» في غالب الأحيان، أو «وضوح المسار» في بعضها. ولا يتوقف أصحاب تلك الفئة ليتفكروا: ما نفع إنفاق الحياة لتحصيل مال أو مكانة ليس لديك متسع لإنفاقهما على الحياة؟!!

العنوان الفرعي للكتاب «الكسل هو سر النجاح!»، وبعكس الصدمة الأولى التي توحى بها دلالة العنوان، فالكتاب لا يدعو للكسل والخمول في الحياة، بل على العكس، يدعو لإعادة تعريف الحياة ومفهوم العمل والنجاح عند صاحبها، ليكون أدعى لأخذ حياته بعزيمة. وقتها سيجد كل منا أن حياته يمكن أن تكون أهدأ وأقل ازدحاماً من اتباع القوالب السائدة، بل وأعلى إنتاجية من نهج العمل المضني الذي أرست قواعده النظام الرأسمالي العالمي. هذا غير الإحباط والتعب والضغط النفسي ونوبات التوتر العصبية.

ويستعمل زيلنسكي مصطلح «الكسول المنتج» الذي يحصل النجاح بمجهود معتدل في مواضع مدروسة وليس كيفما اتفق. وبالعكس ما يوحي المصطلح فإن تطبيق مبادئ «الكسول المنتج» ليس سهلاً على بساطتها، لأنها تتطلب قدرًا من الانضباط الذاتي والجهد المدروس والمنتظم. لكن ثماره تستحق عناء الكسل!

وأتفق معه في ضرورة أن يعرّف المرء نفسه ما معنى النجاح وما يرتضيه في حياته، بدل اتباع القوالب السائدة لا شيء إلا لأنها الجاهز للاتباع فوراً! فيقول: «لو خيّر الناس بين الحلم الغالي والاستمرار في الحياة الطاحنة لاختار معظم الحياة



الطاحنة. فهم يتحملون الرؤوساء الاستغلاليين وظروف العمل السيئة والوظائف المملة التي لا مجال للطموح فيها، لأن إيجاد عمل أفضل يتطلب وقتاً وطاقة. وليس ذلك فحسب بل إن السعي وراء الحلم المهني يتطلب مخاطرة وتغييراً، ومعظم الناس يجدون أن الأسهل لهم البقاء على ما هو مألوف، حتى لو لم يكن هذا المألوف يقدم لهم أكثر من الضجر والعمل الشاق! «أ.هـ.

”

ثم إن الإحساس بمرور الوقت سريعاً والشعور بالضغط بسبب ذلك لا يعني دوماً بأن الحياة مليئة بالمشاغل، بل على العكس من ذلك تماماً: هذا الشعور هو وليد خوف دفين ناتج من الإحساس بأن الحياة تمر دون أن ننجز شيئاً!

“

من جهة أخرى، لا يبيع الكتاب أوهاماً جوفاء أو أحلاماً وردية، فأن تتحرر من أسر القوالب المهنية والمجتمعية، وتنش لنفسك آثارها، مسلك فيه الكثير من الارتياح النفسي واستشعار الحرية الفردية، لكنه كغيره يتطلب جهداً ومثابرة وإن من نوع آخر. يقول الكاتب: «... فالنجاح له ثمن كما تعلم، المهم أن يستحق دفع ذلك الثمن لأجله. عندما تسعى وراء حلم حياتك ستكتشف - كما اكتشفت أنا - أن بناء حياة تستحق أن تعيشها قد يكون صعباً أحياناً. إذ إنه عليك أن تدفع الثمن من أجل الحصول



على مهنة مريحة مربحة ذات هدف. وهذا يعني أن عليك أن تركز نفسك كليًا من أجل ذلك الهدف. تأكد أن دفع الثمن ليس بالأمر اليسير، ولكنه أحمد عاقبة من عدم دفعه على الإطلاق!

”

أهم رسالة صغتها لنفسي من مطالعة هذا الكتاب هو أن الحياة نضال على كل حال، وكبّد من نوع ما، وإنما الشأن أن تناضل نضالاً يعبر عنك وعما تؤمن به وتعتقد صوابه، وتكابد كبداً تحتسبه وترتضي الحساب عليه من بعد أمام ربك.

“

اقتباسات نافعة من الكتاب:

✧ تذكر دائماً أن تعقيد الأمور البسيطة لا يحتاج إلا إلى رأس مُشوَّش، أما تبسيط الأمور المعقدة فوحده العبقري يقدر عليه!

✧ الأعمال التي تستحق أن تنجزها على أكمل وجه نادرة جداً. وماعدا ذلك من أعمال يستحق فقط أن تقوم به بطريقة مناسبة لا غير. لا بل أكثر من ذلك: بعض الأعمال يمكن أن تنجزها كيفما اتفق للتخلص منها! وأخيراً ثمة أعمال لا تستحق حتى أن تلتفت إليها ويستحسن في هذه الحالة أن تترك للأشخاص الذين يمتلكون وقتاً ليضيعوه!



❖ من أهم مواصفات المدمن على العمل أنه كلما كان حجم الأعمال المطلوبة قليلاً كلما كان الوقت الذي يحتاجه لإنجازها طويلاً!

❖ الفكرة التي لا تؤدي إلى عمل ليست شيئاً ذا بال، والعمل الذي لا ينبع من فكرة ليس شيئاً ألبتة.

❖ لن تستطيع الحصول على كل ما تريد ولكن لا تدع ذلك ذلك يمنعك من الحصول على العديد من الأشياء التي تقدر عليها.

❖ الإدمان الخطير على العمل هو أحد أسباب الإحساس بالفراغ الروحي. فالمدمنون يفرطون في العمل ليتجنبوا النمو الفكري والروحي.

❖ ليس عدد السنوات التي نعيشها ما يحدد مدى غنى حياتنا وسعادتنا ورضانا عن أنفسنا، بل هو نوعية هذه الحياة.

• بين التخطيط والتوكل

لا تعارض بين تخطيط العبد لسعيه وترتيبه لشؤون معاشه، وتوكله على الله تعالى في أمره وتسليمه له في قدره. فالأولى جهة التعبد بالسلوك والجوارح، والثانية جهة التعبد بالقلب واليقين بحكمة الله في حكمه وتدبيره.



حقيقة غاية التخطيط ومراده عند المسلم هو التعبد لله بمفهوم «الإعداد»، والذي يشمل إعداد العدة لمعارك القتال وإعداد العدة لمعاركة الحياة عامة؛ لأن الحرص على الإعداد من علامات الجدية في تحمّل المسؤولية، خاصة حين ننظر للعالم بالمنظور الرباني على أنها حرث للأخرة ومزرعة لها. فمن ذا الذي يُؤتَى أرضاً ويُوعَد أن ما زُرِع فيها فله أجره، ثم لا يهتم باستثمار كل شبر فيها ما استطاع، وتنويع بذورها ما أمكنه، ليحصد منها أحسن المثوبة؟ وأي بذور أغلى بالتعهد من أنفاس الحياة؟ وأي أرض أَوْلَى بالاستثمار من العمر؟

والخطة تنظيم لشؤونك في الحاضر، لا تحكّم في أقدارك بالغيب. والإشكال في الجمع بين الاثنين ينشأ من خلط هذين. فقد تخطط ثم يقع ما لم يكن في حساباتك، فتشعر أنك فقدت معنى التعبد لله على الوجه الذي خططت له. وهذا خطأ لأن لكل حين عبودية وقته، فقد تعبّدت بإعداد معيّن وفق رؤية معيّنة على ما تبين لك، ثم جدّ ما جدّ من أمر الله تعالى فيك، فاستمر أنت بالتعبد فيه فحسبه.

وإذا كان التخطيط من الأسباب التي نأخذ بها في سعيها تعبداً، فهو كغيره من الأسباب في أنّ تمام التعبد به عدم التشنج له والاستعصام به بوصفه هو مفتاح الفلاح إذ التوفيق الحق من الله تعالى، وقد يوفق الله تعالى من لم يخطط خيراً ممن خطط، ويكون الأول خيراً في توكله وتعبد به من الثاني.



فالشأن ليس في الخطة بذاتها، بل في كونها وسيلة لتنظيم عبادات العبد، فإن لم يقصد العبد بها ذلك أو دخل عليها من مدخل سقيم، كأن يعتقد تحكّمه في حاله ويتشجج لترتيباته، فاعلّه يُحرّم من التوفيق بقدر، وإن بدا ظاهراً أنه «يُنجز» المهام المذكورة في خطته. والتوفيق في العمل يشمل: انشراح صدر العامل، وتيسير العمل له، وإعانتته على الإخلاص لله فيه، وحسن انتفاعه به في عاقبته وثمرته سواء كانت عملاً بالعلم أو بركة في المال أو سعة في الرزق... إلخ.

وهذا لا يعني إهمال التخطيط أو أدوات تنظيم الوقت والحياة عامة، خاصة في عصر متداخل الأشغال كثير المشتتات والمُلهيات. بل يعني أن يأخذ كلّ عبد منها بقدر حاجته وعلى وجه التعبد.

والمؤمن الذي لا يأخذ بأسباب الإعداد والتنظيم مقصّر في التعبد بهذا السبب، ومن هنا يكون التقصير في توكله بحسبه. وقد ينتهي به المطاف محتاراً متخطباً مشتت الجهود في أيامه وأعوامه وربما مسارات حياته عامة، وكان في غنى عن ذلك بشيء من الترتيب:

رَتَّبَ لِكُلِّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَوْضِعَهُ

وَضَعَهُ فِيهِ يَاتِقَانٍ وَتَرْتِيبَ

حَتَّى إِذَا مَا أُرِدْتَ الشَّيْءَ عَلَى عَجَلٍ

تَلَقَّاهُ حَالًا وَلَا تُبْلَى بِتَعْذِيبِ



ففي حين يقطع صاحب الإعداد الطريق على بصيرة ويوفر على نفسه ومن عمره كثيرًا من مزلق التخبط غير المدروس وفوضى عشوائية الحركة، ويحسن التعبد لربه باستكمال الوسع في استثمار أنفاسه وغرلة أولوياته وتعهد مقاصده؛ تجد غير المُعَدَّ يخبط في عمى ولو بحسن نية، ولو أحسن التوكل لأحسن الفهم، ولو أحسن الفهم لاستكمل من الأسباب ما وسعه، لأنَّ سنن الله تعالى في الكون والحياة والتقدير وسداد السعي بيّنة، وليست دراما غامضة كما قد يُخيَّل للكثيرين بسبب قلة الفقه وغفلة مقاصد السير.

وإنك بوصفك مؤمنًا مطالبٌ أن تعتقد في تقرير الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، فعندها لا تنجرف بتخطيطك من الجدِّ في تنظيم الحاضر الفعلي لإحسان استثماره، لينقلب لها جس اشتغال بما سيكون عليه المستقبل، وما ستصير إليه النتائج، وما سيوافقه من توقعات ويلاتمه من سياقات. فيتسرَّب عمرك من بين أصعابك كحبّات الرمل، وأنت ذاهلٌ عن يوم في ارتقاب غدك، ولاهٍ عن واجبات الوقت بتطلّعات المستقبل وأحلام اليقظة!

ولا تزال كذلك حتى تعلم بعد فوات الأوان أنَّ قيمة الحياة كانت في أن تحياها على الحقيقة، لا أن تعيش مخطّطًا لأن تحيا!



خلاصة قاعدة الجمع بين أسباب تنظيم السعي وحسن التوكل على الله تعالى: «أن يجتهد البدن ويطمئن القلب».



فإذا كان الأخذ بالأسباب واجبًا شرعيًا، فالرضا بالمقسوم والتسليم لله في القَدَر بعد وقوعه واجب إيماني. فاسعَ ببدنك سعي عبد في الوجود لا متحكّم على الوجود، وخذ بما وسِعَكَ من أسباب أخذ عالمٍ أنه لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، وظنّ بربك في قلبك ظن مؤمن به، موقن بولايته تعالى له بما يصلحه وينفعه في الدارين.

• ما جدوى السعي والتخطيط إذا كان القدر مكتوبًا والرزق مقسومًا؟

هذا السؤال لا يحتاج لجواب بل لبيان مكانم الخلل في الفهم التي أدت لمثل هذا السؤال. ومكانم الخلل هي:

١. عدم الفصل بين الجهتين: ما يتعلق بمقام الرب تبارك وتعالى، وما يتعلق بجهة العبد. فالمقسوم والحاصل معلوم مكتوب من جهة الرب تبارك وتعالى، والسعي والعمل تكليف مكتوب على جهة العبد، على الهيئة المُفصّلة أعلاه.



٢. التعامل القلبي مع الدنيا على أنها دار الجزاء الأوفى ومُنْتَهَى الرزق الحسن هو الذي يُنشئ الخلل في أفهامنا عن مراد الله تعالى وأقداره، وبالتالي توقعاتنا من هذه الدار وأشغالنا فيها.

”

والذي يسعى سعي عبد من البداية لا يحتاج أن يسأل عن الجدوى في النهاية؛ لأنّ سعيه إنما هو تصديقٌ لعبوديته، وانعكاس للجدوى التي آمن بها بداية.

“

وإنما السؤال الذي يجب على المسلم الاشتغال به حقيقة هو:

• ما السعي الذي يُجدي؟

أولاً: الاشتغال بما أريد منك، لا بك ولا لك. فما يُراد بالعبد وله غيب عنه. أما ما يُراد منه فهو معلوم له ومطلوب منه ومؤاخذ على أساسه.

ثانياً: ما ينعقد عليه قلبك تجاه ربك في كل حال: رضا أو سخطاً، حمداً أو جحوداً، افتقاراً أو استعلاء... إلخ.

ثالثاً: ما يصدر عن جوارحك موافقاً أو مخالفاً لأمر الله تعالى: فالبكاء مثلاً جائز للتعبير عن الشعور بالحزن، بخلاف الندب والنياحة واللطم وشقّ الجيوب.



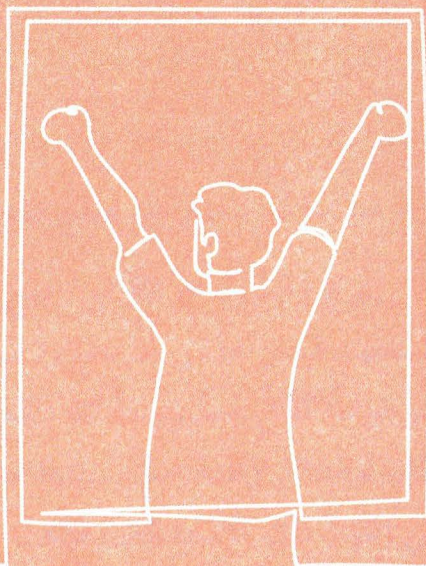
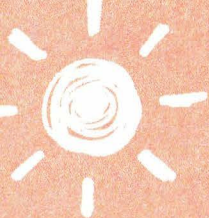
رابعًا: تعلّم أقدار وأولويات وأحكام مختلف أنواع حركة العبد في الكون لمختلف المقاصد، لا تركها اتفاقًا للهوى والتقدير الشخصي المطلق. وتجري عليها أحكام: الفرض، والمستحب، والمباح، والمكروه، والحرام.

ما بالك تفكر في كل أمر من أمور معاشك، وكل شأن من شؤون حياتك تفكيرًا لا يهدأ لك معه بال، ولا يستريح لك خاطر، حتى تقف على دقائق الحكمة أو تشقى من دونها سعيًا؟ أفما انتهى علمك إلى أن الله جلّ وعلا يُجري ما يشاء في الكون بأمره، وإن أعيا الناس فهمه والوصول إلى كُنْهِهِ؟ فما لك تجدد في طلب ما تعيا به وتزهد في الاشتغال بما في طوقك؟ ما لك ألا تستريح وتريح، فتقبل الكائن على ما هو عليه، وتقبل على ما يمكنك أنت أن تكون عليه، دونما إعنات فكر أو إشقاء خاطر؟! (٣).



مكتبة

t.me/soramnqraa



الفصل الثاني

باب السماء

من ربك؟ وما دينك؟



من منا لم يسمع عن صلح الحديبية؟

خرج رسول الله ﷺ في جمع من أصحابه، يريدون الحج، فمنعهم قريش على أن يحجّوا العام التالي في مقابل شروط شرطوها، فقبل رسول الله ﷺ، مع أن غالب الصحابة رأوا فيها ظلماً وافتئاتاً. وتصدّروهم سيدنا عمر بن الخطاب عليه الرضوان في إظهار ذلك الاستشكال، فذهب لرسول الله ﷺ، وقال:

- يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟

- بَلَى!

- أَلَيْسَ قَتَلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟

- بَلَى!

- فَفِيمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُمْ؟

- فَقَالَ ﷺ: يَا ابْنَ الْخَطَابِ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ

أَبَدًا^(١).

وفي مقابل ما يظهر أنه موقف تنازلٍ و«تصالح مصالح»، إذا عدنا بضع سنين نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه



بالرفض الباتّ لمساومة قريش، عندما عرضت تبادل عبادة آلهتهم: «تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً: اللَّاتُ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً!»، وفي ذلك الموقف نزلت سورة الكافرون^(١).

”

تُرى، ماذا كان معيار الموازنة في موقفين كلاهما يندرج تحت «القرارات المصيرية»؟ وكيف نتعلم منهما متى يكون الثبات في موقف أو على رأي، ومتى تكون المرونة وقبول بعض التنازل؟ ما الذي يقبل المساومة وما الذي يمتنع عليها؟

“

فإذا قلتَ إن المصطفى ﷺ كان مؤيداً من البداية بالوحي من عالم الغيب والشهادة تبارك وتعالى، فهذه الموازنات أثر الوحي المباشر إليه؛ دونك مواقف أصحابه عليهم الرضوان من بعده:

- موقف السقيفة بعد وفاة المصطفى ﷺ، ومبادرة سيدنا عمر لمبايعة سيدنا أبي بكر الصديق عليهما الرضوان، وجمع كلمة المسلمين على خلافته؛ في حين كان سيدنا عمر عليه الرضوان هو نفسه الذي ترك أمر الخلافة شورى بعده ولم يُسمَّ واحداً بعينه.

(١) تفسير الطبري: تفسير سورة الكافرون - القول في تأويل قوله تعالى «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ».



- وقرار سيدنا أبي بكر عليه الرضوان بمحاربة أهل الردّة، وثباته على هذا القرار رغم تخوفات بعض الصحابة في البداية، حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب أنه قال: «فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنَّ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»^(١). وفي المقابل كان سيدنا عمر بن الخطاب عليه الرضوان هو من بادر بمقترح جمع القرآن الكريم من صدور الرجال، وهو الذي دفع تخوّف سيدنا أبي بكر عليه الرضوان في البداية لما قال له: «كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟»، فقال سيدنا عمر: «هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ». يقول سيدنا أبو بكر عليه الرضوان: «فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ»^(٢).

- وفيما بعد ذلك، في أزمان التابعين ومن تلاهم، ترتب على كل قرار صياغة تاريخ وتضاريس الدنيا كلها، لا أمة المسلمين فحسب.



عندما نقرأ ونسمع نحن اليوم عن تلك المواقف، ننظر إلى تلك القرارات المصيرية الكبرى نظرات انبهار وإعظام وإجلال، وهي حقيقة بهذا. لكن المشكلة أننا ننظر لها كذلك من بُعد، أي

-
- (١) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردّة.
- (٢) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب جمع القرآن.



بوصفها لا تعيننا في حياتنا الشخصية، وقرارتنا اليومية البسيطة أو المصيرية الفردية!

- هل أختار مجال اشتغال على أساس التخصص أم خارجه، وعلى أساس مدى منفعة أم مقدار دخله؟

- هل أَرْضَى بالقليل الحالي أم أَسْعَى في مخاطرة طمعًا في أكثر؟

- هل أضع خطة لحياتي أم أمضي متوكِّلاً على الله تعالى؟

- هل أَسْتَمِر في العمل الذي أنا فيه لوجهته أم أتركه لخير منه وإن كان أقل وجهه؟

- هل أتزوج فلانة أو هل أَرْضَى بفلان؟

- هل أَسْتَمِر في الزيجة على علاّتها أم نفترق ويغني الله كلّاً من سَعَة؟

”

والحق أن بين الأمس واليوم ارتباطاً وثيقاً، وأن ثمة قواعد مشتركة في اتخاذ القرار سواء كان على مستوى فردي أو أُمَمِيٍّ؛ فالذي لا يراعي هذه القواعد في شأنه المباشر، لن يحسن عملية القرار في الذي هو أوسع من باب أولى؛ والذي حافظ عليها على المستوى الأوسع والأخطر، ألا يكون أهدى سبيلاً في شؤونه الشخصية؟

“



وانتشار ظاهرة الذبذبة في اتخاذ القرارات بين المسلمين يدعو إلى الحيرة! فمن جهة كرّمنا الله تعالى فوق مرتبة الإنسانية بنعمة الإسلام والهداية إلى الحق الناصع، فيُتوقع منا ويُنتظر أن نكون أرشد الناس وأجودهم حركة في الحياة. وعلى ذلك، يغلب على شباب المسلمين الحسرة على الماضي والتخبط في الحاضر والتوجّس من المستقبل، فهم في ظلمة نفسية وفكرية أشدّ ممن لم يعرف ربّه ولم يُهدَ إلى الحق!

وأولى أسباب تلك الظلمة النفسية والفكرية، هو عدم وعي صاحب الحياة بأسس حياته! أي عدم وضوح نسق المفاهيم والمبادئ والأولويات في نفس صاحبها، أو كونها خليطاً من ثقافات وأعراف يميناً وشمالاً لا تناسق بينها، وعدم اتخاذه بادرة ليصوغها ويرتضيها بنفسه لنفسه. وهذا ما يؤدي إلى:

• الشعور بأنك تسير كالنائم،

• أو تعلق حياتك معنوياً بانتظار حصول شيء لا تدري متى أو حتى ما هو،

• أو تسير ساقية المعاش وتسير مع السائرين في الحياة والسلام لكنك لا تُحسّ بأنك تعيش حياتك حقيقة.

• البداية من عقدة العقيدة

أول ما يتحقق به الاتساق في الحياة، موافقة المرء لعقيدته التي يعتنقها. فكل إنسان مضطّر إلى عقيدة في الحياة من حيث كونه



إنسانًا خلق مهينًا للاعتقاد، ورُكِّبَ معتمدًا عليه. فمن لم يُقبل على عُمران ذاته وتشكيل شخصيته بوعي وبقظة، بالعقيدة التي يرتضي والمرجعية التي يقتنع بالرجوع إليها، ستتلقف نفسه بالضرورة ما يُقذف لها، أو يُعرض عليها، أو يتسرَّب إليها في غفلة منه.

ولفظة العقيدة مأخوذة من مادة «عَقَدَ»، فكما أنك تعقد من الحبل عُقْدًا لتُحْكِمَ الرباط، كذلك ينعقد فكر المرء على اليقين بصحة أمر ما، وينعقد وجدانه على الإيمان به وارتضائه، ومن هنا تكون العقيدة معقودة في نفس معتنقها. فكلما رسخ المعتقد في فهم ما يعتنقه والعلم به والانضباط وفقًا له، ازداد رسوخ المُعْتَنِّق في نفسه وأُحْكِمَت ربطته، والعكس صحيح.

”

والمسلم مُكْرَم من بين الناس بالهداية للعقيدة الحقّة، الموافقة للفطرة السويّة، ولا عجب فكلاهما من مشكاة واحدة، من الله تعالى الذي خلق فسوّى فهدى.

“

وإذا عدنا للنظر في موقف صلح الحديدية في مقابل موقف نزول سورة «الكافرون»، وكرّرنا الأسئلة: ما معيار الموازنة في موقفين كلاهما يندرج تحت «القرارات المصيرية»؟ وكيف نتعلم منهما متى يكون الثبات في موقف أو على رأي، ومتى تكون



المرونة وقبول بعض التنازل؟ ما الذي يقبل المساومة وما الذي يمتنع عليها؟

• الموقف الأقدم الذي نزلت فيه سورة الكافرون، والعرض الذي تقدمت به قريش: «تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً: اللَّاتُ وَالْعُزَّى، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً!»، تجد أن قبول تلك المساومة كان سينطوي لا محالة على تمييع في العقيدة، والرضا بهذا الشكل من الهدنة كان سيتضمن بالضرورة مهادنة للباطل وخلطه بالحق.

• فالتوحيد يعني الشهادة والإقرار والإيمان بأن الله أحد، أي أنه لا إله إلا الله تعالى، وأنه وحده تعالى الإله الحق لا شريك له، وأنه لا معبود مستحق للعبادة سواه، وأن كل ما خلا الله تعالى من معبودات ومؤلفات باطلة بطلاناً تاماً ليس فيه مساحة رمادية.

• ومن ثم، أية عبادة لغير الله تعالى أو إظهار لتأييد أو احترام غيره تعالى من الآلهة الباطلة، ولو مؤقتاً، يتنافى ويتعارض ويمتنع مع عقيدة التوحيد والإقرار بالألوهية الحقة.

• وأما في موقف الحديبية، فقد قرر المصطفى ﷺ من قبل أن تتقدم قريش بخطتها أنه لن يعقد مع قريش عقداً إلا أن يكون فيه تعظيم حرمة الله تعالى وعدم خلط الحق بالباطل: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»^(١).

(١) صحيح البخاري: كِتَابُ الشُّرُوطِ - بَابُ الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةُ الشُّرُوطِ - حديث رقم ٢٧٣١.



”

وإذن، توحيد الله تعالى هو غاية الحياة في هذه الدار، والمسلم أولى الناس بصياغة نهج حياته فيها وفاقاً له، لا على الرغم منه ولا بالتعارض معه! وإلا، أين الفارق بين الكفر بالله تعالى والإيمان به إذا لم يكن سينعكس في نهج الحياة وموازن القرارات وأولويات الاختيارات؟

“

• لما أحببت ذاتي أحببت الله!

صحيح أن الإنسان لا يستطيع أن يحب نفسه إلا إذا فهمها، لكنه كذلك لا يستطيع أن يفهم نفسه على الوجه المراد - أي الموافق لخلقها والمطلوب منها - حتى يبدأ بالتعرف إلى خالقه تعالى، فيحبه ويجلّه ويستمد منه فهمه لنفسه ووجوده والوجود من حوله، على الوجه الصحيح الموافق لطبائع الخلقة.

ولو تم ذلك التسلسل تنتفي من البداية كثير من الإشكالات عن تحقيق التوازن في معاملة النفس وتقديرها، إذ لا يقع صاحبه في تضارب المفاهيم وتشوّه التصورات الذي يعاني منه عادة من يبدأ بمنهج حب ذاته على ما هي عليه بكل ما اضطبغت به، ووفق تصورات مغلوطة وتعريفات غير سوية لمفاهيم ظاهرها الحسن كالثقة بالنفس والاعتداد والجرأة والحياء والهمة... إلخ. وسيلي الكلام في هذه المفاهيم في الفصل الثالث: «زمام النفس».



• كيف يكون تحقيق التوحيد عمليًا؟

تحقيق الاتساق مع عقيدة التوحيد يقوم عمليًا على أمرين:
- العلم بشرع الله تعالى وتعلّم أحكامه تعالى في الحركة في الحياة.

- الإخلاص بجمع القلب والهَمَّ على الله تعالى، وهو الأساس الأول الذي به يُفتتح سبيل الرشاد في الحياة وسداد السعي فيها.

• أولاً: جمع القلب على الله تعالى

- المقصود بجمع القلب على الله تعالى: صدق محبته تبارك وتعالى.

فعندما «يشهد» المسلم بأنه لا إله إلا الله، فشهادته بمثابة توقيع عقد قلبي وإمضاء التزام وجداني، بأن يكون الله تعالى ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وبأن يكون أشد حبا لهما مما عداهما عند الجمع، وأن يُغلبهما على ما سواهما حال التعارض.

ولأن القلب سُمّي قلباً من طبيعة تقلّبه وتعدد مَشَارِبِهِ وشُعْبِهِ، فذلك يعني تطلب الجهد واليقظة من صاحبه في جمعه وتركيزه وتخليصه وإسلامه لله تعالى، وهذه رحلة مجاهدة مستمرة، بل هي رحلة العمر، لا محطة تتمّ مرة، فتدوم بعدها تلقائياً أبد الدهر!

- فإذا سألت: كيف يمكن للمؤمن أن يحقق التوحيد بجمع القلب والهَمَّ، وهو كغيره من البشر تتعدد اهتماماته وشواغله؟



- كان الجواب:

تخيّل حين تختار مجال تخصّصك الأكاديمي، ثم تدرس أثناء ذلك التخصّص الواحد عددًا من المواد، فلا يتعارض توحيدك لقبله التخصّص مع تعدد شُعب أو فروع علومه. بل إنّ تعدد الفروع يعمّق فهمك للتخصّص، ويرسّخ علمك في ذلك المجال الواحد.

كذلك توحيد قبلة قلب المؤمن لا يمنع تعدد اهتماماته وشواغله، إلا أنه يضبطها في دوافعها الأولى وقواعدها الضابطة وغاياتها النهائية، لتكون موافقة لشريعة التوحيد ومقوية للصلة بالله تعالى، لا شِرْكَاً فيه أو تشتيّاً عنه أو بُعداً منه.

”

إن توحيد الله تعالى ليس غاية ضمن غايات الوجود، ولا جانباً من بين جوانب الحياة، بل هو المنبع والأصل الذي تنبثق منه وتتفرع عنه بقية المشاغل البشرية والجوانب الحياتية، التي هي كذلك من تقدير الله تعالى ليجعل منها للعباد أبوابَ وسبُلَ تعبّدٍ له في مختلف أنواع حركتهم في الحياة وحالاتهم الشعورية أثناءها.

“



• ثانيًا: جمع الهم

- جمع الهمّ يعني: تركيز الاشتغال الفكري والوجداني على أمر معين.

- والهمّ من الاهتمام بالشيء، أي العناية وصرف الفكر إليه. فلا يُخلص مُخلص حتى يكونَ الإخلاص همّه بدايةً، وشغلًا شاغلًا له على الحقيقة، ممتدًا على مدار اليوم وفي أثناء تفاصيله، وهكذا يصير نهج حياته لا وقفة فجائية فحسب في لحظة ما عبّر اليوم ليستحضر فيها نية.

وتفكر في مثل حبيين في فورة بدء جبهما، تجد أن قلب كل منهما يخلص طوعية وتلقائيًا لصاحبه.



هذا معنى الإخلاص ببساطة: «دوام التفكير» أو «غلبة التفكير» في ذلك الآخر، فوق أي مشاغل أخرى مهما تزاхمت.



ولله تعالى المثل الأعلى.

هذا هو مبدأ الإخلاص، أن يشغل فكري رضا ربك لأية مدة من الزمن ولو لحظة، هذا إخلاص تلك اللحظة، إذ استخلصت

نفسك من التفكير فيما وفيمن سواه، واجتمع في تلك المدة قلبك وهمك تجاه الله تعالى.

- مثال ١: وأنت في الصلاة:

جهادك في التركيز مع ما تقول، ورَدِّ فِكرِكَ كلما شَرَدَ، وعدم الاستسلام أو الاسترسال وراء السرحان. هذه العمليات كلها هي مكابداتك في تخليص نفسك لربك، يُرجى أن الله تعالى يتقبلها منك، ويشيك عليها، ويهديك لما هو أحسن.

- مثال ٢: وأنت تحضر درسًا من دروس العلم:

أن تسير في الطريق للدرس تدعو الله تعالى في نفسك أن ينفَعَكَ بما يُعلِّمُكَ ويُدَلِّكَ عليه، ثم في أثناء الدرس تذكر ربك فتستغفره بينك وبين نفسك، ثم بعد الدرس تحمده على ما علِّمَكَ وتسأله حسن العمل به، ثم في أثناء الطريق تدعوه بحفظ دينك عليك، ثم تذكره بالذكر المشروع عند ركوب المواصلات... إلخ.

كل هذه «اللحظات» و«المواقف» المتتالية على صِغَرها، والتي لا تتطلب أكثر من أن «تركّز» مع الله الواحد، في كلٍّ منها منفردة بذرة إخلاص. وكلما زادت البذور وتفرّعت على مدار يومك ثم أيامك، تُزهر في نفسك نبتة اسمها «الحضور مع الله تعالى». فهذه النبتة هي مثال «الرحلة» التي تنمو معك مدى العمر، وفروعها - وليس نهايتها - هي «المحطات» التي تبلغها من عمل أو إنجاز ما.



”

بالمثابرة في تكرار هذا الاستحضار، بهدوء وصبر ومداومة، تتعوده حتى يورق في داخلك - بتوفيق الله تعالى - شجرة الإخلاص.

“

١. كيف أتأكد من إخلاصي؟

لا يملك أحد أن يَتَقَيَّنَ من إخلاصه في الدنيا، فذلك علمه عند الله تعالى. إلا أنَّ محاولة التحقق به ليست ممتنعة إطلاقاً ولا مستحيلة تماماً.

ومن الخطأ أن يتهياً كثير من المسلمين أن «قضية» الإخلاص متروكة لفئة مخصوصة من عِلية المؤمنين ويُعْفَى منها عموم المسلمين. هذا تصور خاطئ وتهرب من المسؤولية؛ إذ كلُّ مؤمن بالله تعالى مُكَلَّف ومخاطب بالتوحيد الذي روحه الإخلاص. وطالما أنه تكليف ممن خلق العباد ومشاغل العباد، فهو في الوُسْع، أي ممكن.

”

والصعوبة لا تُعارض الإمكان كما أنَّ الإمكان لا ينفي الصعوبة، بل منهما معاً تكون طبيعة المجاهدة والمصابرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

“



وإذا علمت أن الله تعالى هو مقلب القلوب ومصرّفها (كما كل الأمور جملة)، أيقنت أنك لست من يملك ضبط قبلة قلبك وتقلباته بنفسك، وإنما دائرة حركتك ضمن نطاق الإرادة الممنوحة لك أن توجهها لسؤال ربك تعالى تضرّعًا وخفية أن يعينك على ذلك ويهديك إليه ويثبت قلبك على دينه، ويجعل لك نورًا يصله به ويرزقك إصابة الإخلاص بفضله وتوفيقه تعالى.

”

ولن تبلغ حتى تصدق، فلا تبرح إلى أن تصدق!

“

٢. هل يمكن الجمع بين العمل لله تعالى وطلب حظ للنفس؟

- لا عمل يعمل به ابن آدم يخرج عن نطاق حكم من الأحكام الخمسة في شرع الله تعالى، وهي: حلال، حرام، مباح، مندوب، مكروه.

- هذه الأحكام الخمسة تسري على كل عمل بني آدم، بغض النظر عما آمن ومن كفر^(١)، فالعبرة في ميزان الله تعالى بحكم الله تعالى.

(١) كل خلق الله تعالى من البشر مخاطبون ومكلفون بأحكام شريعة ربهم، أصولها وفروعها، إلا في الحالات التي ورد فيها الشرع بإسقاط التكليف كلّ أو بعضه بحسب حال المكلف. فالمؤمن يُحاسب على التفريط والتقصير في الامتثال بعد إيمانه، والكافر يحاسب على كفره وعدم امتثاله أصلًا.



- مثلاً، كسب المال من بيع الخمر حرام سواء اعتقد الذي يبيعها في حرمة ذلك أم لا، وكسب المال من تعليم الناس علوم الدنيا المباحة كالرياضيات واللغات والاقتصاد والاجتماع وخلافها كسب حلال، وهكذا.

- إذا استحضرننا هذا المفهوم الواسع عن معنى في سبيل الله، وتبهننا إلى أننا نتقلب في أحكام أفعالنا وأخلاقنا وممارساتنا وقراراتنا واختياراتنا وجدنا وترفيهننا بين واحد من هذه الأحكام الخمسة، أدرك كل مسلم أنه في معية الله تعالى في كل أحواله وعلى كل أطواره، منذ يصحو إلى أن ينام، بل حتى وهو نائم، بل حتى إذا توفاه الله تعالى في نومه فلم يقم منه. فلا عمل نعمله إلا والله تعالى فيه حكم، وعلى أساس ذلك يكون حسابنا يوم نوقف أمامه سبحانه.

- ولهذا لا يتعارض طلب حظوظ النفس المشروعة مع ابتغاء وجه الله تعالى، بل هي مُتَضَمِّنَةٌ فيه، بخلاف الحظوظ غير المشروعة.

- مثال ذلك: من يطلب كسب المال ليعف نفسه أو حتى ليمتّعها فوق حاجتها، ويتكسّب من عمل مشروع، فهذا يطلب حظًا مشروعًا بسبيل مشروع، وهو مبتغٍ لوجه الله تعالى من حيث إنه التزم الطرق المشروعة.

- أما حظوظ النفس التي لا يُشَرَع طلبها فمنها محرّم مثل الرياء والتسميع ومنها مكروه كالبخل والشره^(١)، وهي حظوظ إذا

(١) الجشع والطمع والنهم، في شهوة المال والطعام خاصة.



لم تُهذَّب وتُؤدَّب قد تدفع صاحبها لطلبها من طرق غير مشروعة، ووقتها يجتمع عليه فساد النية مع فساد العمل.

- من جهة أخرى، الإخلاص لله تعالى درجات ومراتب، أعلاها أن يعمل العبد العمل لا يريد منه لنفسه حظًا ولا مصلحة ولا منفعة ولا شكورًا، بل لا يريد به إلا وجه الله تعالى ورضاه عنه.

- ثم بقدر ما يبتغي العبد لنفسه من الحظوظ ويطلب من المنافع الشخصية، ينتقص ذلك من صفاء إخلاصه لله تعالى، لكنه لا يعني خروجه بالضرورة من ابتغاء وجهه تعالى بالكُلِّية.

- ولأن حظوظ النفس لصيقة بكل ذي نفس ويصعب التجرد التام منها في الأعم الأغلب، يحسن من كل مسلم أن يجعل بينه وبين الله تعالى أعمالاً دورية يخلصها من حظوظ نفسه، كصدقة سر أو ركعتي قيام أو ذكر أو غير ذلك.

٣. هل أترك العمل إذا خشيت الرياء؟

قد يخطر للبعض تساؤل في هذا المقام عن ترك الإقدام على طلب منفعة خشية الرياء، أو ترك خبيثة صالحة اعتادها (كقيام الليل) عند عدم توافر الخلوة المنشودة.

والردّ على ذلك:

- الرياء يقوم بالأساس على «نظر القلب والتفاتة للخلق»، سواء كان ذلك بالإقدام على عمل أو تركه لأجل نظرهم.



- لذلك لا يتحدد الإخلاص بالفعل أو الترك بناء على نظر الناس لك أو نظرك للناس، بل بناء على نظر قلبك لله تعالى.

- فكمال الإخلاص لله تعالى يعني عدم الإقدام على العمل طلبًا للوجاهة أو المصلحة عند الناس، ويعني كذلك عدم الترك لعمل ما (مشروع وصالح) لأجلهم.

- والقلب لا ينضبط على ذلك إلا بنهج التربية المتصل وتجديد التذكرة بمعاني التعبد والتوحيد، على ما سيلي بيانه في الفصل الثالث.

ثم هناك معنى آخر يحسُن كذلك الالتفات له، وهو أنَّ الإمعان في الاستخفاء حين يُقدَّر الله تعالى ظهورًا، قد يكون له وجه مذموم خاصة إذا صار دَيْدَنًا؛ لأنك إذا استحضرت عبوديتك لله تعالى، فهمتَ أنه هو تعالى الذي يستعملك في الخفاء كما يستعملك في العلن، فليست أنت من تَسْتَخْفِي أو تُعْلِن على الحقيقة، بل الله تعالى يوقِّفك لمراده منك بقدر إخلاصك في طلبه منه.

- لذلك فالأسلم أن يكون نظرك دائمًا لحقيقة عبوديتك لله تعالى، وأنه هو الذي يستعملك ويوقِّفك، فلا تتكلف الإعلان حيث خفي، أو الإخفاء حيث أُعلن.



”

ولو راح كلُّ أحد يَكْنِزُ عمل الصالحات في خاصة نفسه،
ويمتنع عنها أمام الآخرين، لاندثر نشر الخير بالقدوة. وكما
أن الله يربِّيكَ بمعاملتك مع الخلق، فهو يربِّيهم بك أيضًا.

“

ثم لا يمكن لأحد أن يتحقق من إخلاصه ولو في الخفاء كما
سبق بيانه، لأنه لا ينفك عن حظوظ نفسه ذاتها، التي هي أخفى
من ديبب النملة وربما أشدَّ وقَعًا من مطالعة الخلق. وفي الحديث:
«خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا الشَّرْكَ،
فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِبِ النَّمْلِ». فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ
نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ
إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»^(١).

لذلك اجعل ديدنك كلما شككت في صلاح عملك وصدق
نيتك، أن تُتبع الحسنة بالحسنة تُعَصِّدُهَا وتشدُّ أزرها، وتستكثر
من الخيرات عسى أن يجبر بعضها نقص بعض، وتجدد التوبة
الخاصة مما تعلم من ذنوب أو تفريط، والتوبة العامة مما
لا تعلم، فإنَّ العبد لا يخلو منهما بحال.

(١) مسند أحمد: ١ مسند الكوفيين - حديث أبي موسى الأشعري - حديث رقم: ١٩٦٠٦.



”

أما لو كلما خشيت الرياء تركت وكلما شككت في الإخلاص توقفت، فأين تربية النفس ورياضتها؟ ولماذا تتخذ طلب الإخلاص ذريعة للقعود والنقص من العمل، مع أن لك منه بابًا للترقي والزيادة في العمل؟! ولو أنك تهرب من كل امتحان فما الذي سيبقى لك إذن وكله امتحان، بما في ذلك هروبك وعواقبه؟

“

وختامًا، خذ بوصية نبيك ﷺ «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»^(١)، فَتَحَرَّرْ نَفْسَكَ عَنْهَا مِنَ الِاتِّفَاتِ لِلْخَلْقِ بِالِاتِّفَاتِ لِحَالِ نَفْسِكَ وَمُصْلَحَتِهَا الْحَقَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

خلاصات

✦ إِنَّ مَسْأَلَةَ الْإِخْلَاصِ تَخَصُّ كُلَّ مُسْلِمٍ، وَتَلَزِمُ كُلَّ فَرْدٍ فِي نَفْسِهِ قَدْرَ وُسْعِهِ وَوَفْقَ عِلْمِهِ، وَالْوُسْعُ بِالتَّرْبِيَةِ وَالْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ.

(١) مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة - مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث



❖ وأول الإخلاص لله تعالى أن يكون همّك الإخلاص لله تعالى. فإنّ الإنسان بالطبيعة مخلص لهُمومِهِ. لكن من لم يهتم حقيقة لن يَصْدُقَ حقًا.

❖ ويا بؤس عُمرِ مُسلمٍ ينفقه منتسبًا لله تعالى ويُحاسب على أساس انتسابه أمام الله تعالى، ولم يكن الله تعالى همّه حقيقة يومًا في عمره!

• ما الذي تَرجوه عند الله تعالى مما تعمل أو تترك؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبَلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ:

- «يَا بَلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدَكَ فِي الْإِسْلَامِ مَنَفَعَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ».

- فَقَالَ بَلَالٌ: «مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنَفَعَةً مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طُهُورًا تَامًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أَصَلِّيَ»^(١).

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ - باب من فضائل بلال رضي الله عنه - حديث رقم: ٦٣٢٤.



”

في ثنايا هذه القصة عبرة خفيّة، ومعيّار أكيد لضبط الأولويات لمن شاء أن يُسدّد سعيه، وهُما كَلِمَتَا: «أَرْجَى عِنْدِي».

“

- إننا نعمل أعمالاً كثيرة في يومنا، وأسبوعنا، وشهرنا، وعامنا؛ لكن كم من هذه الأعمال نرجوه عند الله؟ أو ما الذي نرجوه عند الله تعالى مما نعمله في حياتنا؟

- هل استوقفنا مثل هذه التساؤلات في عملنا بقدر ما يستوقفنا التفكير في آمالنا؟

- أم أننا نحيا حياة غير الحياة ونتمنى على الله تعالى الأمانى؟

”

إذا عرضت هذا السؤال (ما الذي أرجوه عند الله تعالى؟) على ما تفعله بالفعل في حياتك وما يشغلك من أعمال، يمكنك أن تميّز الغثّ من السمين، وتعيد ترتيب أولوياتك وتتخفف من الأعباء الجوفاء. وإذا جربت أن تعمل قائمة بما سترجوه عند الله لو توفّاك الآن، لعله يدهشك أن تبين أنك منشغل شغلاً كاذباً بما لا ترجو ثوابه عند الله، وما ترجوه حقاً أنت عنه غافل أو غير مهتم به كفاية.

“



ولو صدقنا في جواب السؤال، لوجدنا أن أوّل ما يجب أن يتصدر قائمة الرجاء حقيقة واجبات عينيّة لا يدع لنا سير الحياة المشحون - الذي نختاره - وقتًا للإتيان بها على وجهها في غالب الأحيان:

- الفرائض التي نخطفها خطفًا بسرعة، وقصار السور التي «لا وقت لدينا» لأكثر منها أو لا نحفظ غيرها.

- البرّ بالأهل الذين ننصرف عنهم، ولا وقت لدينا لحقوقهم ولا طاقة عندنا لمجالسهم والصبر على حسن معاملتهم، في مقابل شدة الرعاية للمجاملات الخارجية والآداب الاجتماعية. مع علمنا بمعيار «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ»^(١)، لأنك لا تختار أهلك وإنما الله يمتحنك بهم كما يمتحنهم بك؛ لذلك معاملتك معهم هي أصدق ما يكشف حقيقة طبعك وصدق ابتغائك لوجه الله تعالى.

- القرآن الذي «نستقطع» له بالكاد من وقتنا «الثلثين»، وما نستقطعه أخيرًا لا نكاد نحضّر فيه ذهنًا ولا قلبًا، إلا لِمَامًا!

- طلب العلم النافع حقًا، والانتفاع به حقًا، والنفع به حقًا؛ وليس أي علم أو كل طلب يمكنك أن ترجوه حقيقة عند الله تعالى.

- أوراد الذكر والتسبيح والاستغفار.

- الدعاء والمناجاة... وهَلُمَّ جَرًّا.

(١) سنن الترمذي، وابن ماجه، والدارمي.



لو أن الشغل الشاغل في الحياة صار إجابة سؤال:

”

كيف أبتغي فيما آتاني الله من صحة وعلم ووقت فراغ وأسرة وأجهزة ومال ومتاع.. كيف أبتغي في كل منها الله تعالى والدار الآخرة؟ كيف أستعين بها على معاشي المؤقت في الدنيا وكذلك أجعل منها لي رصيذاً خالداً؟

“

لأنضبط تقديرنا للأمور في حجمها الحقيقي، المراد بها ومنها، وعدم تضخيم الصغير وتصغير الكبير.

كونك - مثلاً - طالباً أو موظفاً أو والدًا، لا ينبغي ولا يلغي كونك عبدًا لله في المقام الأول، بل إنه يوجّه تعاملك وفهمك لكيفية التعبد في هذه الأدوار. فإذا كنت طالبًا تسهر للدراسة، ينبغي ألا تجور الدراسة بحال على الحد الأدنى من الفروض والأوراد الأساسية في أوقاتها. وبحسن تنظيم الوقت وتركيز الجهد، ينبغي ألا تفوتك زهرة الشباب عامة بغير رصيد من النوافل والقيام والأذكار وتعاهد القرآن وعبادات السر، وكذلك التنبه إلى الاستزادة والتوسع العلمي وعدم التوقف عند حدود الدراسة، فإن لكل عمر شغله، وهذه الفترة هي مرحلة ذهبية حيث الانشغالات محدودة والأعباء مرفوعة.



وإذا كنت تسرف في العمل فوق المطلوب لتحصيل مرتب أعلى أو تنمية سيرتك المهنية، لربما تراجع نفسك في أولوية صرف تلك الأوقات مع أولادك وأسرتك، أو الالتفات لتزكية نفسك وتهذيبها، وتعهد كتاب الله تعالى بالتلاوة والتدبر والحفظ والتفسير، عسى أن يكون لك نورًا في قبرك وشفيعًا عند ربك.



أنت إنما تودع رصيّدًا لك عند ربك، من صحتك لوقت مرضك، ومن فراغك لوقت شغلك، ومن غناك لوقت فقرك: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].



• كيف أوقن بالإجابة وأنا أدعو وأجد دعائي لا يُستجاب؟

لنتأمل في هذه المواقف من سير الأنبياء ﷺ، أكرم الخلق على الله تعالى، وأكمل الخلق في الأدب مع الله تعالى والإذعان لحقيقة أنه ليس للعبد من الأمر شيء، وأن الأمر كله حقيقة وحقًا لله تعالى.

- سيدنا نوح ﷺ طلب من الله تعالى أن ينجز له وعده بأنه ينجيّه وأهله، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، فكان الرد الإلهي: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَعِزَّ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]،



فأتبعه الرد النبوي بأكمل تسليم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

- سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي وعد أباه أن يستغفر له، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. ولما قال له الله تبارك وتعالى: «إني جاعلك للناس إماماً» فدعا سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يكون من ذريته أئمة كذلك، فكان الجواب من الله تبارك وتعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

- سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، أكمل الخلق وأكمل الأنبياء عليهم السلام، دعا عمّه أبا طالب على فراش الموت ليدرك الإسلام: «أَيُّ عَمٍّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١)، فتأمل إحكام العبارة، إذا بدون موافقة الإذن الإلهي ودخول حماه لا يحق للداعي أن يسأل ما لم يأذن الله تعالى بسؤاله. وعلى محبته صلى الله عليه وسلم لعمّه الذي آواه وحماه، مات أبو طالب على الكفر، فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَلَمْ أَنَّهُ عَنْهُ» فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ثم نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار - باب قصة أبي طالب - حديث رقم:



- ألم يكن الله تعالى قادراً أن يهدي الكافر ويعطي الضمانة
إكراماً لخواطر الأنبياء ﷺ؟

- بلى! لا ريب!

لكن مشيئته تعالى جرت بغير ذلك وله سبحانه الحكم
والحكمة، فمحلّ الامتحان ليس قدرة الله تعالى وإنما تسليم
العبد لمشيئة الله تعالى موقناً بحكمته سواء تبدّت له أم لا، وسواء
وافقت هواه أم لا.

المسألة كلها في محل الامتحان، ليست قدرة الله تبارك وتعالى
هي محل الامتحان من العبد، ولم يقم هذا الوجود لأجل أن يوافق
أهواء البشر منه ومراداتهم، وإنما المسألة كلها هو أن يدرك العبد
أنه هو محل الامتحان من الله تبارك وتعالى في عبوديته وتسليمه
لمراد الله تبارك وتعالى. والخيرة دائماً وأبداً فيما يختاره الله ويُقدّره.
ولله تبارك وتعالى ما أعطى، وله تبارك وتعالى ما منع، وكل شيء
عنده بمقدار. والأمر كله إليه هو، وليس لأحد من الأمر شيء.

لذلك فالسؤال ليس كيف أوقن بالإجابة؟ بل كيف يصح
ابتداء دعاء مسلم انطوى قلبه على مثل هذه التساؤلات التي
تعكس خللاً في الفهم ونقصاً في العقيدة، وبالتالي هشاشة في
الإيمان بالله تعالى، وإسلام النفس له؟! فإذا كان المسلم من
جهته لم يستوفِ شروط الدعاء، أنى يتنظر استيفاء الإجابة؟



”

إن الذي لا يدخل على الله تبارك وتعالى مدخل العبودية،
لم يدخل عليه تبارك وتعالى، لأنه ليس لمقام الألوهية
مدخل إلا مدخل العبودية والتسليم.

“

وكذلك لو كان أحد حقيقاً بأن يرى نفسه مستحقاً للإجابة،
لكانوا الأنبياء أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى، لما جعل الله
لهم من مكانة معلومة. لكنهم ﷺ ضربوا لنا المثل الحي
والقدوة التامة في كمال التسليم لله تعالى. كلهم ابتلوا في
أولادهم وذويهم بمختلف أنواع البلاء، ومنه أن يختم لبعضهم
على الكفر، فلم يأت منهم من يترحم على كافر بدعوى قرابته،
أو يسأل الله تعالى استثناء مراعاة لخاطره!

والمصطفى ﷺ هو أشفق الخلق وأرحمهم، ومع ذلك لم
يقع منه أن أشفق على ما آل إليه عمه شفقة تطغى على حرمة
جناب الله تعالى فتدفع للاجترأ على مسأئلته تعالى - مثلاً - لِمَ
لَمْ تَمَنَّ عَلَى عَمِي الَّذِي أَكْرَمَ مَثْوَايَ بِالْهَدَايَةِ؟ حَتَّى إِنْ سَيَدْنَا
الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمَّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: «عَمَّكَ أَبُو طَالِبٍ كَانَ يَحْوَطُكَ وَيَنْفَعُكَ»، يقصد هل
يرفع ذلك عنه العذاب؟ فكان المصطفى ﷺ هو الذي أخبر



عن عذابه: «إِنَّهُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ وَلَوْلَا أَنَا كَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(١).

فلو كان أحد مستحقاً على الله تبارك وتعالى شيئاً بما آتاه من مكانة، لكانوا هم. فسبحان الله العليّ العظيم! أنى يُوَاتِنَا من الكبر والجرأة على مقام الله تبارك وتعالى، كأنا ضَمِنَّا عليه تعالى مكانتنا وما نراه حقاً لنا! أنى تكون مثل هذه النفسية نفسية عبد يسأل، بل هي نفسية مُتَأَلَّه يتشرّط! فأوّل العبودية أن تُدرك أنك أنت محل الامتحان من الله تبارك وتعالى، وليست قدرة الله تبارك وتعالى محل الامتحان منك.

أوّل العبودية أن تدرك أن عبوديتك وتسليمك لله تبارك وتعالى هي محل الامتحان، أنت محل الامتحان في يقينك بإخبار الله تبارك وتعالى لما قال لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولما قال لنا: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

محل الامتحان في يقينك بأخبار المصطفى ﷺ في الحديث: «لا يزال يُسْتَجَاب للعبد ما لم يَدْعُ بِإِثْم، أو قطيعة رحم، ما لم يَسْتَعْجِل» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجب لي، فَيَسْتَحْسِرُ عند ذلك

(١) مسند أحمد: مسند بني هاشم - حديث العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ - حديث رقم: ١٧٦٣.



وَيَدْعُ الدَّعَاءَ»^(١). فتأمل، مع أن المصطفى ﷺ أنبأنا منذ ١٤ قرنًا عن هذه الحال، ما يزال المسلمون يتساقطون فيها!



أين إذن اليقين بأخبار المصطفى ﷺ؟ وأين اليقين بأخبار الله تبارك وتعالى؟ إذا لم يوقن المؤمن بكلام ربه ورسوله، فما الفارق بينه وبين المكذب بهما إذن؟



وكذلك جاء في الحديث أن استجابة الدعاء لها ثلاث صور: إما أن يُعَجَّلَ للعبد بما دعا، وإما أن يُصَرَفَ عنه من السوء بمثل ما دعا، وإما أن تُدَّخَرَ دعوته. فموضعك موضع العبد، ما يدريك ما الذي يحصل في جهة الرب تبارك وتعالى! ما يدريك أن الدعاء لم يُسْتَجَبْ؟ أنى تقطع بهذا؟ إذا كان مرادك أنت لم يحصل، فهذا ليس معناه أن الدعاء لم يُسْتَجَبْ، هذا غير ذاك.

وتأمل في هذا المثال: من يذهب ليخطب وُدَّ فتاة بباقة ورد، فتسعد الفتاة وتقبل أن تُخطب إليه، هل عين الباقة هو ما حقق ود الفتاة، أم أن المتوسَّلَ بالباقة إليها هو المهم؟ أي شخص المتوسَّلَ وليس مجرد الباقة؟ وكذلك مدى توسَّله بهذه الباقة وبغيرها. فمن ذا الذي يرجو خطبة فتاة يكتفي بإرسال باقة ورد



أو تقديمها، بل هو يستمر في تكرار وتنويع وسائل التوسّل حتى يتحقّق له المدخل إلى قلبها.

ولله تبارك وتعالى المثل الأعلى مطلقاً. فعندما يحصل لك مراد، ليس ذلك لأنك قمت بطلب ذلك الطلب، عندما يحدث لك مراد فإنما ذلك مرده لمشيئته تبارك وتعالى وحده، لا لأي عامل آخر. ولذلك ليست المسألة في قيامك بطلب طلب معين من الله تبارك وتعالى، ليس هذا حقيقة مفهوم وجوهر الدعاء، وإنما المسألة كلها في قيامك بالعبودية عند طلبك ذلك الطلب. فتكون طلبات العبد ومراداته وأهوائه من أسباب دفعه إلى التوسّل إلى الله تبارك وتعالى، والتودد إلى مقام الألوهية. فبحسب ما تُري الله تبارك وتعالى من صدق عبوديتك وتعدد وسائل التوسّل والتذلّل والافتقار، يكون ترقّيك في مراتب العبودية وتحقّقك بها، ومحبة الله تبارك وتعالى لك.

ولذلك بهذا المعنى، كان الدعاء مخ العبادة، أي جوهرها وروحها. ليس لكونه مصباحاً سحرياً نقصه على تحقيق المرادات والشهوات والأهواء الدنيوية، فهذا رزق كغيره من الأرزاق سيأتي منه ما يشاء الله به وما كتبه لك، ولن يأتيك منه ما لم يأذن الله تعالى به ولم يكتبه لك. لكنك في موضع العبد، لا تدري الغيب ولا تعلم ما المكتوب ولا غير المكتوب، ولا ما الذي قُسم لك ولا ما الذي لم يُقسم لك، فتكون مراداتك ورغباتك وأهوائك من أبواب دفعك إلى الافتقار إلى الله تبارك



وتعالى. فلذلك تكون المسألة كلها في مدى حقيقة افتقارك، وحقيقة يقينك أن الله تبارك وتعالى يسمع ويرى.

والله تبارك وتعالى مُطَّلِع رَأْسًا على سريرة كل عبد لاريب. هذا من متطلبات العبودية لله تعالى، أن يوقن العبد أن الله تبارك وتعالى مُطَّلِع على السرائر، وهو العليم الخبير اللطيف بعباده، فهو يمنع ويمنح وفق حكمته المطلقة وحكمه المطلق، فلا يُسأل ولا يُساءل.

لكننا في زمن يأبى العبد أن يلزم حدّ عبوديته، ويُصرّ أن يجعل من نفسه ندًا لمقام الألوهية. فيرى أن له الحق أن يسأل ويسأل، ويرى نفسه مستحقًا للجواب والتبرير لفعل الألوهية، وكشف الحساب من مقام الربوبية، تبارك الله وتعالى.

”

وليتنا يوم نَسأل عما لم نُؤتَ لماذا لم نُؤتِه ونحن نرى أننا مستحقون له، ليتنا نَسأل كذلك عما أُوتيناها!

“

لماذا لا نَسأل عما أعطانا الله تبارك وتعالى من نِعَم؟ لأننا كذلك نرى أننا مستحقون لها. فنحن مستحقون للنعم التي أُعطيناها ومستحقون للنعم التي لم نُعطها ونطلبها، وغير مستحقين لأي نوع من أنواع الابتلاءات. هذه خلاصة استقرت في قلوب كثير، وعنها تتفرّع مثل هذه التساؤلات، فنحن نفترض على الله تبارك وتعالى



افتراضاً الممتن بعبوديتنا وإسلامنا له، نرى أننا نستحق عليه كذا وكذا، ونتشترط تشترط ندأ، مع أن إسلامنا يفرض علينا أن نتأدب بأدب العبد الذي يوقن حقيقة أنه ليس له من الأمر شيء، وأن الأمر كله لله، والملك كله ملك الله تبارك وتعالى. الله تعالى وحده أن يؤتي من يشاء ما يشاء، وينزع ممن يشاء ما يشاء، ولا يُمكن أن يُساءل عما يفعل، إذ من المستحق ومن القادر ومن المكافئ لمقام الألوهية حتى يُسأل؟

وبدل أن ندخل على الله تبارك وتعالى مدخل متشترط الند، أو مدخل المتشكك المتذبذب قاطع الرجاء والأمل، ندخل عليه مدخل العبد الذي يطمع طمع العبد، فيسأل المالك من ملكه، ويرجوه رجاء العبد الذي يوقن أن سيده لا يريد به إلا خيراً، وأن كل ما يقضي به خير، وكل ما يكون من الجميل جميل.

وإن أعظم نعمة أنعم الله بها علينا هي نعمة الإسلام، وإن لم يكن فيها إلا صيانتنا ووقايئنا من عذاب جهنم الخالد أبداً، لكفى. فكيف به وكله نعم؟ بم استحققنا هذه النعمة العظمى؟ ما الذي فعلناه لكسبها؟ ما الذي قمنا به حتى نستحق على الله هذه النعمة أولاً، فنرى من بعدها أننا نستحق كل ما عداها؟

ثم بم استمدنا هذه النعمة، أليس الله تبارك وتعالى يحفظ علينا إسلامنا؟ ما الذي قمنا نحن به حتى نزداد رسوخاً ويقيناً في هذا الدين العظيم؟ متى شكرنا نعمة الله هذه حق شكرها؟ بل متى شكرنا الله تبارك وتعالى حق شكره في أية نعمة من النعم التي أتانا إياها حتى نجد في أنفسنا الجرأة أو ضعف الإيمان لنسأله فيما لم نُؤت؟



صدق الله العلي العظيم إذ قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾
[الزمر: ٦٧]. وهذه هي مصيبة المسلمين في إسلامهم قبل آية
مصيبة أخرى!



والخلاصة أن الله تبارك وتعالى مستجيب ويستجيب طالما
التزم الداعي الدعاء المشروع، انتهت المسألة عند مقام الرب
تبارك وتعالى. وإنما الشأن كل الشأن في جهة العبد وموضع العبد
وقيامه بالعبودية، فيكون سؤالك يوم تسأل: «هل دعوت الله حقاً؟
هل دعوت الله على وجه الدعاء الذي يدعو به عبد مولاه؟». وإنك
إذا قدّرت ربك تبارك وتعالى شيئاً من حق قدره العظيم، لكنك
دائماً في تذبذب وتشكك من جواب هذا السؤال من جهتك أنت،
فأين ما يضمن للداعي أنه دعا الله تعالى يوم دعاه حق الدعاء، وأنه
تعبد إليه تبارك وتعالى يوم تعبد حق العبودية؟^(١)

• التعرف على ربنا تبارك وتعالى

رغم إدراكنا العقلي لضرورة محبة الله تعالى وإقرارنا
اللساني بذلك، إلا أنّ شعورنا القلبي والوجداني يعاني من

(١) لمزيد بيان في مسائل الدعاء والابتلاء والقدر خيره وشره، يُراجع كتابي
«الأسئلة الأربعة».



ضمور في استعشار المحبة الحقيقية والصادقة لله تبارك وتعالى،
وينعكس الضمور بالتبع في العناية بإخلاص النية والصدق في
ذلك. لماذا؟



لأننا لا نعرف ربنا تبارك وتعالى معرفة جادة، ولا نبذل في
سبيل التعرف إليه بذلاً صادقاً: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾
[الزمر: ٦٧].



ولتدرك أثر المعرفة الجادة وأهمية عمقها في بنية المحبة،
تأمل في علاقاتك بالبشر، تجد أن صلتك تتوطد بأولئك الذين
تتعرف إليهم عن قرب، وينزلون من قلبك منزلة خاصة، دون
غيرهم ممن يمرون عليك مروراً عابراً عن بعد، فلا يشغلون في
بالك حيزاً يُذكر.

وكما أنك - مثلاً - لا تنهض من عمل تحبه لتأكل حتى
«يقرصك» الجوع وتدفعك «الحاجة»، فكذلك بدء بذل الجهد
الجاد في التركيز والحضور مع ربك تعالى، يتطلب استشعارك
مبدئياً لحاجتك الشخصية والحقيقية لأن تتعرف إلى ربك تعالى،
وتتعلم آداب وأحكام شريعته، وإلا كنت عرضةً للهلاك بتكديس
أعمال في الدنيا تحسبها من الصالحات وأنت موفّق فيها، ثم
لا تجدتها عند الله إلا هباءً منثوراً.



وكما أنك مثلاً تحب بعض أصناف الطعام أكثر من غيرها، فتقبل عليها مدفوعاً بمحبتك لها وإن لم تكن جائعاً تماماً، كذلك يُرجى أنك تترقى بالصدق في بذل الجهد لمعرفة ربك تعالى، فتذوق من أنسِ حضرته وبركة ذكره في الشدة والرخاء والرهبة والرغبة، ما يدفعك إليه رغبة ورهبة وحاجة معاً.

- فإذا سألت: ما المقصود بمعرفة ربي تبارك وتعالى؟

- كان الجواب: مكتبة سر من قرأ

غالبنا يعلم أسماء الله تعالى علماً تقريرياً، أي أننا نسردها مُقرّين أن هذه الصفات هي لله تعالى وحده. فالله تعالى هو وحده بالتأكيد: الخالق، الحق، العدل، المالك، الرزاق، الباقي... وهكذا. لكن المعرفة الحقّة تبدأ من إدراك المسلم لدلالة أسماء الله تعالى ومقتضيات صفاته تعالى في تكوين هذا الوجود وسننه ومخلوقاته (أي ما تقتضيه عملياً من تطبيقات)، ثم ما ينبني على إيمانه بها في حركته هو في الحياة، فكرياً ووجدانياً وسلوكياً.



هذه المعرفة وذلك الالتزام بتطبيقاتها هو الفيصل بين المؤمن بالله تعالى وغير المؤمن به، وإلا فما معنى الإيمان وما جدواه إذا لم يكن يمايز بين الاثنين في تصوّر غاية الوجود ومفاد الحياة ونهج إحيائها وضوابط الحركة فيها؟!



• خارطة مفاتيحية لمعرفة الله العمليّة:

فيما يلي رسم عملي، يلخص منهج تعلم كل اسم من أسماء الله تعالى وصفاته، بحيث تطبّقه على أية مادة تطالعها فيها:

- تعلّم المعنى اللغوي والاصطلاحي (الشرعي العقدي) للاسم أو الصفة، ثم دالّتهما أو أثرهما العملي في تكوين هذا الوجود وسنّنه ومنهج سيره.
- مثال: الله المالك.

– المالك لغة: صاحب ملكيّة ما.

– المالك اصطلاحاً: «الْمَلِكُ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، مَلِكُ الْمُلُوكِ لَهُ الْمُلْكُ وَهُوَ مَالِكُ الَّذِينَ وَهُوَ مَلِكُ الْخَلْقِ أَيُّ رُبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ».

– من دلالاته التطبيقية: لا يقع شيء في الكون إلهاً بمشيئة الله تعالى، وإن خالف ما يحبه ويرضاه.

تعريف الاسم أو الصفة

- تعلّم ما يترتب على إيمان المؤمن بالاسم أو الصفة الجليلين، وأثر ذلك في حياته فكراً ووجداناً وحركة.

• مثال: أن يدرك المؤمن بالله المالك أن الفضل كله لله تعالى أولاً وآخرأ، وأن ليس له من الأمر شيء. بالتالي، كل حق جعله الله تعالى لأحد في سياق أو منعه إياه، إنما هو تقسيم المالك في ملكه، وهبة من فضله، فلا يقارن أحد نفسه بغيره ويقول: «اسمعني؟» ففرق بين ألا يكون لك شيء أصلاً فتذهب شيئاً فتحمد وترضى، وأن تفترض أنه يحق لك شيء استباقاً فإذا لم تعطه استشعرت المظلومية وسخطت على الحرمان.

فهم المقتضى

- تعلّم أنواع وأشكال المخالفات التي إذا صدرت من مؤمن فهي تتعارض مع ما يقتضيه إيمانه بالاسم الجليل.

• مثال: إيمان المؤمن بالله تعالى وفهمه لمرتبة العبودية ومقام الألوهية، تمنعه من التجرؤ على مقام الله تبارك وتعالى بالعتاب والمساءلة الفاجرة، كمن يكشف حساب من ندّ له! أو كمن يرى أن الأقدار جائرة والدهر ظالم والعدالة منعقدة في الأرض والسماء سيّان!

فهم المخالفات



خلاصات

✦ مدى حرص المؤمن بالله تعالى على العلم بربه تعالى من محكات صدق إيمانه.

✦ و(المحكُّ) اسم آلة من (حكَّ).

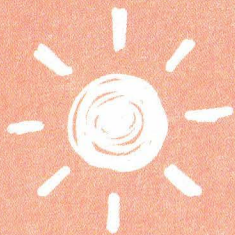
✦ وحكَّ الشيء: فركه ليختبره كما تُحكُّ المعادن بالأحجار، لاختبار مدى جودتها وأصالتها.

✦ فكَذلك يتجلى صدق إيمان من أعلن إيمانه بالله تعالى في حرصه على التعرف إلى ربه تعالى طواعية وقت رخائه.

✦ ومن رصيد ذلك الحرص وتلك المعرفة تكون عُدته في الشدة.

✦ إن اختبارات الدنيا وشدائدها تحكُّ المؤمن وتفرِّكه، لتكشف له عن مدى أصالة معدنه وحقيقة إيمانه، فيرسخ يقينه في ربه إذا كان ممتلئاً بالفهم على بصيرة، أو يُورث الحيرة والتشتت في صلته بربه إذا كان خاويًا جاهلاً!





الفصل الثالث

زمام النفس

كيف أُحسِّنُ صُحبة نفسي؟



• نفسك مسؤوليتك أنت

لا بد أن تعي وتدرك أنك المسؤول الأول عن نفسك وما يصدر عنها ويعتمل فيها: أفعالك وكلامك ومشاعرك وقراراتك، والمكانة التي تُنزل نفسك إياها في نفوس الناس، والمكانة التي تجعل الناس ينزلونك إياها في العلاقات التي تختار أن تبنيها معهم أو تكون جزءًا مقدورًا فيها، فكما عليك - مثلاً - أن تكفّ عن غيرك أذاك وضررك المادي والمعنوي، كذلك عليك مسؤولية صون نفسك عمن وعما يؤذيها ولا ينفعها ماديًا ومعنويًا... وهكذا.



مسؤولية استنهاض النفس من رقتها، وزحزحتها من إخلادها، ودفعها أو جرجرتها بصبر ودأب من قاع الاختناق لسعة التنفس.. كل هذا مسؤولية كل فرد على نفسه وفي نفسه وبنفسه.



فقرر قرارًا واعيًا وصريحًا مع نفسك أن تكون واحدًا من ثلاث: أن تتحمل تلك المسؤولية وما يترتب عليها من تربية نفسك وإنضاجها وتأهليها؛ أو أن «تطنش» تلك المسؤولية



وتستمر بالعشوائية في الحياة كيفما اتفق وتلقي باللوم دائماً على كل من وما حولك: فالأقدار ظالمة والظروف تعيسة والناس خبيثو النوايا والوقت يجري والشغل دوامة والأهل مملّون... إلخ؛ أو أن تكون بين بين، فحيناً أنت مسؤول عن نفسك وحيناً أنت معفي من أية مسؤولية وعلى الغير تحمّل تبعاتك، وفي بعض الأمور تواجه نفسك بنضج وصراحة لتقوم المعوج من شأنك ثم في أمور غيرها تترك الحبل على الغارب فأنت مفعول به، معمول عليه، مضروب فيه، ميئوس منه!

”

إما أن تقرر ما تريد أو تريد ما تقرر، وإما أن تعني ما تقول أو تقول ما تعني، وإما أن تكون على قدر تطلّعاتك أو تُفصّل أهدافك على مقاسك، فتريح وتستريح من العبث بين بين!

“

• انتظار طوق النجاة

نعم، نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر، لكن التواصي جهة، والمثابرة على ما نتواصى به والاستمرار عليه ولو بأدنى قدر حتى في أحلك الأوقات النفسية جهة أخرى، والجهتان منفكتان. ونحن لا نحب أن نقر بذلك الانفكاك بين الجهتين، ونتكوّر في رَحِم الضعف مفضلين ظلمته، على وجع مخاض النور



وميلاد القوة، فنظل دائماً معلقين بأطواق النجاة الخارجية، منتظرين الصحبة الصالحة أو الصديق القوي أو الشخصية الملهمة، فإن لم نجد، أو وجدنا حيناً ثم فقدناهم حيناً، نلومهم على تركنا لضعفنا، ونحقد عليهم استغناءهم عنا بقوتهم!

ووالله ما منا إلا ضعيف!

ووالله ما القوة إلا بالله!

هاتان الحقيقتان اللتان نخطئ دائماً تقديرهما حق قدرهما! وهاتان الحقيقتان اللتان بهما تتفاوت مدى قوة الناس وصلابتهم، ويتفاوت مدى الحضيض الذين يمكن أن ينجرف إليه كل واحد في نفسه، فيستنهض نفسه منه أو يُخلد إليه حتى يموت على ذلك!



والمشكلة كلها من الأصل تكمن في أننا إما أن نظرق الأبواب الخاطئة، أو نظرق الطرق الخاطئة، أو نرفض الدخول حتى بعد فتح الباب!



لذلك إياك أن تعفي نفسك من مسؤولية نفسك مهما يكن حالك؛

وإياك أن تعوّل على مخلوق أبداً مهما يكن حاله؛



وإياك أن تجعل ربك آخر ملاذك، أو تصادر أحكامه
بأحكامك:

- قد منّ الله عليك بالإسلام فلا تكفره،

- وأدخلك في حمى الديانة بفضله فلا تُخرج نفسك منها
بحماقتك؛

- باب ربك مفتوح فلا تغلقه،

- وحياتك مستمرة فلا توقفها،

- وقبرك آتٍ فلا تتعجله،

- ولا تبع نفسك بنفسك، فإن عاقبة ذلك على نفسك.

• لست وحدك

أيًا ما يكن من شأنك في هذه الحياة، وأيًا ما تكن ظروفك،
اعلم علم اليقين أنك لست المبتلى الوحيد في هذا الكون،
ولست المختبر الوحيد بهذه الحياة، ولست المسؤول الوحيد عن
نفسه.

وأنت قد تخرج من هذه الدنيا لا يدين لك أحد بشيء مهما
عشت تظنّ غير ذلك؛ لكنك قطعًا - شئت أو أبيت - تخرج منها
مدينًا لربك تبارك وتعالى بالحساب عمرك فيمّ أفنيته، وعن
شبابك فيمّ أبلّيته، وعن مالك من أين اكتسبته وفيمّ أنفقته، وعن
علمك ماذا عملت فيه.



”

وفي المرة القادمة التي تهمل فيها بالفرار من ثِقَلِ حِمْلٍ ما،
فِرَّ به إلى الله تعالى، ولا تفرّ منه.

“

• دراما الجلد والمعاداة

يغضب الكثيرون من أنفسهم لا شك، سواء لتفريطها أو كسلها
أو غير ذلك من سَوَاءات؛ لكن بدل أن تجد حلاً أو تضع خطة لترتبي
في نفسك العادات الحميدة شيئاً فشيئاً، تكتفي بدوام التأنيب
والتوبيخ والتجريح والشتم لنفسك! فتتمرد هي بدورها عليك
وتعاديك، وتعيش في حرب داخلية أنت قائدها وضحيته في آنٍ معاً!

”

هذا النوع من التعذيب النفسي واتخاذ الغم بذاته عملاً
ليس مما يُتعبَّد به لله تعالى بحال، بل هو من كبرى
أسباب النكد في الحياة والبعد عن الله تعالى، فتأمل.

“

• الثقة بالنفس والنزعة القارونية

صار مفهوم الثقة بالنفس مرادفاً للشعور بعظمة الذات
واستعلائها، تحت مسمّيات ظاهرها يبدو حسناً لكن باطنها



فاسد؛ لأنها من آثار الخلط بين التصورات الأجنبية للنفس كما رسمها الكافرون بخالقها الحق سبحانه، والتصور الذي ترسيه علوم التزكية والآداب الشرعية في ضوء الإيمان بالله خالقها.

فالمسلم يدرك مسؤوليته عن تربية نفسه على الرسوخ الداخلي والمتانة الوجدانية، ويدرك في نفس الوقت أنّ طبيعة القلب القلب والأصل في النفس تدافع الأهواء والرغائب، هذا يعني عدم إمكان الركون لثبات الذات الدائم والتعويل الواثق على جهدها. بل الثابت الوحيد هو ربنا تبارك وتعالى، والثقة المطلقة معقودة به سبحانه وبتوقيفه. فالمسلم يستمد الثقة والثبات وقوة الشخصية من صحّة عقيدته ومدى قناعته الصادقة بها.

هذا تصور غير تصور الثقة بالنفس في المستوردات الأجنبية، الذي يجعل النفس هي المركز، والثقة تنطلق منها وتنتهي إليها؛ فالإنسان هو العملاق السيد على الكون (ليس فيه)، ذو الطاقات الهائلة والإمكانات الجبارة... وهلمّ جرّاً. ومن ثم لا عجب أن يكثّر تداخل تلك التصورات مع آفات الكبر والإعجاب بالنفس والرضا المطلق عنها والاعتزاز بها ليس على علّاتها وعِلَلها بل بهم ومعهم!

• المثالية الوهمية

من عجب أنّ المثاليين أكثر الناس سمنة في التنظير وأشدّهم هُزالاً في العمل! لماذا؟



لأنَّ شعار المثاليِّ «إما الأفضل على الإطلاق وإما لا على الإطلاق»، دون تفرقة بين درجات التمكن المطلوبة لمختلف الأعمال بحسب سياقاتها. فإما أن يبرع في كل شيء، ويتفوق على كلِّ الأقران، وإما لا شيء ولا قرين البتة! فيهدر آلاف الطاقات والأوقات، بدعوى أنَّ المتوفر لا يرقى لما يطمح إليه!



والأدهى أن طموح المثاليِّ ذاك هُلامي لا معالِم له!



فعوضاً عن أن يشرع في الإنجاز بما يتوافر بين يديه، ليقارب تلك الصورة التي يطمح إليها، يختبئ وراء جدار عازل بين ما هو عليه وما يمكن أن يرتقي إليه، ويرى في كلِّ فرصة صعوبة، وفي كلِّ تحدٍّ مستحيلاً، ويتوخى الضمانات المسبقة. فإذا كانت مشاريعه تتضمن قدرًا من المخاطرة أو نوعًا من التغيير أو حاجة للتجريب والاختيار، فلأنَّ يجمد في مكانه أحبَّ إليه من أن يجرب خوض «المجهول»، ويتحمّل كلفة نتائج «غير مضمونة».

والمثاليُّ يعلم النتائج المترتبة على ذلك من الهدر والهذر، لكنَّ التسويف الدائم يعطيه شعورًا عظيمًا بالراحة، راحة التأجيل وعدم الاضطرار للمواجهة فوراً؛ وفي نفس الوقت يُعفيه من الشعور بالذنب لأنه ليس كالفاشلين الذين لا هدف لهم ولا طموح للمعالي، بل هو ذو هدف وطموح لكنه «يؤجله»



فحسب للوقت «المناسب»، وهذا تكتيك مدروس! وهكذا، شعور المثالي الدائم بذنب وَهْمِيّ يُعْفِيهِ أو يُعْمِيهِ عن مواجهة الذنب الحقيقي أو حتى الشعور به! من ذلك مثلاً، التَخَوُّف من طول الوقت الذي ستستغرقه تجربة أو إنجاز عمل ما، يجعل المثاليّ يطيل التذبذب بين الإقدام والإحجام، لدرجة أن يُضَيِّع وقتاً أطول في ذلك التَخَوُّف!

وهكذا يَجْرّ تسويف اليوم لتسويف الغد، ويصير اليوم أسبوعاً، والأسبوع شهراً، والشهر سنة، والسنة سنوات، وضاع العمر بين التحسّر والتمني!

”

وكم ممّن يُجَرِّجِر في ذيله أهدافاً وتطلعات «مؤجلة» من سنوات، وستظل تؤجّل لسنوات طالما يفكر بنفس العقلية «المثالية» في القصور والركود!

“

مكتبة

t.me/soramnqraa

• تقدير الذات

تقدير المسلم لذاته يعني إنزالها المنزلة التي جعلها لها خالقها، والعمل بمقتضى الكرامة التي أسبغها عليها حين اصطفاها من بين العالمين للإسلام، وكلّفها بمعرفته وعبادته سبحانه.



- وذلك بالتيقن من قيمة نفسك وقصد خلقك وحكمة تكوينك:
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

- فتسعى لفهم طبيعة خلقتك لترشيد تعاملك معها والتأدب بأدب العبودية في القيام بمسؤوليات التكليف، واستشعار مِنَّة الله وفضله عليك مرارًا، بما خلقك وسوّاك وعدلك، ثم هداك إليه ودلك عليه وجعلك من أهل دينه، ثم أعانك على التكليف وأقدرك على الطاعة.

- هذا يقين يجب ألا يُزعزعه أي عارض من زلل أو ذنب، إذ كرامة المخلوق مُستمدة من جلال الخالق تعالى، الذي لا يخلق مثقال ذرة عبثًا، ثم كرامة المسلم مستمدة من اصطفاء الله تعالى له وهدايته للحق.

- فلا حق لمخلوق في نفي ما أثبتته الخالق بجلاله تعالى.

- ومن مدى يقين المؤمن بجلال خالقه تبارك وتعالى، يكون احترامه لنفسه وجده في إكرامها بتعلم ثم امتثال أمر الله تعالى فيما أعطاه إياه أو ابتلاه به أو منعه عنه أو امتحنه بالوقوع فيه. فكما أنّ لأوقات الطاعة أنواع تعبد، فكذلك لأوقات الاعوجاج الإنساني أنواع تعبد تعالجها وتقوّمها، كالتوبة والاستغفار.

- استشعار مسؤوليتك عن ذاتك يعني التوقف عن حمل شِماعات لوم الآخرين والتحسر من الظروف الجائرة على



حقوقك وأولئك الذين يستفزون أسوأ ما فيك وذلك الذي يجبرك على ما لا تريد... إلى آخر تلك الأعذار التي لا ترفع عنك الحساب طالما بلغت سنّ التكليف والرشد والطاقة على تربية ذاتك من الموارد المتاحة لك.

- وتأمل كيف وَصَفَ اللهُ سعي المرء بأنه تقديم لنفسه، أي جزء من جنس عمله: ﴿قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ^{٢٢٣} وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

[البقرة: ٢٢٣].

- لذلك فهي أحقّ الناس عليك برشاد صحبتها والتعامل معها تعاملًا سَوِيًّا: بالحرص على معرفتها بكلّ جوانبها، وتفهم قابليّاتها وأطوارها، وتعهدا بما يصلحها.

- وإذا رَشَدْتَ في معاملة نفسك كنتَ أَرْحَبَ صدرًا مع الآخرين، وأكثر استعدادًا لتقبّل إمكان وقوع مختلف ما يمكن أن يقع من بشر ومع بشر، وأقْدَرَ على حكمة التعامل مع كلّ ذلك دون الإفراط في المحبة أو البغض.

• الجديّة في بناء علاقة سَوِيّة مع الذات

تخيّل تجهيز كافة المقادير المطلوبة لعمل كعكة ما، ثم إلقاءها جميعًا في آنٍ معًا في إناء وضربها ببعضها، ثم تقديم الخليط النهائي بوصفه الكعكة! هل يُتوقع حقًا أن يكون نتاج تلك الفوضي مادة تشبه الكعك من قريب أو بعيد؟ بالتأكيد لا! لأنّ عملية صنع الكعك تتطلب ترتيب أولويات الخطوات،



وفصل المقادير والتعامل مع كلِّ بحسب طريقة طهوها. أما إذا كنت منشغلاً جداً، أو خائفاً جداً، أو متكاسلاً جداً، أو أي نوع من الأحوال المانعة جداً، بحيث لا وقت عندك لأداء العمل على وجهه الصحيح، فلن تصل لعمل كعكة، أيًا كان ما ستثابر في عمله وأيًا يكن قدر الجهد الذي ستبذله.

من هذا المثال يتضح مكنم التفرقة بين مسارين متداخلين:
- السباحة الهائمة داخل رأسك، والتَّجَوُّال على غير هدى بين خواطر نفسك من جهة؛

- والتفكر الجاد والتحاوُر المُجدي مع نفسك من جهة أخرى.
النوع الأول هو الغالب في نهج تعاملنا مع نفوسنا وحديثنا معها، مع أنه لا يعدو في الحقيقة كونه حيلة لتلافي مواجهة نفسك مواجهة حقيقية بتلك المواجهة الزائفة!

وهذا هو الحاصل مع من يُكثِر الحديث مع ذاته والتفكر في دواخل نفسه، ومع ذلك لا يبلغ شيئاً ذا جدوى أو أي شيء على الإطلاق؛ لأنَّ التفاعل الجاد مع الذات يعني المعرفة والفهم الواعين لطبائع شخصيتك، ودوافعك، ومشاعرك، ورغباتك، ومخاوفك؛ بمحاورتها وسؤالها والتفكر في جوابها. وذلك في محاولة لتسترخي أو تصنع أو تبني أو تصلح أو تحسن أو تحلّ أو تتغاضى أو تتجاوز، أو أي فعل بنائي أو هدمي يترتب على تلك المحاورات وذلك الحديث.



”

بناءً منهج صحبة للذات ليس مهمة تنجز في مرة، بل هو رحلة تربّي قد تستغرق مدى العمر؛ لذلك فهو يتطلب التعلم والتجريب، والمِران والتدريب، إلى أن تصل لطريقتك الخاصة في التفاهم والتعامل مع ذاتك. ولا مكان في ذلك لمَلول، ولا مستعجل، ولا مستهتر!

“

• كراهة الذات بسبب الإحباط من كثرة الذنوب والتقصير

بداية، مثل هذا النوع من الحزن ومثل هذه الكسرة هي علامة على حياة القلب، وبشارة طيبة على بقاء صلة القلب بربه تبارك وتعالى وعلى مراقبته له في الخلوة وفي السرّ، بخلاف ما يظن صاحبها أنها أثر انقطاع صلته بربه وعدم الأمل في إمكان صلاحه. وإلا فما يراه الناس منا في العلن غالبًا ما يكون على ما يرام ومع ذلك لا نرضى داخليًا؛ لأننا ننظر في مرآة السّريرة وليس مرآة العلن.

وما منا إلا ضعيف، وما منا إلا وهو ذو هوى أو شهوة يعالج حرّها وشدّها وجذبها. ولعلّي لا أبالغ لو قلت إننا في زمان كل منا قد ذاق طعم إدمان ما، بمعنى شدة التعلق بمادة ما والانجرار الدّاهل وراء ما تُملّيه على صاحبها، والسّخط في نفس الوقت من هذه العبودية على حلاوتها وعلى الاستمرار



فيها. وكذلك ما منا إلا وهو ذو ذنب أو ذنوب، كبيرة كانت أو صغيرة، دائمة كانت أو متقطعة، من نفس النوع أو من أنواع مختلفة، لا مزايدة في هذا.



أول ما ينبني على إدراك هذه الحقائق أن تعي أنك لست وحدك فيما تُعانيه، وفيما تُقاسيه، وأنت لست بدعاً ناشراً نافراً في الكون، بل أنت إنسان طبيعي. بكل مشكلاتك وعقدك وأحزانك وآثامك تظل إنساناً، وتظل لله عبداً.



فإياك أن تشتط فتُخرج نفسك من طور الإنسانية، فتخطّ وقتها حقيقة؛ لأن للإنسان حدوداً طالما بقيت فيها تظل إنساناً. والأهم ألا تُخرج نفسك طواعية من حمى العبودية، لأنك لن تُخرج ولا تستطيع أن تُخرج، كلنا مخلوقون على هيئة العبودية ومطبوعون عليها. فإذا تصورت أن صلتك بالدين انقطعت، وأنت بشكل مجازي أو حتى في نفسك حقيقي، خرجت من الديانة بسبب ذنوبك وما عاد يستقيم منك ولا معك إسلام، كل ما سيحصل أنك ستحرم نفسك بنفسك من بركة ونور طوق النجاة الذي أكرمك الله تعالى به، فتكون كمن اختار العمى وهو مبصر! أو كمن اختار أن يسير في طريقه مُظلماً وفي يده المصباح.



وهذا مفاد استعاذة المصطفى ﷺ من الكفر بعد الإيمان. تأمل في الحديث عن سيدنا المصطفى ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١). هذه الثالثة من أشد ما يُغفل عنه، وهذه الثالثة أكثر ما يقدر عليها كل مسلم.

”

فمن منا لا يكره الكفر بعد الإيمان بغض النظر عن قوة أو ضعف إيمانه؟!

“

مجرد تخيل أن ينقلب بك الحال إلى الكفر لا يرضاه مسلم ولا يحبه ولا يطمئن إليه، مهما كان مقدار تفريطه. ومن منا يحب احتمال أن يقذف في النار بعد أن فاز بضمانة الوقاية منها؟! فطالما أكرمك الله تبارك وتعالى وأدخلك في حمى الإسلام ففي هذا ضمانة ضمنية لوقايته من الخلود في عذاب النار. من منا تطيب نفسه أن يستهين بهذه النعمة؟! ومن منا يسعه أن يرفُس هذه الضمانة؟! هذه الضمانة؟!!

طيب إذا كان هذا الحال طبيعياً، فما المشكلة إذن؟

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان - حديث رقم: ١٦.



- المشكلة الأولى أن هذا الحال طبعي بمعنى وارد وقابل للحصول من حيث كونك إنساناً فيه طبائع الغرائز والهوى والشهوات وإمكانيات تقلّب وما إلى ذلك، لكنه ليس حالاً سويّاً من حيث إن فطرة الإنسان ليست مهیئة ليكون هذا حالها على الدوام. وأقصد حال دوام الشعور بالذل والعار والكدر والحزن وكراهة الذات وسائر مشبّطات العزائم، أما وقوع الذنب والتقصير فوارد أبداً في حق ابن آدم.

- المشكلة الثانية: التعامل غير الطبيعي وغير السويّ مع هذه الأوضاع حين تقوم في نفسك. أولاً، لنتفق على تاريخ انتهاء صلاحية لوم والديك ولوم الظروف الخارجية ولوم عقد الطفولة وصدمات الماضي وما إلى ذلك، الآن بدأ تاريخ صلاحية ريادتك لنفسك وتقويمك ورعايتك لها. فلا بد أن تواجه أنت عُقد نفسك ومشكلاتها؛ ولا بد أن تُحسن أنت لنفسك حيث أساء لها الآخرون، وأن تصونها وتحفظها وتصد عنها المزيد من الإساءات، لا أن تكون أنت والخارج حرباً عليها. وحتى في الحديث عن المصطفى ﷺ: «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(١).



فما بالك تعين كلّ أحدٍ على نفسك ولا تعين نفسك أنت؟!



(١) صحيح البخاري: كتاب الحدود وما يحذر من الحدود - باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة - حديث رقم: ٦٧٨١.



• كراهة الذات بسبب الشعور بكراهة الآخرين لها

الحب يتطلب جهدًا، سواء في بذله أو إعطائه أو حتى طلبه. ونعم، الحب يُطلب كما يُطلب غيره من الأمور سواء المعنوية أو المادية. فلا إشكال في ذات الطلب ولا في ذات البذل ولا في ذات العطاء، وإنما في الآداب والأحكام والحيثيات المتعلقة بكل^(١).

وتأمل في وزن لفظة الاجتماع التي منها مجتمع وجماعة وسائر الاشتقاقات المعبرة عن الصلة بالناس: اجتماع على وزن افتعال، فلا بد فيه من الافتعال بمعنى تكلف جهد من جهتك، أي بذل جهد فوق معتادك أو فوق ما يريحك أنت أو فوق ما تفترض وتوقع. أما موقف الجمود في مكانك وافترض أن يأتيك الناس أممًا لأنك تعلم من نفسك مهارات وطاقات وجاذبية كامنة، هذا افتراض خرافي.

”

لا أحد يقرأ دواخل أحد، ولا أحد يطلع على الغيب،
ولسنا مطالبين بتخمين السرائر أو استباق علم ما لم نعلم.

“

(١) فصلت الكلام على هذا ما استطعت في كتابي «قلب مصون»، فأنصح بمراجعته.



إذا كنت تريد أن تُعرَف عند أحد أو مجموعة من الناس فعَرَف بنفسك. وإذا كنت تجد في نفسك قوة أو طاقة أو مهارة تريد توظيفها بين الناس تكلم وأبِن عنها وأفْصَح عن نفسك. تكلم حتى يراك الناس! هكذا بالتفاعل والاشتباك والتخاطب الذي هو وسيلة التواصل بين الناس، هكذا يكون التعايش مع الناس ثم بناء الصَّلَات.

لكن كثيرًا منا يقيس على محيط الطفولة أو النشأة الأولى التي كانت العلاقات فيها بسيطة والكل فيها يعرف الكل فيها، وهذا صحيح إلى حد ما، فالكل لم يكن يعرف الكل طواعية أو تلقائيًا! بل باتباع نفس هذا المبدأ من بذل الجهد في التعريف عن نفسك والكلام عن نفسك بأفعالك ومبادراتك. كل الشأن أننا في وقت الطفولة أو النشأة الأولى كنا نبذل هذا الجهد بتلقائية وعفوية الطفولة وفطرة الإنسان فيها، فلم نكن نلتفت لمعنى بذل الجهد الكامل فيه.

وهذا يقودنا إلى ما يعتري كثيرًا من النفوس في مراحل النضج الانتقالية. يغلب في هذه المراحل أن يعتري صاحبها إما أعراض كراهية الذات والنفور منها والشعور بعدم استحقاقها لأي خير أو محبة وما إلى ذلك مما سبق الكلام فيه. أو يعتليها الكِبَر والشعور بأن الأرحام لم تُنجِب مثله وأنه فريد بين أقرانه، وما إلى ذلك من تصورات فرعونية.

العبرة أنه أيًا يكن ما استقر في نفسك عن صورة نفسك تأكد أنه ينعكس تلقائيًا فيما يمكن أن يسمى الذبذبات الشخصية أو



الهالة الروحية التي تنبعث من الشخص، وتكون عاملاً قوياً - من بين عوامل أخرى بالطبع - في نفور الناس منك أو قربهم إليك، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن لكل إنسان بدوره هذه الهالة. فمن هنا كانت المقولة: «الطيور على أشكالها تقع»، أو حديث «الأرواح جنود مجنّدة»^(١).

هذه الذبذبات المنبعثة منك وهذه الهالة التي تدور معك، تُرسل بالنيابة عنك وباسمك رسائل ضمنية لمن حولك، فمنها تجد نفورهم العام أو إقبالهم حتى قبل أن تتعامل معهم.

”

لذلك لا غنى عن البدء في إصلاح صلتك بنفسك قبل أن تسعى أو ترجو صلاح صلتك بمن حولك.

“

• التصالح مع الذات

إصلاح صلتك بنفسك يبدأ من التصالح معها بتقبّلها هي ذاتها بوصفها نفساً بشرية، نفخ فيها الحق جل وعلا نفخة الحق وأعطاهما الحق في هذه الحياة، ثم أكرمها بالاصطفاء لِحِمَى الحق. فلا يحق لك بأي وجه أن تنزع عنها هذه الحقوق، التي أحق لها خالقها تبارك وتعالى، تحت أي مسمى.

(١) فَصَّلَت الكلام على كل هذا في كتاب «قلب مصون».



”

ولا يعني تقبّل نفسك الترحيب بما ترتكب من أخطاء
أو ذنوب بوصفها ليست أخطاءً ولا ذنوبًا، بل سَمِّ
الأشياء باسمها واعرف حكمها وتقبل أنك تتقلّب بينها.
هذا المقصود!

“

تقبل ببساطة أنك تخطئ كما يخطئ بنو آدم، لا أن الخطأ
حين يصدر منك لا يكون خطأً، وبالتالي فأنت تعتذر لبشر أو
تتوب إلى الله تبارك وتعالى، وتجتهد ألا تعاود نفس الخطأ، وقد
تعاود فتجدد التوبة أو الأسف، وهكذا. المهم ألا تسمي الخطأ
صوابًا ولا تقلّب الذنب إلى حسنة، ولا تعتبر نفسك قالبًا مُصمّتًا
لا بد أن يتقبله كل أحد بعِلّاته فيحب العِلّات فيه، بل سَمِّ
العِلّات باسمها واشكر للآخرين التماس العذر للعِلّات، كما
تلتمس أنت العذر لعِلّاتهم، وما منا إلا ذو عِلّة. فهذا مما يُعيننا
على جبر كسور بعضنا والتعاوض والتآزر، وليس المقصود منها
ألا تُسمّى العِلل عِلل أو أن يُنظر إليها بوصفها محاسن!

والتصالح مع النفس يعني كذلك الكفّ عن العيش بنفسية
الحرب المستمرة، سواء داخل نفسك أو في الصّلات حولك.
فأنت دائمًا في حالة استنفار، في حالة استعداد للهجوم أو للدفاع،
فلا بد من وجود متّهم ما عند كل كلمة، ووجود مقصّر ما في كل



صِلَّة، ووجود مخطئ ما في كل موقف، ووجود جانٍ ما وفي مقابله ضحية ما.. هذا النوع من النفسية الحَدِّيَّة والمستنفرة دائماً والاتهامية والحرب الباردة التي تُشَنُّها من نفسك على نفسك وعلى غيرك، هذه النفسية لا تصلح أرضية للتعايش، فكيف باستقرار شيء عليها سواء كان صلة أو عمراً كاملاً؟



**وإن كثيراً مما نُمشِكُله لا مشكلة فيه حقيقة، لو تعقّلنا!
وكثير من التهم التي نستमित في دفعها عن أنفسنا أو
نلصقها بغيرنا لا تهمة فيها أصلاً، لو تريثنا!**



هذه المعارك والحروب المستنزفة تُنسيك معنى كونك إنساناً، وتُنسيك من باب أولى معنى كونك مسلماً. لذلك ذكّر نفسك أن أساس الصلة التي تبنيها وتعتني بها والدائمة والدائرة معك حيث دُرت في هذه الحياة هي صلتك بالله تعالى. والتفكير في الله تعالى ورجاؤه ودعاؤه ومناجاته ليست حصراً ولا قصراً على النخبة الصالحة التي لا تُذنب، أو إذا أذنبت لا تقع فيما تقع فيه نحن العوام من مصائب! بل الصلة بالله تعالى هي حقّ كَفَلَهُ الربّ الجليل لكل عبد على كل أحواله وفي كل أطواره، فلا تصدر ما آتاك الله من حقوق، ثم تروح تبتئس وتلوم الناس على ما يصادرون من حقوقك، إنك أول من صادر حق نفسه بنفسه!



وَرُبَّ ذَنْبٍ أَوْ ذُنُوبٍ تَكُونُ هِيَ الدَّافِعَةُ لِمُصَاحِبِهَا لِلتَّرَقِّي فِي مَدَارِجِ الْعِبَادِيَّةِ، بِعَكْسِ مَا يَظُنُّ أَنَّهَا تَدْفَعُهُ لِلانْحِطَاطِ، كَيْفَ ذَلِكَ؟ بِحَسَنِ تَعَامُلِهِ فِيهَا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. فَتُرَبِّي فِي نَفْسِهِ الْإِنْكَسَارَ وَالذُّلَّةَ وَالْإِفْتِقَارَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَدَوَامَ التَّرَدُّدِ عَلَى بَابِهِ تَوْبَةً وَدَعَاءً وَتَضَرُّعًا أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ وَيُصْلِحَهُ وَيَتُوبَ عَلَيْهِ. وَهَكَذَا يَدْفَعُكَ شُعُورُكَ أَنَّكَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِفَضْلِ اللَّهِ لِلْإِقْرَارِ بِاسْتِحْقَاقِ اللَّهِ تَعَالَى بِالشُّكْرِ عَلَى فَضْلِهِ، لَا لِجُحُودِ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَالسَّخَطِ عَلَى الْإِنْعَامِ.

”

سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيُّ فَهْمٍ هَذَا الَّذِي يَدْفَعُنَا لِلْبَعْدِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِدَلٍّ أَنْ يَقُودَنَا إِلَيْهِ؟ فَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ رَأَيْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْإِنْعَامِ فَتُبْتَغِدُ وَتَجْحَدُ. وَإِذَا ابْتَلَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَيْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْإِبْتِلَاءِ فَتَسْخَطُ وَتَجْحَدُ. أَيُّ إِيْمَانٍ هَذَا الَّذِي لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ لَا فِي عَافِيَةٍ وَلَا فِي بَلْوَى؟!

“

وإنَّ شُكْرَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ عِدَّةُ أَبْوَابٍ، بِذِكْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَمْدًا وَثَنَاءً، وَدَعَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعَمَلٍ مُخْتَلَفٍ أَنْوَاعِ الصَّالِحَاتِ، عَلَى رَأْسِهَا أَنْ تَكُونَ مُتَسَمِّحًا لِنَا هِينًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْخَلْقِ، فَبِقَدْرِ مَا تَرَى أَنَّكَ لَسْتَ مُسْتَحِقًّا لِفَضْلِ اللَّهِ



عليك ومع ذلك يتفضل الله عليك، تهون في معاملتك للناس، وإن لم يكونون مستحقين لكل خير.

• كَفَّ عَنِ الطَّرِيقِ وَادْخَلَ الْبَابَ مَفْتُوحًا!

حتى متى نظل ننتظر هبوط لحظة الهداية وحلول الخلاص؟ متى نعي أن الحياة رحلة سير فعلي وليست محطة وصول، وأنها مجاهدة للاستقامة على المنهج وليست تخبط بحث عن منهج، وأن الهدى الذي نحتاجه حقا بين أيدينا فعلاً؟!

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ما آتانا الله يكفي ويغني لو أننا نأخذ به ونشكر نعمته بالاشتغال بفهمه والعلم به. فمتى نجتهد في العمل بما علمنا على قلته فيورثنا الله علم ما لم نعلم على كثرته؟ متى نجد فيما تبين لنا من هدى فيزيدنا الهادي هدى؟

ألا ترى إلى من تضرع لله تعالى باكيًا: لئن دلتني يا رب على الطريق لأكونن من القانتين! فلما هداه ربه معالم للسير، لم يأخذها بقوة ويشرع في السير، بل عاد يتباكى مُصِرًّا على حيرته: «رَبِّ أَرِنِي بِصَائِرِ تَطْمَئِنِّي»، فلما أراه بصائر تكفي بداية، عاد يتمنى: «رَبِّ لئن أرسلت لي موجهًا يأخذ بيدي.. فإني بعد محترار مذبذب!»، فلما آتاه الله تعالى معينًا تحسّر: «رَبِّ لئن آتيتني مما آتيت همة».. وهكذا كلما آتاه الله مما سأل شيئًا عاد يتمنى فوقه أشياء!



”

آفة النفس ليست فقط الحيود عن الطريق والانحراف بعيداً عن الاستقامة، بل التكاثر عن السير، وافتعال العجز، واستعظام الخطوة، والركون للقعود بين الأمانى. ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، لكن كلما قيل لهم اخرجوا.. اناقلوا إلى الأرض.

“

فالمشكلة حقيقة ليست في أي عجز فعلي. وإنما في:

- ضبابية الرؤية والتصور الجاد: من نكون، ومن نريد أن نكون؟

- وذبذبة العزائم: فيوماً نريد الله وأياماً نتبع الهوى

- وسطحية العلم: فنحن نعرف ما يتوجب علينا العلم به ونهمله،

وننفق في تعلم ما لا ينفع أكثر مما نصبر على ما نوقن أنه ينفع!

- وطول الأمل: فكل يوم غداً وكل غد بعد غد.. وضاع العمر

يا ولدي!

- وقصر النفس: فننشغل بـ «متى أصل؟» عن: «ماذا يتوجب

علي الآن؟»!

وبالتالي تتيه عنا الوجهة، وتتخبط الخطى، فتركن للحيرة

وانتظار الخوارق، ونغرق في بحور وهم التطلع لهدي أو انتظار

فرج تنشق عنه السماء بغتة، وهو بين أيدينا.



إن الهداية التي تنشدها طولاً وعرضاً، هي دونك وبين يديك؛
أورادك التي تستصغرها فتهملها، وصلواتك التي تستثقلها أو
تنقرها، وقرآنك الذي تملّه ولا تصبر على نوره، وفجرك الذي
تتكاسل عنه، ووالداك اللذين تتضجر منهما، وثمرتك التي تؤجل
التنقيب عنها، وغيثك الذي تغفل أمانته!

والله الذي رفع السماء بلا عمد.. الهداية بين يديك وسبلها
مفتحة أمامك وربها أقرب إليك من حبل الوريد، فخذها بقوة،
واشدد على نفسك تأخذ بأحسنها. كفّها عن دلالها وخذها بعزم.
وقد ضرب الله لك مثل الكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو
تركه يلهث، كمثّل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد إلى
الأرض واتبع هواه، فمهما يؤتّى من أسباب الهدى لا ينتفع بها،
من جناية نفسه على نفسه، فتأمل رعاك الله!

حاشا الله جلّ في علاه أن يجني على أحد! أو يحرم صادقاً
هداه، وقد وعد سبحانه ومن أصدق منه قِيلاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا
فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
سيهيدك الله سبله هو بأمره هو، لا سبلك التي تتصورها في
رأسك.

فاختر لنفسك مثّلها وعاقبتها، إما أن تسير أعرجاً فيقومك
الله، ومكسوراً فيجبرك الله، ومتعثراً فيسدك الله. أو أن تُخلد إلى
الأرض وتركن للعجز، ويطول عليك الأمد، فيقسو قلبك.



”

وأنت وما اخترت، ولا يملك لك أحد من الأمر شيئاً.
فلا يكن بينك وبين الله إلا الله، فلتجد في فقه أمره،
ولتعمل بما تبين. ولتدخل من الباب المفتوح يرحمك الله.

“

• اجعل الحكم لله في نفسك أولاً

اعلم أن رضا الله تبارك وتعالى غاية تطلب وتُدرَك. وهذا من
عظيم فضل الله العلي الكبير ذي الجلال والإكرام الذي يسر علينا
رضاه وقربه، وهو سبحانه الغني العزيز الحميد المجيد، وهو
كذلك سبحانه القريب المجيب السميع البصير. ومع ذلك نأبى
نحن إلا التعسير حيث يسر الله تبارك وتعالى.

واسمع لقول المصطفى ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ
يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(١).
انظر إلى يُسر طلب رضا الله تبارك وتعالى وانظر إلى تعسيرنا
على أنفسنا إذ نستصغر ونحتقر ما أخبرنا الرب تبارك وتعالى
بنفسه العلية أنه يرضى به عنا إذا قمنا به، فإذا بنا نرفسه ونركنه
ونحتقره فلا نقوم به ولا بما هو أكبر.

(١) صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب

حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب - حديث رقم: ٦٩٣٢.



سبحان الله العلي العظيم، فَمَنْ الرَّبِّ وَمَنْ الْعَبْدُ؟!



إننا نحن من نأبى أن نكون عبادًا حقًا، نأبى أن نظل في حدود عبوديتنا، نأبى إلا أن نحول من أنفسنا آلهة صغيرة تُشرع مع شرع رب العالمين! فلا عجب بعد ذلك أن نبتئس ونكتئب ونياس لأننا نحن من كلفنا أنفسنا فوق وسعها. وإنما المطلوب منا هو أن نطلب رضى الله تبارك وتعالى في كل أحوالنا وأطوار الإنسانية، ليس المطلوب أن تتحول لا إلى ملاك ولا إلى شيطان، ولن تقدر على ذلك! غاية ما تفعل أنك تعيش حربًا وهمية، فأنت خلقت على هيئة وخصائص الإنسانية، بكل ما رُكِّب فيها من فطرة وشهوة ودواعي إيمان ودواعي انحراف عن الإيمان. فافهم نفسك وافهم تركيبها وافهم مفاتيحها وأدبرها وفاقًا لذلك.

وكذلك حتى تستطيع طلب رضى الله تبارك وتعالى، تعلّم أمر الله تبارك وتعالى وتوقف عن التعامل عليه. ابدأ فورًا بتعلّم أمر الله تعالى عقيدةً وفقهاً وتزكيةً بالمستوى الذي لا يسعك جهله أو لا^(١)،

(١) لقائمة العلوم والمعارف الضرورية، تراجع مقالة «علوم الاضطراب لكل مسلم يرجو استقامة إسلامه» على مدوّنتي (هدهديات)، وكذلك كتاب «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة».

ثم بالمستوى الذي تحتاجه أنت في معاشك، وقتها تستطيع أن تتأدب مع جناب الله تبارك وتعالى حق الأدب، بأن تتعبد له على الوجه الذي أمرك دون تألُّه ولا تشريع ندي معه.

”

أين تجد في شرع الله تعالى أنه يُتَعَبَدُ لله تعالى بكرهية الذات وجَلْد الذات ومَقْتِ الذات وشم الذات وكافة صور إيذاء نفسك معنويًا وبدنيًا؟

“

إنك، لو شهدت أحدًا يفعل كل هذا بمجرم مهما كان جُرمه، لم تستسِغه نفسك ولطالبتَه بالإنصاف في حقه، فلكل جريمة جزاء، ولكل جزاء حدّ. وقد جعل الله تعالى لكل شيء قدرًا، وحدًّا للحدود حدودها. يتبقّى عليك أن تُلزِمَ أنت ذلك لا أن تخرع فوق ذلك! ففيم نصّبت نفسك جَلادًا على نفسك، فجعلت منها الضحية والجاني في آن معًا؟! ”

”

بالله عليك، كيف تتوقع أن تنفق ما بقي لك من عمر في حياة أنت فيها الخصم والحكم؟

“



لذلك لن يستقيم أمرك إلا أن تجعل الحُكْمَ لله تعالى في أمرك. فحيث قال لك الله تبارك وتعالى كرّر التوبة ولا تمل ولا تيأس، تكررّها ولا تملّ ولا تيأس. وحيث قال الله تبارك وتعالى، مهما عظم من ذنب فعفوه تعالى إذا استغفيته أعظم، فكَذلك صدّق! صدّق ربك وصدّق نبيك! وإلا كيف تكون مؤمناً بلسانك إذا كان قلبك يُكذّب ما أخبرك الله تعالى به بنفسه العليّة عن نفسه العليّة وبعث به الرسول الخاتم ﷺ؟!!

لا مزيد وحي يُنتظر ولن يتنزل عليك شيء مخصوص لأنك لست شيئاً مخصوصاً. كل ما يجري على بني آدم يجري عليك، وكل ما يصلح لخطاب كل بني آدم قد أنزل وتمّ بالفعل، فتوقف عن اختلاق هذه الحرب النفسية ثم تسميتها باسم الله تعالى!

ثم بعد تعلّم أمر الله تبارك وتعالى، والالتزام بالفرائض، تبدأ فتصوغ لنفسك الحياة التي ترتضيها. دع عنك المعايير العالمية أو المعايير العرفية في محيطك أو مجتمعك، انظر إلى ما ترتضيه أنت في نفسك في حين ما، وليكن هذا الحين هو أنك، لا تشغل بالك بسنوات ولا شهور! بل رتب حياتك على أساس مشروعات صغيرة في حاضرك الواضح لك الآن.

مثلاً، مشروعاتك الآن تربية نفسك على عادة معينة، فلنقل التزام أذكّار معينة، ركز على هذه العادة حتى تتعود عليها وحتى تنضبط معها، ثم تترقّى فتضيف مشروعاً آخر، سواء كانت عادة



أخرى مثل إغلاق الهاتف عند القيام بعمل ما للتركيز، أو استبدال التقلب في المختصرات الريلز والفيديوهات بقراءة صفحة أو مائة تسبيحة، أو غير ذلك من كثير من المقترحات التي ذكرتها في مختلف ما قدمت من مواد مقروءة ومرئية.

أو ليكن مشروعك هو إنجاز مهمة معينة كقراءة كتاب أو تعلّم مهارة أو غير ذلك، فتّتها إلى مهام صغيرة كطفل يأكل لقمة لقمة، ولا يكن همك لا الكم ولا السباق مع الزمن، فإما أن ينضبط اليوم كله وإما فلا. بل ليكن كل همك عملية تربية نفسك وترسيخ العادات الحسنة وملئ الفراغات والشغرات التي ترى أنك مقصر فيها.



أنت الآن تربّي نفسك كما يربي والدان ابניהما، فانظر إلى التدرج والهدوء والصبر الذي يكون في عملية التربية هذه، أنت تحتاج مثله من نفسك مع نفسك.



ثم حذارٍ من الوحدة والفراغ، هذان رأس كثير من الشرور أو غالبها. لا بد أن تبذل جهدك في دفعهما بالحق والا سيدفعانك هما لما لا تحب ولا ترضى ولا تحمد عقباه من الباطل. أو جد لك اهتمامًا أو جرّب عدة أمور حتى تجد اهتمامًا، واطلب العلم اللازم ثم انظر بعدها لما تهوى من العلوم.



وكذلك لا بد من الرياضة البدنية والحركة المنتظمة يوميًا للشباب والبنات والنساء والرجال، مسألة الحركة البدنية هذه وحدها لها منافع عميمة على المزاج والعافية البدنية والنفسية وتوليد الطاقة والعزم للانضباط في نواحٍ أخرى من حياتك^(١).

”

إن الله تبارك وتعالى اصطفاك من بين خلقه وأكرمك بدخول حمّاه، حمى الإسلام. فإياك إياك ثم إياك أن تُخرج نفسك مما أدخلك الله فيه، ولا تعوّل على نفسك بل عوّل على ربك، لا تثق بنفسك بل ثق بربك. فإن الذي أكرمك بالأعظم دون طلب منك ولا جهد هو أكرم وأعظم من أن يخذلك في الأقل وأنت تطلبه. فثق بجلال الله تعالى الذي لا يخلق شيئاً عبثاً ولا يصطفي أحداً عبثاً. ثق بالله لا بنفسك وارْجُ الصلاح من الله لا من نفسك، ثم اجتهد بنفسك شيئاً فشيئاً.

“

• إيمان السكر ونكد اتباع الهوى

هل خطر لك أنك قد لا تكون شارباً للخمر فعلياً، لكنك

(١) تفصيل منهجية كل هذه الأفكار في كتبي سواء كتاب «الأسئلة الأربعة» وهو المُفَصَّل أو كتاب «إضاءات» وهو المختصر، وكذلك الندوات المسجلة على قنواتي (هدهديات).



غارق في الشُّكر حقيقة؟ إن المُسكر هو «كلّ ما يُسكرُ، أي يُحدِثُ دَوْرَانًا فِي الرَّأْسِ وَيُفْقِدُ شَارِبِهِ الْوَعْيَ وَالْإِدْرَاكَ». ومن هنا سُمِّيت الخمر خمراً لأنها تَحْمُرُ العقل، أي تغطّيه وتطمسه.

ومن هنا تكون كل محاولة لتنسى، لتسلو، لتغفل، لئلا تفكر، لئلا تفيق، لئلا تعقل وتدرّك... وما شاكلها، كلها من صور الشُّكر: لأنك تغرق عامداً فيما يُغَيِّبُ عقلك عن الحاضر أو يُلْهِيه عن مواجهة مسؤولياته، فتخمره أي تغطّيه حتى لا يُكدِّرَ عليك نشوة تسليم نفسك لسطوة الاستهلاك السلبي والتلقي الخامل البليد لمختلف موارد اللذة.

وقد يتخذ ذلك الشُّكر صورة الإغراق في مشاهدة مفتوحة للأفلام والمسلسلات ومطالعة الروايات والمُصوِّرات، أو الدوران العبثي في الانترنت بلا طائل، أو الدردشات والمحادثات عن السفساف والتوافه، أو البطء المستमित في الحركة والاستغراق في إنجاز مهام والسلام حتى ينقضي اليوم بسلام، أو في الانغماس في دوامات لقمة العيش حتى يتسرّب العيش نفسه من بين أصابعك، أو في النوم الكثير والخمول الممتد بلا أمد... إلخ.

إن إقرار المؤمن العقلي بالحساب أمام الله تعالى يمنعه كامل الاستمتاع بالحرية استمتاع من لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً؛ وفي ذات الوقت يُغريه هواه باتباعه وربما غَيَّبَ عقله في كثير من الأحيان، فيطيش طيش من لا يُسأل، ويتمنى لو أنه لن يُسأل، ويؤذيه أن يذكر أو يُذكر ولو عَرَضًا خاطفاً أنه سيُسأل. وهكذا تتنازعُه لَذَّة



اتباع الهوى حين يُطمس عقله، ثم وخز الضمير حين يثوب رُشدُه،
إذا ثاب. فيعيش بينهما ذاهلاً شقيّاً كالذي يتخبّط من المَس!

”

قمة الشُّكر أن تعيش حياتك هارباً من حياتك، غير أنه سُكر
مُقتنع مادته النفوس لا الكؤوس. ترى.. هل هذا الشُّكر يحلّ
إشكالاتك أو يداوي مخاوفك؟ هل يفتح لك أبواب سكينه
وانسجام ووثام، أم يزيدك تعاسة كلما زدت فيه إغراقاً؟

“

والخوف من المواجهة يَشِلّ ولا يحل، وكلّ تلك المُسكِرات
الروحية تُلهيك مؤقتاً عمّا لا بد أن تواجهه أخيراً. فما تفرّ منه
لا مفرّ منه، وهو لا بدّ مُلاقيك. فإن سَكِرت عنه هنا عَقَلته هناك،
حيث لا ينفع إبصار بعد أن اختار صاحبه العمى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي
غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكُشِفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وحين نتأمل توجيهات الله تعالى عن أعدى أعداء بني آدم من
كيد الشيطان واتباع الهوى وخواطر النفس الأمّارة، بالسوء،
لا نجد فيها توجيهها يدعو للهرب أو الفرار أو الخوف. لم يأمرنا
الله بالخوف إلا منه، ولم يدعو للفرار إلا إليه؛ أما أولئك فكانت
الأوامر بصددهم دائماً تقوم على فعل إيجابي لا تولّ سُلبي:
استعذ، استعن، قاوم، استغفر، تب، أصلح.



”

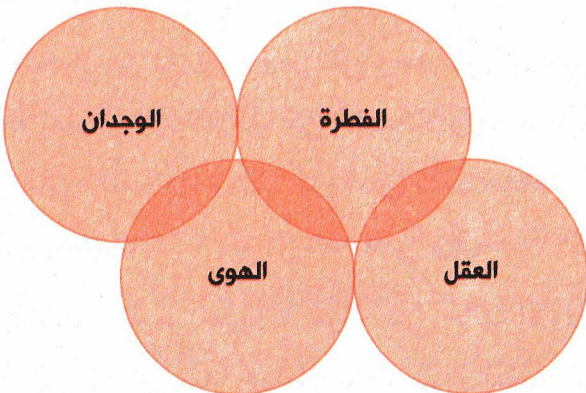
إن خشية ثقل المسؤولية لا يحلها الهرب منها! لماذا لا ننتبه
أن الهروب ليس حلاً؟ وأن تولية الظهر لأمر لا يلغي وجوده؟

“

ليس من ديننا الهروب من مواجهة مسؤولية الحياة ومسؤولية
العقل ومسؤولية الاختيار، إن هذه المسؤوليات هي ما تجعل
منك إنساناً، فلا أنت حيوان ولا ملاك ولا شيطان، وإنما تكوينك
الفريد هو عين الامتحان وحكمة الاختبار. وطالما أنك موجود
فأنت مُمتحن، شئت أم أبيت.

• التشريح العزائي لابن آدم

والمقصود به المكونات الموجودة في كل بني آدم والتي
يكون من مجموع تفاعلها دوافع الحركة في الحياة أو هبوط أو
تثبيط هذه الدوافع. وهي:





هذه المكونات في كل بني آدم، لا يُختلف على وجودها في بَدَن الإنسان ونفسيته وتركيبه، وإن اختلف الاتفاق على ترتيب تسلسل التفاعل والتداخل بينها. وأرتبها هنا ترتيبًا معيّنًا لهذا المقام:

الوجدان

العقل

الموى

الفطرة

❖ أولاً: الفطرة

الفطرة هي الطبيعة أو الهيئة التي فَطَر أي طبع وأوجد الله عليها ابن آدم. ومن عجب أن يكثُر اليوم توهم وجود تعارض بين التكليف والفطرة، مثلاً: الحجاب بما يشتمل عليه من ستر لغالب الزينة يبدو أنه يتعارض مع فطرة حب التجمل في المرأة، أو إباحة التعدّد للرجال تتعارض مع فطرة الغيرة في النساء.

ها هنا لا بد من التنبه إلى عدة أمور:

- يستحيل من أي وجه ومن كل وجه أن يكون بين الفطرة والشريعة تعارض، إذ كلاهما من مشكاة واحدة، فالذي خلق تعالى هو الذي كلّف ويحاسب، والذي كلّف سبحانه هو الذي خلق وسوّى وسيحاسب؛ كله من الله تعالى وإليه.

- الفطرة التي نقيس عليها لا تُترك على حالها الأول من أول لحظة بعد الولادة، بل تبدأ عوامل التحوير والتغيير في الفطرة



من الوالدين والظروف المحيطة، وحشد لا يُحسد المرء عليه من المفاهيم والدلالات الخاطئة. فلا تترك فطرة الله تعالى على حالها من أول لحظة بعد الولادة، بل تداخلها وتزاحمها مختلف المؤثرات التي قد تعكّر صفوها أو تعززه.

مثلاً، فطرة الغيرة في النساء تشكّلها وتضخمها على مدى سنوات التنشئة والشباب ضخّ من الأعراف والدراميات المليئة بمفاهيم مشوّهة وموازين غير متزنة. ومن ثم، عندما تأتي فتقيس مدى صعوبة أو سهولة التكليف على ما يظهر لك أنه الفطرة «الطبيعية»، تقيس على ما تظنه هو الأصل من عند الله تبارك وتعالى، وقد تغير في أصله، فيظهر لك أن التكليف معاكس للفطرة مع أن المفترض أن يكون كلاهما من مشكاة واحدة! والمشكلة كلها في اتخاذ مريض معياراً للحكم على سلامة سليم! فالتغييرات والانحرافات والفساد الذي يطرأ على الفطرة السليمة هو الذي يضاعف مشقتها عند محاولة امتثال التكليف (الموافق للفطرة السليمة)، لدرجة أن يظهر التكليف معاكساً للطاقة الإنسانية!

قل مثل ذلك عن البنت الصغيرة التي تنشأ على أن الجمال معناه التفاخر والتباهي بأكبر قدر من «الكشف» وتكلف الزينة لزيادة حسننها أمام الأجانب، مثل هذه تم تحوير فطرة الجمال وحب التجمّل فيها، فبالتالي لا يُتوقع ولا يُنتظر من مثل هذه أن تستقيم فطرتها «تلقائياً» و«عفوياً» وبسلاسة



دون منازعة، على تكليف الله تبارك وتعالى بالحجاب عندما يحين سن تكليفها.

لو كانت التنشئة صحيحة والتصورات المفاهيمية صحيحة والإسقاطات التطبيقية لها صحيحة، لما نشأ ذلك التعارض؛ فالإشكال تربوي لا ربّاني، أي في نهج التربية وما تم التطّبع به من عادات، لا في الفطرة الأولى ولا طبيعة الخلقة ولا أصل التكليف.

”

ولذلك كان غرض التربية في التصور الشرعي هو تهيئة المُكلّف لما سيجب عليه من تكليف عند حلول سنّه. لكن الحاصل أن الب النشء المسلم يقضي عمرًا قبل سن التكليف في كل ما يعاكسه ويضاده، فيعسرّ عليه التجاوب مع تكليفه والاستجابة لربه، مع أن الكل معلوم مسبقًا وليس سرًّا ولا صدمة مفاجئة!

“

الهوى

الهوى يعني محل هَوِيّ الفؤاد وميل النفس. والهَوِيّ يعني السقوط أو النزول، وكذلك الميل يعني نوعًا من الحيود؛ فدلالة اللفظة نفسها فيها إحياء بما يترتب على اتباع الهوى، أنه يَهْوِي بصاحبه معه حيث شاء.



من حيث الأصل، الهوى مكون من مكونات تركيب ابن آدم، فهو جِبِلَّةٌ خَلْقِيَّةٌ بالضرورة مثل الشهوة، لا يُوصف بذاته بأنه حسن أو سيء. وإنما الذي يُوصف بالحسن أو السوء هو كيفية التصريف والتعامل معها، هل يكون وفاقاً لأمر الله تعالى فبالتالي تستقيم نفسك على فطرتها الصحيحة، أو مخالفاً لأمر الله تبارك وتعالى، فيكون الشقاء بسبب اتباع الهوى في مخالفة.

ولذلك لا يمتنع أن يوافق الهوى الحق، كما في مقولة شهيرة منسوبة لعمر بن عبد العزيز رحمته الله تعالى: «إذا وافق الحقُّ الهوى فذلك الشَّهْدُ بالزُّبْدِ» فالمقصود موافقة الحق لا مجرد مخالفة الهوى.

وقد يوافق الهوى الباطل، وهذا الحال الغالب قبل تربية النفس وتزكيتها، لأنه بالتربية والتهديب تنصلح ميول النفس ويقوى هواها في الخير والمكارم، ويقل ميلها للردائل والشرور والانحطاط.

وتأمل في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعًا لما جئت به»^(١)، تجد فيه:

- لا بد من تربية الهوى حتى يكون تبَعًا لأمر الله تبارك وتعالى،
- إمكانية تطويع الهوى، فهذه التربية ليست ممتنعة ولا مستحيلة مهما كان فيها قدر مشقة، وإلا لكان أمر الله تبارك وتعالى معارضاً لفطرة ابن آدم وقدرته على اتباعه، ولما كان البلاغ كاملاً!

(١) أورده ابن رجب في «جامع العلوم والحكم».



- إمكانية أن يكون الهوى في الحق، فلا يُحَارَب الهوى أو ميل النفس بذاتهم ولا يُتبعان بإطلاق، وإنما المعيار موافقة أو مخالفة الحق.

والخلاصة أن الهوى رُكِّب في ابن آدم ليكون تابعًا لا متبوعًا، وتكون تربيته على اتباع أمر الله تعالى والانتظام داخل حدوده هي مكمّن المجاهدة، وعليه المثوبة أو المؤاخذة.

”

فالمطلوب إجمالاً هواك تابعًا أو عندك قدرة على مَلِكِ زمام الهوى في نفسك، لا أنت تكون أنت تابعًا أسيرًا له. وكذلك ليكون الشرع حاكمًا عليه لا مهضومًا تحته.

“

ولهذا لا يرفع عن المرء التكليف أو المحاسبة أن يتخذ الهوى حجة أو معذرة للتفريط في أمر الله تعالى أو تحكيمه هو على الشرع، فما يعجب يُلتزم به وما لا يعجب يترك! إذ الهوى مركب في ابن آدم منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة، وبُعِث الأنبياء وأنزلت التشريعات وخُتِم برسالة الإسلام على وجود الهوى في ابن آدم. فلا هو بدعة غير مسبوق إليها ولا هو حجة تبيح جعل الهوى حاكمًا على شرع الله تعالى.



❖ العقل والوجدان

ما أكثر ما نقول: «العقل زينة ابن آدم»، وهو حقيقة زينة ابن آدم، لا بمعنى الزينة التي توضع على الرّف لينظر إليها من بعيد ولا تستعمل، وإنما بمعنى أنه محل تتويجه وتكريمه، لأنه محل عقل أمر الله تبارك وتعالى أي فهمه وإدراكه. ولذلك رفع التكليف عن المجنون، فهو لا يخاطب أصلاً بالتكليف لأنه غير قادر على استيعاب الخطاب، لا لأنه مفتقر للعضو، بل لملكته وهي ملكة الإدراك.

”

العقل زينة ابن آدم من حيث هو محل الفهم والإدراك والاستيعاب، وهو كذلك مفتاح ملك زمام النفس ومربط العزيمة.

“

ولذلك كان العقل هو التالي في الترتيب المذكور أعلاه بعد الفطرة والهوى، من حيث إنه هو الذي يُلجِمهما. فمن معاني لفظة «العقل»: ملك زمام الشيء، والإحاطة به من أطرافه، أو كبح جماحه أو منعه أو حجزه. ومن هنا كان من وظائف العقل أنه مكمّن عقل نفسك، أي ملك زمام توجيهها وتصريفها.



وقد ظلمت هذه الوظيفة العقلية بتصويرها على أنها الجانب «الآلي» أو «البارد» في الإنسان. نعم قد يؤدي تغليب التعويل عليه وحده إلى ذلك، ولهذا جاء الوجدان في الترتيب بعد العقل؛ لأنه إذا استقام في الإنسان تفعيل عقله حقيقة، استطاع من جهة أن يملك زمام الهوى وأن يلجمه، فيصير هو القائد والموجه للهوى وليس تابعاً أو أسيراً له. ومن جهة أخرى لا تعارض أبداً بين العقل والوجدان، من حيث هما في النهاية موجودان في نفس التكوين الإنساني. فإذا استقام للإنسان تهذيب عقله وتهذيب وجدانه، سيجد حقيقة الاتساق حاصلًا بينهما.

هذا لا ينفي أن ثمة مقامات قد تجد فيها شقاً بينهما، مثل المتعلقة بالأمور العاطفية، لكن حتى تلك الشقاكات لها أسبابها. فإذا فهمت لكل مُكوّن طبيعة حركته وطبيعة تكوينه ومكامن الخلل فيه، عرفت ماذا تأخذ من كل مُكوّن وماذا تدع، ومتى يكون هو العقل القائد للكل، ومتى لا يكون بأس في تفعيل الحرارة الوجدانية، أو في إعطاء مساحة للهوى^(١).

الخلاصة أن من يعتمد على أن يحضر وجدانه ويحضر مزاجه ويحضر هواه وتشتعل فيه حرارة الإيمان حتى يبدأ يتحرك في الحياة ويستقيم على أمر الله، هذا يعيش في وهم وسيظل دائماً فتوره وهموده أكثر من همّته وعزيمته، لماذا؟

(١) تفصيل هذا كله مستوفى في كتابي «الأسئلة الأربعة» و«قلب مصون».



”

لأن طبيعة الوجدان الإنساني أنه قائم على التقلب والفوران، بينما طبيعة العقل الرسو والإحكام، فأنت إذا أردت أن تصوغ نمطًا لحياتك، كان الأسلم منطقيًا وواقعيًا أن تصوغه على أساس الحركة العقلية أولاً.

“

ولذلك تجد أن تكليف الله تبارك وتعالى كان مشروطًا بالعقل في الأساس. فأنت متى وصلت بين العقل، وبين التكليف، بمعنى استطعت أن تفهم وتستوعب وتدرّك، قام عليك التكليف بحسب حالك. لماذا هو مشروط بالعقل في الأساس؟ فسواء كان الحجاب على هوائك، سواء كنت تشعر بمعاني الصلاة أو لا تحسّ بأثر محمود للصيام، هذا كله ليس شرطًا في التزامك بالتكليف. فمتى قام عليك التكليف صرت مؤاخذًا به، سواء وافق مزاجك أو هوى نفسك أو درجة قناعتك (وهذه في كثير من الأحيان تسمية مُقنّعة لهوى لم يَتَرَبَّ بعد).. أو لم يوافق.

”

وهذا ميدان تربية النفس وجهاد هواها، وليس ميدان تطويع أمر الله تعالى لأمر المزاج!

“



وتربية المزاج والهوى والنفس لها نهجها المبيّن في مواضعه^(١)، لكن الخلاصة أنه لا بأس في أن تكون بداية التزامك بدافع عقلي إدراكي، بمعنى أنني أدركت أنه قام عليّ أمر الله تبارك وتعالى بالصلاة، بالحجاب، بالصيام، فالتزم بالتكليف مباشرة، وبالتوازي يكون معه استنهاض واستثارة المعاني الإيمانية يتأتى شيئاً فشيئاً. أما ترك الامتثال بالكلية لحين هبوط المعاني من تلقاء نفسها واستشعار الحرارة الإيمانية اتفاقاً، فسراب يخدع صاحبه به نفسه، وحسابه مستمر على ذلك!

والله تعالى يُعَبِّد بالرغبة والرّهبة معاً. ولو كانت المسألة كلها بالرغبة وحضور الميول واتّقاد الوجدان ما كان للرّهبة مكان، لكن ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والدين كله يقوم على الاثنين معاً. وتأمل كيف جعل الله الوقوف على ما في كلامه من رحمة وهدى للذين يرهّبونه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وكذلك الله تبارك وتعالى يُعَبِّد بالظاهر كما الباطن، فلا وجاهة للتعويل فحسب على مقولات مثل: «الحجاب حجاب القلب» أو «العبرة بالسرائر» أو «لا ينظر الله إلى صوركم»، هذه كلها إسقاطات خاطئة وتردنا إلى سبق بيانه من أن كثيراً من

(١) مزيد تفصيل في كتابي «الأسئلة الأربعة».



المفاهيم عندنا والاستدلالات خاطئة في غير محلها بسبب الجهل الذي نعانيه بأمر الله تعالى وشرعه^(١).

”

الخلاصة أن العقل أثبت أداءً وإن كان الوجدان أعمق حضوراً. فانت إذا أردت أن تصوغ لنفسك نمط حياة يغلب عليه العزيمة، والقيام بما يجب عليك القيام به، سواء كان وجوباً شرعياً أو حتى إلزاماً شخصياً من نفسك، الوصفة هي إعمال العقل في لزوم ما يلزم^(٢).

“

علمت أن شيئاً وجب عليك، تضع المزاج على الرف وتقوم به. هذه هي الوصفة السحرية ببساطة! صحيح أن طعم إعمال العقل ليس بطعم العسل، لكن نتائجه هي التي تكون بطعم العسل.

وفي ذلك قال الشاعر:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ، مُرٌّ مَذَاقُهُ

لَكِنَّ عَوَاقِبَهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

(١) لمزيد تفصيل في مسألة الصلة بين الظاهر والباطن، يُراجع كتابي «من وراء حجاب»، أو حلقة «حجاب القلب» في سلسلة (إذا سألتني) المنشورة على قنواتي.

(٢) هذا عنوان مقالة على مدوّنتي (هدهديات)، وبند في كتابي «الأسئلة الأربعة».



وقال غيره:

لا تحسبِ المجدَ تمرًا أنتَ آكلُهُ

لن تبلغَ المجدَ حتى تلغَ الصِّبرَ

ولو تركت الزمام لمزاجك لَسَوَّفت كل عمل وانتهى بك المطاف لا تعمل شيئاً في دين ولا دنيا! أما إذا بدأت بدافع العقل، تجد أن المزاج بعد ذلك يحضر بالتربية. هذا ما لا ندركه، أن المسألة كلها تربية وتعويد. خاصة وأن النشأة الأولى في غالبها مع الأسف لا تعود الناشئ على ما ينبغي أن تكون عليه شخصية المسلم من موافقة فطرة الله تعالى وتكليفه، وإدراك واستشعار وإنبات معاني المسؤولية والانضباط الذاتي وقوة النفس^(١).

• طعم المسؤولية وطعم الهوى

تخيّل من يمارس رياضة تستهدف تنمية عضلات مُعيّنة في بدّنه، بينما يهمل أخرى بالكلية. سيقع في عدم اتزان لا محالة، فتتضخّم عضلات وتضمّر أخرى. هذا ما نفعله بالضبط عندما لا نعتني بتنمية عضلات الطاقات الفكرية والروحية أو مدّها بأسباب حياة إلا التزّرّ الهزيل حتى أصابها الضمور، وفي المقابل

(١) لمزيد تفصيل في منهج التربية المسلمة، يصدر قريباً بإذن الله تعالى كتابي «قرّة أعين».



نُغذِّي ونستعمل عضلات الهوى على الدوام، حتى انتفخت بما يجاوز الحدَّ الصحي، بل يصل لحدِّ الإضرار!

نهج الحياة المُفسِد ذاك، واعتياد طعم اتباع الهوى والإخلاد إليه، هو الذي يجعل المثابرة على طعم أيِّ جدية بآية درجة مُرًّا، خاصة وأنَّ هوى المزاجية يقوم على سهولة اتِّباع النشاط حيث حضر، وليس جهد استحضاره حيث وجب! أنَّى يؤدِّي ذلك التسلسل الحياتيَّ لنتيجة غير تلك منطقيًّا؟!

وإذن، أول الخيط هو إدراك أن طعم الهوى غير طعم المسؤولية، وأن الجدية في أخذ الحياة بقوة لن تكون بطعم العسل على الدوام ولا هي كذلك بطعم الليمون بالضرورة، بل طعمها ببساطة انعكاس لعمق فهمك ومدى استشعارك لمسؤوليتك الشخصية عن حياتك وما ترتضيه لها وفيها. فقرّر واعيًا من تريد أن تكون أو لا تكون، وماذا تريد أن تفعل أو لا تفعل، ثم احترم نفسك والزم ما قررت. لكن لا جدوى أبدًا من جلد ذاتك وتمزيق نفسك معنويًّا بين تطلعات سامقة وهمة خائرة، ثم لا تزداد بعد ذلك التمزيق والجلد إلا لهوًا وعبثًا!

وفي قصة وقعت مع المُبرِّد صاحب كتاب «الكامل في اللغة والأدب»، أن رجلًا حسن اللباس وقف معه ليسأله عن مسألة، فأطال الحديث وخاض في الخطأ، فقال له المُبرِّد: «ما أنصفتنا! إمّا أن تلبس على قدر كلامك أو تتكلّم على قدر لباسك!».



”

كذلك إما أن يوافق عملك جدية تطلعاتك، أو تفصل تطلعاتك على مقاس جدية عملك لكن التذبذب بين بين، لا إلى ذلك ولا إلى تلك لن يؤدي بك لشيء، ولا يتركك حتى في صلاح من البال وراحة على الحال!

“

• لماذا تستعصي علينا إدارة نفوسنا؟

كثر الحديث عن إدارة الوقت وتنظيم الروتين والتخطيط للإنجاز، والحق أن كل هذا فرع عن إدارة النفس أولاً، والتعامل معها بقوة والقدرة على سياستها بجدية. فالذي لا يحسن إدارة نفسه، ويتهاون في الاسترسال وراء دلالها، لن يمكنه بالتالي أن يحقق أياً مما سبق، وإذا نجح مرة أو مرتين فإن ذلك لن يكون له طبعاً وسيظل عليه شاقاً. فما هي إدارة النفس بداية؟

إدارة النفس هي مصطلح حديث لمفهوم أصيل في ديننا: تركية النفس وتهذيبها، أو جهاد النفس كما وصفه المصطفى ﷺ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ؛ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ؛



وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ؛ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ
الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»^(١).

والجهاد مأخوذ من جهد المغالبة والمدافعة بين عنصري
النفس الإنسانية: الغريزة والفطرة، أو نفحة السماء وطين الأرض،
أو بواعث الإيمان ودوافع الشهوات، إلى آخر التسميات التي
تعبر في خلاصتها عن جوهر هذه الثنائية.

وغاية هذا الجهاد ليس تخليص النفس من مكامن الشهوة وميول
الهوى، فهم مرگبون فيها بالضرورة وعناصر لازمو في تكوينها، وإلا
ما تحقق معنى الجهاد ولا مقاصد الاختبار في هذه الدار. وإنما غايته
تهذيبها وملك زمامها وتصريفها التصريف الرشيد وفق حدود الله
تعالى لها وأمره فيها، كما سبق بيانه في التشريح العزائي.

وفي قوله ﷺ «وفي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» شاهد آخر على أن
مقصود الجهاد ليس نزع لذة الشهوة ولا كبتها، وإنما تصريفها
حيث يحل ويحسن، كما توضح تتممة الحديث: «قالوا (أي
الصحابة): يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟
قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ وكذلك إذا
وضعها في الحلال كان له فيها أجر»^(٢).

(١) مسند أحمد: أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ - مسند فضالة بن عبيد

الأنصاري - حديث رقم: ٢٣٩٥٨.

(٢) مسند أحمد: مسند الأنصار - حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه - حديث رقم: ٢١٤٧٣.



”

إذن غاية هذا الجهاد هو تهذيب النفس لا تعذيبها، وتوجيه الشهوة لا إصابتها في مقتل، وقطع عادة «اتباع» الهوى لا عداوة الهوى في ذاته.

“

إذن منبع الخلل الرئيس في استعصاء النفس على إدارتها هو في ذلك «الاتباع» للهوى والمتعة والشهوة. فبغض النظر عن كونهم في أمر مباح أم مكروه أم محرم، مكنم الإشكال بداية في ألا يقول المرء أبدًا لهذا الجزء من نفسه «لا»، أي كلما اشتهى يلبي.

ثم الأدهى بعد ذلك أن تكون هذه المسارعة في التلبية تحت ستار كون الشهوة والهوى في حلال أو مباح. فكم من إغراق في المباحات جر لمكروهات ثم محرمات، إذ ليس الإشكال في المباح بل في الإغراق، كما أن الخلل ليس في وجود الهوى بل في اتباعه، بدءًا بالخطوات الصغيرة التي نستبيحها ونستسهلها، من إدمان المسلسلات والروايات، مرورًا بشهوة الطعام وتخمة الأكل، وما يتبعه ذلك من غلبة الخمول والكسل والإغراق في النوم، وانتهاء بالكبريات الداخلة في حمى المكروه والحرام.



”

وإذا اتضح مفهوم الإدارة وغايتها، كان لنا أن نبدأ في الرد على سؤال «لماذا لا أستطيع التحكم في نفسي أو إدارتها بحزم؟»، بما يبين وجه الخطأ في هذا التساؤل وتصويبه.

“

بداية، من الأهمية بمكان في هذا الجهاد الدائب أن نتنبه لأمرين، أو بالأحرى لمرحلتين رئيسيتين:



فالتعامل السديد مع أمر - أي أمر - فرع عن فهمه أولاً على حقيقته. وهذه المرحلة التي تكون فيها إجابات اللماذا والكيف:

- كيف تُستثار الشهور وكيف يستحكم الهوى؟

- ولماذا الطاعات مكاره والشهوات لذات؟



- وكيف المدافعة؟ وما المغالبة؟^(١)

وهذه المرحلة هي التي بدونها يعيش المرء في شقاق وجحيم داخلي، لأن نفسه تبدو له دهاليز ضبابية، وميول الهوى ولذائذ الشهوات تكبله حتى يحسب أنه لا مفر منها، فتستعبده بعد أن كان هو طالبها. ومن جهة أخرى فمجرد التفكير في التزكية وما يتبعها من مشقة ليس بأقل رهبة، فيستسلم بالتالي لعبودية الهوى استسلام عاجز وناقم في آن معاً. فلا هو استمتع بسكره وانتشى في خموله! ولا هو أفاق بعقله وقام بأمانته!

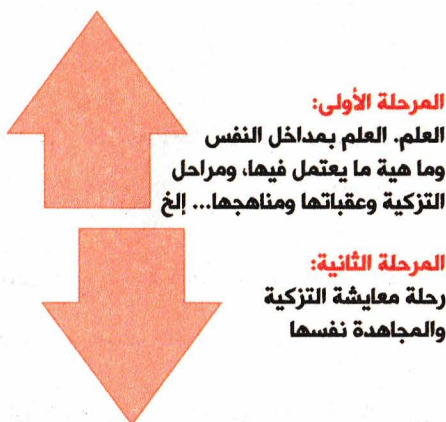
ومن جهة أخرى، هذا الجهل - القابل لرفعه بالعلم - هو الشماعة الأولى لتعليق أعذار الاستسلام الكسول والعجز المفتعل عن المجاهدة. فصاحبه متعلق بمبررات: لا أعلم ماذا، ولا أدري كيف، ومن أين البداية... إلخ. والقاعدة أن وجود جاهل لا يعلم لا ينفي كون العلم موجوداً!

وآخر ما توصف به هذه المرحلة أنها أيسر ما يتجاوزه صادق الهم بفضل الله تعالى. بغض النظر عن مدى المنهجية أو طبيعة التلقي أو طول مدة التعلم، الله يكفيه كل ذلك في بداية الإفاقة بحسب صدق استعانتة به وانطراحه على باب الرجاء والدعاء.

(١) لتفصيل جواب هذه الأسئلة وغيرها، يُراجع الجزء الثاني من كتاب «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة».



فلا ريب أنه عند نقطة ما سترفع الغشاوة عن كل بحسبه. فيبين الله له ما ادّعى أنه استغلق عليه، ويمده بما يكفيه ليشرع في طريق العبودية الأصلي بدل تلك العبوديات الزائفة.



وهذا يقودنا للحديث عن المرحلة الثانية من معركة تزكية النفس، أو جهادها، وفي هذا المصطلح جوهر الحل ولب الإشكال معًا لو فقهنا. إن معرفة مداخل الهوى والعلم بمكامن الشهوة أمر، ومرحلة. وفعلية مدافعة اتباع الهوى ومغالبة جواذب الشهوة أمر آخر، بل مرحلة أخرى تالية للسابقة.

- العلم سيقول لك كيف، لكن هذا لا يعني أنك ستكون قويًا كفاية!

- العلم سيقول لك ماذا، لكن هذا لا يعني أن المشقة ستنتفي، أو أن النار ستحف بالمكاره، والجنة ستحف بالشهوات، أو أن الشهوة لن تعود زينة، والهوى لن يكون جذابًا!



”

ذلك أن غاية العلم بطبائع الأمور يعني أن تكون توقعاتك عند العمل معها موافقة لما هي عليه.

“

- فماذا تتوقع في معركة «جهاد» غير أنك ستجاهد؟! ومن الجهد إلا أن تكون فيه مشقة؟! ومن لوازم الجهد غير الصبر والمصابرة؟
- وماذا تنتظر من اللذة العاجلة سوى أنها أشد إغراء من الآجلة.. وإلا كيف سميت «عاجلة»؟!

- ومن طبيعة اختبار مدته عمرك كله ألا تسأم أو تمل أو تستعجل؟ ماذا تستعجل غير موتك؟ ومم تسأم وهذا زرعك؟ وفيهم تمل إذا كنت ترجو حصاده؟

- اختبار الحياة ليس ورقة امتحان ليوم أو ليلة أو شهر أو حتى بضع سنين.. فإن هذه حياة كلها لا تراد لشيء غير عقيدة وجهاد..
- فمن المخطئ إلا الذي يريد منها غير ما تراد له؟

ثم ينبغي عدم الخلط بين «الاستزادة» من علوم التزكية ومعاملات النفس، و«بلوغ» القدر الكافي من الفهم الأول للخطوة الأولى. وهنا الإشكال الثاني: أن نضل دائرين في نفس حيرة الظلمة الأولى حتى بعد أن آتانا الله تعالى مشعلًا يكفي لنخطو خطوة.



هذا وهم وعجز وتخاذل، وإن تلبس بلباس «مثالية» جوفاء! فإن الطريق لا يتضح إلا لسائر مهما كان عَرَجُه، وإن طريق الله معلوم بين بما يكفي للراغب صدقًا، وثماره لا بد واصله للصابر صدقًا، لكننا نستعجل ثمار القمة بمجرد خطو الخطوة الأولى! بل لعلنا نتذبذب حتى في هذه الخطوة الأولى، متحججين بالمئة خطوة مما لا نرى بعد، عن الخطوة الوحيدة التي اتضحت الآن! ونظل نتوهم الضبابية والحيرة - التي بدأت صادقة - ونصرّ أن المشكلة مشكلة علم، غير منتبهين للفارق بين جاهل علم، ومتعلم راغب في الاستزادة:

- الأول العلم شرط لتقدمه؛

- والثاني تقدمه شرط لتعلمه.



لكننا وقت الجهل نبكي طالبين العلم لنعمل، فإذا علمنا بقدر وحن وقت العمل بقدره، عدنا نتباكى متوهمين الحاجة لمزيد علم، فلا تزيدنا كثرة العلم إلا انشغالا عن العمل، وشقاء بما صرنا نعي فنبتعد!



إذن ليس السؤال: لماذا لا تستطيع إدارة نفسك بحزم؟

لأنك من حيث الاستطاعة بمعنى القدرة والقابلية، قد خلقت لهذا الجهاد، ورُكِّبت نفسك تركيبًا مخصوصًا لتحقيق



مقاصده ومقاصد امتحان هذه الدار. وهذه الاستطاعة لا تنافي أبدًا وجود مشقة متلازمة مع طبيعة الجهد، كما لا تنافي أنك قادر على تحمل تلك المشقة واجتيازها مستعينًا بالله وسالكًا ما بينه من وسائل وأسباب. فالطريق واضح، بأعوانه وأعدائه؛ وأنت مجهّز بأدوات الاستبصار من عقل يتعلم وفؤاد يستعين.

”

إنما السؤال الصحيح: هل حقًا تريد؟ هل عَزَمْتَ جادًا؟

“

لأنك إذا أردت حقًا وعزمت جادًا، تهَيَّأت لتحمل مسؤولية الالتزام بما أردت. مصداق قوله تعالى «ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة». لو أرادوا لأعدوا، فإذا أردت حقًا، فلن تبرح حتى تبلغ، وإذا صحَّ منك العزم هُدَيْتَ لا ريب.

”

لذلك حين تضبط نفسك مترنحًا متأرجحًا مثلثًا، لا تسأل: لماذا لا أستطيع؟ وإنما: هل صدقتُ الإرادة؟ ولزمتُ ما عرفتُ؟

“



• مفتاح تربية العادات: العلم مرة والعمل عمر

الالتزام بأية عادة أو عبادة يبدأ بتعلم طريقته وكيفيةها، فلا يمكن التزام ما لا تعلم أصلاً! هذه قاعدة بديهية مفروغ منها. ثم ينشأ الإشكال حين ننظر لرحلة الالتزام على أنها محطة تعلم فحسب، تنتهي بمجرد الفراغ منها! وجه الإشكال في ذلك أنّ الالتزام مسألة تعلم بالفعل، والتعلم بالدرجة اللازمة لكل مسلم عامة فعلاً مؤقت بزمان محدود، لكن العامل الناقص في المعادلة هو التربية. فالالتزام ما تتعلم، أي المداومة على العمل به، والاحتراز من الحيود عنه، والحفاظ على صحته وسلامته في هيئته ونيته، والترقي فيه إذا كنت تنوي ذلك، هذا كله يتطلب تربية للنفس بالتدريب والتصحيح والمراجعة وتلك المكابدة والمجاهدة هي رحلة عمر، بل هي رحلة العمر على الحقيقة.

تأمل الفارق بين غطّاس ماهر وأحد الهواة، أو الفارق بين تنفس الهواء على اليابسة والتنفس تحت الماء، تجد أنه الفارق بين الطبع والفورة الوقتية. وكل عادة تحتاج وقتاً وتكراراً وتدريباً ومثابرة، حتى تصير بدورها الطبع الجديد.

ومن المقولات الإنجليزية الطريفة: «أحياناً تدعو بالصبر، فيكون الجواب طابوراً في البنك!»^(١) ذلك أنك حين تتطلع



للتخلق بخلق، أو التحقق بمعنى، فالتخلق والتحقق - وكافة صيغ
التفعل كالتعلم والتحلم - لا تهبط في حِجْرِكَ بمجرد تمنّيها،
وإنما تكتسب بمعايشة ومكابدة ضدها في الغالب!

فحين تدعو بالصبر وتجتهد أن تتخلق به، لا يمكن أن
تُرَوِّضَ عليه نفسك إلا من خلال سياقات ومواقف الأصل فيها
أن تستنفر مختلف القوى المضادة للصبر، من العصبية ونفاد
الصبر وضيق الصدر، مثل الطابور الطويل في البنك مثلاً! ومع
المِران والتدريب يبدأ التحوّل والتغير للطبع الجديد.

ثم يستغرب كثيرون بعد ذلك أنهم كلما اجتهدوا في الالتزام
زادت الاختبارات والسياقات التي تصد وتثبط - هكذا يظنون،
وهي حقيقة لا تراد إلا عوناً لهم على الوصول، وتمحيصاً للمعنى
أو الخلق المرجو، واستجاشة قواه في النفس بالصبر والمكابدة،
والتعثر مرة بعد مرة.

”

فكل عَثْرَة غير أختها، وكل مرة تدريب فيها درس جديد
وطعم مختلف.. وهكذا حتى تجد نفسك فجأة وقد توطّن
فيها الساكن الجديد (العادة الجديدة)، بل لعلك تُسائل
نفسك أحياناً: كيف كنتُ غير ذلك من قبل؟! ”

“



• كيف نعالج الفجوة بين العلم والعمل؟

غالب تلك الفجوة حلّها في ألا تخلّقها أنت ابتداءً! إذ إنّ كثيراً مما نتعلم أو نعلم بالفعل لا ينقصه إلا تفعيله بالفعل، ولا يتطلب مزيد علم ولا وقت ولا وضع على رف الانتظار.

مثلاً، تعلمت ذكرًا أو دعاءً، إما أن تحفظه وتردّده أو تكتبه وتقرأه في وردك اليومي. أو تعلمت مثلاً معنى الانقطاع لعمل، أي أن تفرّغ نفسك من المشتتات وقت قيامك بذلك العمل، على رأسها التقلب في وسائل التواصل وما إلى ذلك، فيكون الحل أنك إذا قمت بعمل مثل قراءة وردك أو قراءة صفحة في كتاب أو أيّ عمل، أن تغلق الهاتف أو تغلق حتى الإنترنت أو تغلق أي نوع من أنواع المشتتات أثناء قيامك بذلك العمل المعين، مثل هذه المفاهيم لا عمل لها إلا العمل بها.

وكان من مآثور السلف: «إذا أخذت الله لك علمًا فأحدث له عملاً، ولا يكن همّك التحديث به»^(١). لكن الحاصل اليوم أننا نسارع أول ما نسارع عند تعلم أية معلومة جديدة إلى التحديث والنشر والمشاركة بين الناس، ثم نُخزّنها عندنا نحن على أمل العودة إليها يومًا ما، وبدء العمل بها يومًا ما. وهكذا تتراكم المعلومات المؤجّل العمل بها، وتخلق معها فجوة وهمية بين العلم

(١) الأصبهاني: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» - من الطبقة الأولى من التابعين - عبد الله بن زيد الجرّمي - المآثور عنه في العلم والتعلم.



والعمل، سببها ببساطة تربوي وليس علمي، فلا ينقصك مزيد علم في المسألة، بقدر ما تحتاج لتربية نفسك على ما علمت.

والحلم بالتحلّم والعادة بالتعود، وكذلك ليس للعمل وصفة إلا أن تعمله، وإلا فالعمر لا يتسع لتأجيل كل ما تتعلم لحين تتفرّغ لتبدأ في تطبيقه؛ هذا من التسويف المُقنّع.

ومثله مقولة «لن ألزم بأمر الله تعالى حتى أقتنع»، فهذه لا تلبس الحجاب حتى تقتنع، وهذا لا يصلي حتى يقتنع، وذلك لا يصوم حتى يقتنع!

ما المقصود بالقناعة هنا؟

إذا كان المراد العلم، فصاحبنا بالفعل يعلم الحكم الشرعي. إذا كان المراد العون على الالتزام، فعليه بالدعاء والتضرّع للمعين أن يعينه على الامتثال.

أما إذا كان الحكم الشرعي لا يعجبه ويريد أن يصوغ حُكمًا ابتداء يراه أوفق للعصر أو أوفى للمراد الشرعي... فليبلغ رتبة الاجتهاد أولاً ويسلك طريقه!

”

أيًا ما يكن مرادك لا بد من إجراء معين! أما مجرد تأجيل الالتزام إلى حين تستقيم نفسك من تلقاء نفسها، فهذا خداع ساذج!

“



وحقيقة المسألة كلها أنه تنقص صاحبنا ذاك التزكية والتربية وليس العقل والعلم، وإلا لو أن صاحب هذه العقلية عقل حقًا، لعقل نفسه أي ملك زمامها وألزمها ما ينفعها ولو لم يكن فيه هواه فورًا.

وفي الأثر: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّرَ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(١).

وكذلك في الحديث عن المصطفى ﷺ: «مَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعِفَّ يُعَفِّهِ اللَّهُ»^(٢).
فالخلاصة أنه ليس للعمل وصفة إلا العمل به^(٣).

• انتبه لنمط الحياة «الهوائية»

كثيرًا ما نستاء من الأهواء كبيرة الحجم، والمشكلة الحقيقة تبدأ من الاتباع المستهتر للأهواء الصغيرة. مثلاً، قد يكون عندك واجب يفترض أن عمله، سواء كان واجبًا مدرسيًا أو غيره، فتؤجله حتى يضيق زمانه ويتراكم مع غيره. مثل هذه التراكمات هي التي تسوؤنا عادة، لكن المشكلة تبدأ قبل ذلك الواجب المعين أو المشروع المعين. المشكلة في نمط حياتك متبعا للأهواء الصغيرة.

(١) اختلف في هذا القول هل هو من آثار السلف أم حديث سُمع عن المصطفى ﷺ. ومعناه صحيح على كل حال.

(٢) مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة - مسند أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) - حديث رقم: ١١٤٣٥.

(٣) لمزيد تفصيل في أسباب تلك الفجوة وعلاجهم، يُراجع كتابي «الأسئلة الأربعة».



هذه الأهواء الصغيرة تبدأ ببساطة من أول لحظة الاستيقاظ: التلکؤ الطويل في الفراش بعد الاستيقاظ، ثم فتح الهاتف والتقليب في المختصرات والنكات ووسائل التواصل بلا هدف ولا معنى، لمجرد أنها دقائق سريعة أو تحديث صباحي سريع ومثل هذا. ثم بين النهوض من الفراش إلى الفراغ من الحمام والاعتسال حركات بطيئة متثاقلة. ثم إذا كانت ثمة صلاة فلعلك تنفق بين الوضوء إلى الشروع في الصلاة نصف ساعة على الأقل في الحَوْم حول نفسك، في النظر يمينًا وشمالًا، في التقليب في الهاتف، أو ملاعبة إخوانك... ولعله لا بأس في الحركات نفسها كالملاعبة أو التقليب، وإنما البأس المقصود هو في اعتياد هذا النمط المستهتر من اتباع الهوى وعدم الشعور بقيمة أنفاسك ووقتك ومخزون طاقتك، وأهمية التركيز والانقطاع لكل عمل عند عمله.

”

هذا هو النمط الذي يجعلك في الكبيرة كما أنت في الصغيرة. فانظر إلى نمط حياتك في في تسيير يومك في الصغائر، ينعكس هذا في أدائك للمهام للكبرى.

“

ونتحجج كثيرًا بأنها كلها أمور مباحات أو لا بأس بها. المشكلة هنا ليست في كونها من المباحات أو ما لا بأس به،



المشكلة تربوية تزكويّة، المشكلة في مَلِكِكَ لزمام نفسك، المشكلة في عدم استشعارك لقيمة وقتك وطاقاتك.

خذ مثلاً يوماً واحداً من أيامك العادية، واحسب كمية الوقت المُهدّر بمثل هذه الحركات والنظرات والتقليبات يميناً وشمالاً، لا يقل عن ساعة وقد تصل إلى ثلاث أو خمس، ثم بعد ذلك تقول لا أجد وقتاً لإتمام أهدافي، لا أجد وقتاً للقراءة، لا أجد وقتاً لكذا. في حين أن المشكلة كلها في إهدار الأوقات البينية التي من مجموعها لربما كان عندك ساعة كاملة لتتفرغ فيها لأمر ما!

”

ومن كان هذا نمط حياته وهو فرد وحده قائم بنفسه، كيف يكون أمره إذا صار إلى أسرة؟ طبعاً سيلقي اللوم على الأهل والأولاد والشغل ودوام الحياة، في حين أن النمط كله يبدأ منه هو وينتهي عنده هو، وإلا فسهولة سنجد دائماً ما نلومه خارج نفوسنا!

“

• كن ذاج مزاج لا تابعاً للمزاجية

أن تعيش حياة متزنة مسؤولة لا يعني بالضرورة حياة عابسة وأداء على مضض، ولا يعني عدم اعتبار مزاجك أبداً. وإنما



يكون المزاج معتبرًا بوصفه جزءًا من ثقافة المسؤولية، التي فيها الترويح لا الإهدار، وفيها البدء بالأعمال الأحب لنفسك والإكثار من الصالحات الأيسر عندك... وما شاكل ذلك من ميول مباحة.

”

إن المزاج والميل والهوى معايير مُعتبرة بقدرها في حينها، لكنها لا تصلح غايات مقصودة لذاتها ولا آلهة حاکمة بإطلاق.

“

- فأن تقوم بما يجب عليك وإن لم يحضر مزاجك محمود ومشكور.

- وأن تصبر على العمل حتى يحضرك فيه ميل ومزاج لا بأس به.

- وأن تناور نفسك وتروضها حتى تستقيم على الجِدِّ، فلا تتملل سريعا ولا تتدلل كثيرا، هذا عين الحكمة.

- أما أن تشترط حضور مزاجك وهوى نفسك لتقوم بعمل ما، وتصير هذه عادتك، فهذا هلاك وإهدار؛

- لأنَّ النفس إن تركتها لهواها فلن يحضر إلا فيما عودتها عليه من الدلال والتكاسل والخمول؛ ولو هاودتك مرة تمتعت عليك مرات!



• لا تكن ملولاً

من عجائب عبارة «سأموت من الملل»، أنه لا أحد مات حقيقة من الملل، وإنما يموت الغالب من السبل التي يطرقونها تلافيًا لذلك الموت! فإما قتل الوقت باللهو العابث والتجول الفارغ في الانترنت والتقليب المتواصل في وسائل الفرجة، أو قتل البدن بالتسالي المأكولة والمشروبة بكميات مُنهكة مُضرة ولو كانت مادتها مفيدة (وليست كذلك)! ومحصلة هاتين المقتلتين إصابة الروح بدورها في مقتل ثالث! فصاحبها يُخلّص نفسه ظاهريًا من هَوَس الملل ليقحمها فعليًا في دوامة إدمان لا مُنتهى لها، بل ولا ترويح فيها حقيقة إذ تزيده إنهاكًا بدنيًا ونفسيًا، فهو كالمستجير من الرمضاء بالنار!

إن الشعور بالملل أمر طبيعي وعارض وارد في الحياة، له إقبال وإدبار كأَي شعور أو حال آخر وليس مدعاة للرعب والهول والفرع. وأصحّ سبل التعامل معه ذكر الله تعالى (فهو عمل وترويح ومثوبة وبركة نفسية وبدنية)، ثم شغل النفس بأنشطة، سواء كانت أنشطة جادة، أو ترفيهية (كالرسم ولعب الأحجيات)، أو تطوعية، أو بدنية. المهم أن يكون نشاطًا يتطلب أن ينشط صاحبها لها ويبذل فيها جهدًا واعيًا يشعر بعائد أثره «التفاعلي» في نفسه، لا أن يكون مجرد مُستلق مُتلق مُتلقّف لا يلبي سوى شهوتي النظر والبطن!



”

رُوي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله: «لَا أَمَلُ ثُوبِي مَا وَسِعَنِي، وَلَا أَمَلُ زَوْجَتِي مَا أَحْسَنَتْ عِشْرَتِي، وَلَا أَمَلُ دَابَّتِي مَا حَمَلْتَنِي، إِنَّ الْمَلَالَ مِنْ سَيِّئِ الْأَخْلَاقِ» [الذهبي - «سير أعلام النبلاء»].

“

• تَخَفُّفٌ مِنَ الْمُلهِيَّاتِ وَمُهِدِرَاتِ الطَّاقَةِ

وهي عادات وأعمال لا تَقْصِدُهَا عَمْدًا، بَلْ عَرَضًا وَعَبَثًا فِي الْغَالِبِ. وَتَبْدُو عَابِرَةً هَيِّنَةً وَجِيزَةً فِي حِينِهَا، لَكِنِهَا بِالتَّرَاكُمِ وَالتَّكَرُّارِ عَلَى الْمَدَى تَشْغَلُكَ، وَتَهْدِرُ مِنْ تَرْكِيزِكَ وَجُودَةِ اسْتِثْمَارِكَ لَطَاقَاتِكَ. كَالْتَقْلِيلِ الْعَبَثِيِّ فِي أَلْعَابِ الْهَاتِفِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ فِي الْأَوْقَاتِ الْبَيْنِيَّةِ، وَكَثْرَةِ الْهَلَاكِ وَالِدَوْرَانِ وَالتَّمَطُّعِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَسْبِقُ النَّهْوُضَ لِلصَّلَاةِ أَوْ الْإِخْلَادَ لِلنَّوْمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

هَدَفُ التَّخَفُّفِ مِنْ تِلْكَ الْمُلهِيَّاتِ لَيْسَ تَوْفِيرُ الْوَقْتِ بِالْأَسَاسِ، بَلْ تَرْبِيَةُ النَّفْسِ عَلَى عَادَةِ التَّرْكِيزِ وَالْيَقَظَةِ فِي تَخْيِيرِ الْأَعْمَالِ وَمَقَاصِدِهَا، وَالْكَفِّ عَنْ عَادَةِ التَّلْهِيِّ وَ«قَتْلِ» الْوَقْتِ وَ«تَشْتِيتِ» الْإِنْتِبَاهِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ التَّخَفُّفُ بِعَمَلِ قَائِمَةٍ بِتِلْكَ الْعَادَاتِ وَالسَّلُوكِيَّاتِ، وَتَصْنِيفِهَا بِحَسَبِ مَدَى أَثَرِهَا، ثُمَّ النَّظَرُ فِي جَذُورِهَا وَأَسْبَابِهَا، ثُمَّ الْإِتْفَاقُ مَعَ النَّفْسِ عَلَى التَّوَقُّفِ عَنْهَا أَوْ اسْتِبْدَالِهَا وَاحِدَةً تَلُو الْأُخْرَى.



• اخشوشن

إن المسلم الذي يبلغ به حب الهوى أن يكدر عليه سائر يومه أو يوقعه في الشقاق مع من حوله عدم وجود نوعه المفضل من الجبنة أو نقصان نصيبه من حلوى، حَرِيَّ بأن يُدَكَّ دَكًّا عند أية نازلة! ولذلك كثر في أدبيات التزكية الشرعية الحث على الاخشوشان بمعنى التوسط في عادات المعيشة، والحذر من المغالاة في التمتع وتعوّد الترف والدلال، فهذه كلها عادات مُفسدة للمرء في حال عافيته بما تُعوّذه الركود والخمول والكسل وإدمان اللهو، فكيف في حال ابتلائه؟!

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: «... وذروا التَّنَعُّمَ، وزَيِّ العجم، وإيّاكم والحريز...»^(١). وجاء في شرح الأستاذ أحمد شاکر للمُسند: «والتَّنَعُّمُ هو التَّرفُّ في المأكَلِ والمَلَبَسِ وطُرُقِ المَعِيشَةِ؛ لِأَنَّ ذلِكَ يَدْعُو إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا والاستِرْسَالِ فِيهَا، وَقَدْ يَجُزُّ إِلَى الحَرَامِ؛ لِأَنَّ الحَلَالَ فِي الأغلبِ لَا يَتَسَبَّحُ لِلتَّنَعُّمِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا النِّهْيُ مَحْمُولًا عَلَى المُبَالِغَةِ فِي التَّنَعُّمِ والمُداوِمَةِ عَلَى قَصْدِهِ، وَهَذَا مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ الكَافِرُونَ والفَاجِرُونَ والغَافِلُونَ والجاهِلُونَ، كما قال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]». اهـ.

(١) مسند أحمد: مسند الخلفاء الراشدين - مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حديث



”

«وسئل الإمام أبو حنيفة: بم يُستعان على الفقه حتى يُحفظ؟ قال: بجمع الهمة، قال: قلت: وبم يُستعان على جمع الهمة؟ قال: بحذف العلائق، قلت: وبم يُستعان على حذف العلائق؟ قال: بأخذ شيء عند الحاجة ولا تَزِد»^(١).

“

ولا يتعارض هذا المبدأ التربوي مع ما ثبت من دعاء المصطفى ﷺ بالعافية والتعوذ من تحوّلها ومن زوال النعمة. ذلك أن مقصود النعمة في التصور الشرعي هو كل ما يعين في حفظ دين المرء وقيامه به من منافع الدنيا والآخرة، وليس النعم الدنيوية بذاتها. فالدعاء بدوام النعمة هو من الدعاء بحفظ الدين بالأساس. وإن من عُوفي في دينه لا يضره ما ابتلي فيه من دنيا، ومن ابتلي في دينه ما تنفعه عافية الدنيا ونعمها كلها!

وكذلك لا يتعارض مع حسن الظن بالله تعالى، فإن الله تعالى أخبر عن ذاته العلية: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [الأنفال: ٥٣]. فالنعمة هنا بنفس المقصود السابق. ثم يمكن بل ويقع أن يُبتلى مؤمن طائع بنقص في نعمة دنيوية، فيُنعم الله عليه بتثبيتته وحفظ دينه، ويجعل نقصه

(١) السلماسي: «منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد» - فصل في ذكر أبي حنيفة رضي الله عنه في ذكر علمه وورعه وزهده.



الدينيوي ذاك رفعة له وزيادة في النعمة الكبرى التي لا تعدلها نعمة في الدارين، وهي نعمة الإيمان التي يَسْلَمُ بها العبد من العذاب الخالد في الآخرة.

وإن نزعة الانغماس في الملذات الدنيوية وإدمان مظاهر التمتع وشدة التعويل على عالم الشهادة والمحسوس والمادي، وما يتبعه من ضعف أثر عالم الغيب وهيبة حضوره في النفس، وثقل مفاهيم الصبر والتأني والرسوخ العلمي في مقابل العجلة والتملل والكبسولات المعرفية... كل ذلك من آثار مخالطة الثقافات الكافرة وتشرب مفرداتها بالفرجة عبر مختلف الوسائط الإعلامية وإن لم يعش المرء في بلادهم، وتتصدرها الألعاب الإلكترونية والمسلسلات والدراميات! وفي الحديث: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا»^(١)، ففيه دليل على أن الصاحب صاحب حقيقة، وأن أثر المخالطة والمعاشرة لثقافة يظهر في تصور أهلها لمغزى الحياة وموازين الطيبات فيها، وطبائع أرواحهم، ومدى غمس نهج معاشهم في مظاهر الدنيا وسطوتها عليهم، وإن كانوا عن كل تلك التفاعلات غافلين!

• حذار من الحنين للمفقود حتى تجحد الوجود

عندما نتأمل في قصة آدم وحواء عليهما السلام، نجد أن الله تعالى قد كفاهما وأغناهما بجنة لا يجوعان فيها ولا يَعرَيان، ولا يظمآن

(١) سنن أبي داود: كتاب الصيد - باب في اتباع الصيد - حديث رقم: ٢٨٥٩



ولا يَضْحِيَان، فَضْلاً عَمَّا جعل بينهما من سكن ومودة. وسط كل هذا النعيم، هل كانا حقاً بحاجة لتلك الشجرة المحرّمة؟ جنة كلها حلال لهما، يأكلان منها رغداً حيث شاءا، إلا شجرة! شجرة واحدة فقط! للوهلة الأولى تبدو هذه الشجرة هيّنة.. بناقص!

”

إذن كيف وسوس إليهما الشيطان ليغريهما بتلك الواحدة الحرام عن المئات الحلال؟

“

لقد «زَيَّنَهَا» في أعينهما، أي أنها لم تكن حقيقة زينة في ذاتها، لكنه «صَوَّر» لهما أنها كذلك، وأيقظ فيهما مطامع خفية لتطلعات لم يكونا حقيقة بحاجة لها، لولا أنهما استرسلا خلفها: أن يكونا مَلَكَيْن بالأكُل من الشجرة، أو يكونا من الخالدين.

لقد «أوهمها» أنهما يريدان هذا الأمر بشدة، مع أنهما كانا عنه في غناء وسعة، لو اشتغلا بما أحلّ الله عما حرم، لكنه الاسترسال وراء خواطر الاشتياق، والانسياق وراء إلحاح الشيطان بتضخيم الأمنيات المتعدّرة، ﴿فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي ما زال يخدعهما ويزخرف لهما الباطل، وهما مسترسلان في الاستماع لغوايته، حتى استحكمت الرغبة فكان الاجترأ على الأكل.

وماذا يقول الله تعالى في عتابهما؟ ﴿لَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. لقد ذكّرهما



بأنه نهاهما، وبأن الشيطان لهما عدو. وتلك التذكرة الثانية هي من أكثر ما ننسى أو نستهين بحقيقة تلاعبه بالخواطر وتقليبه للنفوس، فتوهم أن كل احتياج هو حقًا من نفوسنا، وكل تضخم هو حقيقة من شدة افتقادنا له.

سبحان الله! هذا من تلبس إبليس على المؤمن ليحزنه، لأن همّ القلب إذا تمكّن منه وطغى على يقينه، ثبّط النفس عن كل خير، وانقلب مرتعًا لخواطر السوء واستعظام المصيبة واستصغار النعمة واستبطاء النصر والميل من الصبر.

• كن صابرًا ثم صبورًا

لا بد من الصبر على المصابرة وطول النفس في المثابرة على تقويم اعوجاج عادات عمر بكامله، التي لن تتغير كلها في يوم وليلة، خاصة إذا كنت ساعيًا لاستبدال عمر بعمر جديد، ونمط معيشة بمنهاج حياة! فحضور القلب بإحضاره، والفكر بالتفكير، والبصيرة بالتبصر، كما أن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم والصبر بالتصبر. ولولا مشقة الفعل في استجلاب كل ذلك، ما كان جهاد ومجاهدة، ولصدّق كل مُدّع في دعواه: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

ما لم «توقن» بهذا المدخل، لن يمكنك الصبر على السبيل. وسيثبطك أول وجع يداخلك مع بداية السير، وتستبطئ الثمرة الملموسة، فتتململ من المثابرة على ما يبدو سرابًا غير مأمول.



ولا مكان في التربية لملول ولا مستعجل، ولا أمل لعاشق النهايات الذي كلما أخذ خطوة أو قطع شوطاً استبطاً بقية المشوار الطويل، فعاد أدراجه للتأجيل ريثما يعاوده النفس فينجز «أسرع». فينتهي به المطاف لم يلحق بالأرنب ولا جارى السلحفاة!

”

ليس الشأن سباقاً على الانتهاء من الحياة، بل امتحاناً لجودة حياتها. وإنك على خير ما دُمت مكابداً في الخير.

“

• اخلق لنفسك الاهتمام باهتمامات جديدة!

غيّر ما بنفسك لتتغير نفسك!

حاول أن تخلق لنفسك أجواء موازية لتنتقل إليها تدريجياً، بالتعرف على عوالم أخرى غير عوالم الفرجة والتسالي والدردشة والتقليب العبثي في وسائل التواصل.

هنالك اهتمامات عامة نفعها مُجَرَّب يمكنك البدء فيها ولو على سبيل التجربة، ولكن بجديّة وبصورة دوريّة (متكررة يومياً أو أسبوعياً) لفترة معتبرة (شهر على الأقل)؛ لأنّ الهدف أن تتذوق نفسك مذاقات أخرى، تخفف عنها «رعب» الشعور بالخواء إذا خلا جوفها مما اعتادته.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ومن أمثلة تلك الاهتمامات:



١. الرياضة:

أثر الرياضة البدنية معلوم في تحسين المزاج والشعور النفسي. وأية صورة من صور التريّض البدني الذي يخرجك من طور الخمول والركود تفي بالغرض. فإذا جمعت إليها رياضة النظر في الملكوت ضوعفت الفائدة، كالتمشية في حديقة أو على طول شاطئ بحر مرة أو مرتين أسبوعيًا، والحفاظ على بضع دقائق أو ساعة من التمارين المنزلية يوميًا... إلخ.

٢. القراءة:

والهدف منها هنا التحايل على نفسٍ تشبه الطفل في التعلق بنوع حلوى ضار، فنغريه بتركه لنوع آخر أقل ضررًا مؤقتًا، حتى يعتاد التخلي عن الآخر. لذلك اختر مجالات قراءة عامة وخفيفة، أجواؤها ورسائلها تنبهك بلطف لعالم ومعانٍ جديدة. لكن لئلا ينشأ من ذلك إدمان آخر، حاذر من نوعية القراءات التي تثير فيك لذة شهوة أو تعودك على إزجاء وقت والسلام.

ومن المقترحات التي يمكن ترشيحها هنا: مؤلفات علي أحمد باكثير والرافعي والمنفلوطي وجبران ومصطفى محمود؛ وكتب السير الذاتية والتراجم؛ وكتب النوادر والطرائف مثل نوادر جحا ونوادر الأدباء وصيد القلم وسمير المؤمنين وبهجة الحديث...^(١).

(١) قوائم قراءات في هذه التصنيفات وغيرها على مدونتي (هدهديات).



٣. نشاط بدني اجتماعي:

انضم لأي نشاط أو مسؤولية تتطلب التزامًا اجتماعيًا خارجيًا، سواء بالخروج بدنيًا خارج البيت، أو معنويًا خارج راحة العزلة وأمان الخلوة الدائمة من المسؤوليات. كأن تشتغل شغلًا حرًا من البيت له مواعيد تسليم، أو تتعلم حرفة، أو تحضر دورة أو تدريبًا، أو تنضم لنشاط ينفعك الاشتغال بمجاله.

خلاصات

✧ المفتاح الذي به تُفتح لك أبواب نفسك أو توصلك دونك، هو أن تشغل بالعالم القائم بالفعل في نفسك قبل الانغماس في مخالطة عوالم الآخرين.

✧ لا تشغل عن مسؤوليتك وحاجتك إلى إقامة عالمك في نفسك: عقيدتك، مبادئك موازينك أدبك أخلاقك نهج حياتك.. أن تُنشئ بين ضلوعك جنتك التي بها تعبر الدنيا لجنة الله تبارك وتعالى بإذنه وتوفيقه ورضاه.

✧ فلا تقبر نفسك في نفسك قبل أوان قبرها في الأرض، ولا تستبق ما وراك الله تعالى من حرّ النار.

✧ وإنك إذا كنت تحيا حياة تعلم أنك محاسب عنها، يتبقى عليك أن تحيا حياة تنهياً للمحاسبة عنها بكل ما أنت عليه، وما لست عليه، بكل ما تأتیه وما تهجره.



✧ وحدك تتحمل مسؤولية وجودك لأنك أعطيت الحق في هذا الوجود، فلا تصادر ما أحقَّ الله لك ولا ما أحقَّ عليك.

✧ لا تُكَلِّفْ إلا نفسك ولا تُكَلِّفْ إلا وسعك ولا تُكَلِّفْ إلا ما أوتيت، فمهما يكن ما أُقِمْتَ فيه أو كُفِّتَ به أو تمتحن به فأنت عليه بالله بالله قادر، فاستعن بالله ولا تعجز.

✧ وأعجز الناس من عجز عن الاستعانة بالله تبارك وتعالى وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

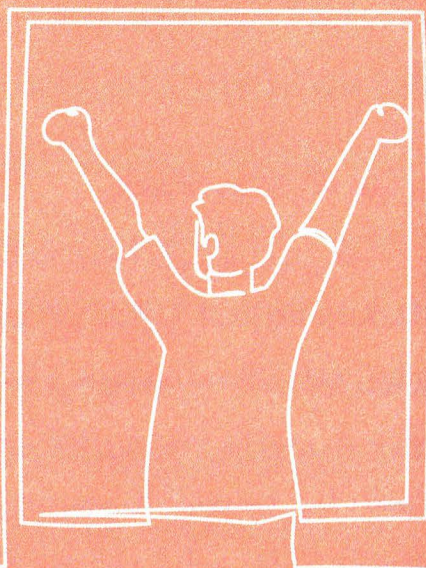
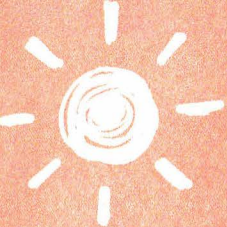
✧ ولا يتم لك من نفسك صبر على نفسك في رحلتك معها حتى يفورَ بقلبك صَهْدُ الشباب، ويَضِجَ بصدرك هُتَافُ الحياة، فلا تتجنب وعور الشُّعَابِ، ولا تخشَ لهب العِبءِ المُسْتَعِر!

✧ ولا يفتك مع ذلك أن تناجي الغمام، وأن تهجَعَ ليلة في كَفِّ القمر!

”

وهذه وصفة لك بوصفك ببساطة إنساناً في ملكوت الله الواحد القهار، وعبدًا لله العزيز الغفار.

“



الفصل الرابع

عقارب الزمن
كيف أتحكم في وقتي؟

• أهم الأوقات والأعمال

خطر يومًا في بال أحد الملوك أنه لو عرف دائمًا الوقت المناسب لكل عمل، والناس الذين يستحقون أن يُولِّيهم اهتمامه، وفوق هذا وذاك أهم ما يتوجب فعله، فلن يخفق أبدًا في أي عمل يقوم به. ومن ثم أعلن في كافة أرجاء المملكة أنه سوف يجزل العطاء لمن يستطيع أن يجيبه عن أسئلة ثلاثة: ما هو الوقت الأنسب لكل عمل؟ ومن أهم الناس ليولِّيهم اهتمامه؟ وكيف يعرف أهم ما ينبغي أن يشتغل به في أي موقف؟

تقاطر أهل العلم على المَلِك من أرجاء المعمورة، وكلّ منهم يجيب إجابة مختلفة. بالنسبة للسؤال الأول، قال بعضهم إنه ينبغي على المرء أن يخطط مُسبقًا للأيام والشهور والسنوات ويلتزم حرفيًا بما خطط له، فتلك أفضل وسيلة لمعرفة دائمًا أنسب الأوقات لكل عمل إذ خصّص له مسبقًا نصيبه من الوقت يُؤدّي فيه. ورأى آخرون أنه من المستحيل تعيين الوقت الأنسب لكل عمل سلفًا، لذلك فالحلّ الأمثل ألا يترك المرء لنفسه العنان فيضيع وقته في كسل وخمول وتبطل، وإنما ينبغي له أن يكون دومًا ذا همّة ومواكبًا لما يجري يحدث حوله، وبذا يعرف ما يتوجب فعله حين يحين وقته. وقال فريق ثالث إنه حتى وإن كان الملك يقظًا ومواكبًا للمستجدّات، فستعذر اتخاذ قرار صائب



على الدوام بشأن الوقت الأنسب لكل عمل، ولذا لا بد أن يكون للملك مستشارون حكماء يُخْلِصون له النصيح ويحسنون له المشورة. أما الفريق الرابع فقال إنّ ثمة أمورًا لا يسعها الانتظار حتى يتم عرضها على المستشارين، وتلك تستلزم أن يقرر الملك في الحال ما إذا كان سيقوم بها أم لا، وللوصول لذلك القرار لا بد أن يعلم سلفًا ما سيقع مستقبلًا، ولأن السحرة هم أقدر الناس على استشراف ذلك، فهم من ينبغي استشارتهم.

وبالمثل اختلفت إجابات السؤال الثاني، لأنّ البعض رأى أنّ أكثر من يحتاج إليهم الملك هم المستشارون، في حين أكّد آخرون أنهم رجال الدين، وفي رأي فريق ثالث كانوا الأطباء، بينما اختار فريق رابع المحاربين باعتبار حاجة الدولة الماسّة إليهم. وعن السؤال الثالث حول أهم ما ينبغي أن يشغل المرء، توزعت الآراء بين العلم، والعبادة، وفنّ القتال.

لم تظفر أي من الإجابات على تنوّعها برضا الملك، فلم يكافئ أحدًا من أصحابها. ثم قرر في محاولة أخيرة أن يستشير ناسكًا اشتهر بحكمته. كان ذلك الناسك يعيش في غابة لم يبارحها قطّ، ولم يكن يستقبل من الزائرين سوى عامة الناس. فارتدى الملك ثيابًا متواضعة، وقبّل أن يصل كوخ الناسك نزل عن حصانه، وتابع طريقه منفردًا تاركًا وراءه حرسه الخاص.

ولمّا وصل الملك إلى حيث كان الناسك، وجده منهمكًا في حرث الأرض قرب كوخه. فلمّا رآه الناسك حيّاه ثم عاد يستكمل



عمله. كان الناسك عجوزًا قد وهَنَ العظم منه واشتعل رأسه شيئًا، وفي كل مرة يهوي بالفأس على الأرض، يتوقف لاهثًا لالتقاط أنفاسه. فدنا منه الملك قائلاً: «جئتُك أيها الناسك الحكيم لأسألك أسئلة ثلاثة:

- كيف أعرف ما العمل الصحيح في الوقت الصحيح؟
 - ومن هو أهم إنسان أحتاج إليه ويتوجب علي أن أصرف له اهتمامي أكثر من غيره؟
 - وما هي أهم الشواغل التي ينبغي أن تتصدر أولوياتي؟».
- توقف الناسك برهة منصتًا لأسئلة الملك، ثم لمّا فرغ لم يردّ، بل رفع فأسه على عاتقه، وعاد يستأنف حرث الأرض!
- تأمّله الملك هُنيئَةً، ثم أردف مُتَلَطِّفًا: «فلتدعني أكمل العمل نيابة عنك لأنك تبدو مرهقًا». فناوله الناسك الفأس شاكرًا، ثم جلس يستريح على الأرض.

ولمّا أنهى الملك حرث صَفَيْن، توقف وأعاد عليه الأسئلة الثلاثة. وللمرة الثانية لم يردّ الناسك، بل نهض ومدّ له يده قائلاً: «أعطني الفأس ودعني أكمل ريشما ترتاح أنت قليلًا». غير أنّ الملك عاد يستكمل الحرث ثانية، حتى بدأت الشمس تميل للغروب، وبقايا أشعتها الذهبية تعانق قمم الأشجار مؤذنة بالرحيل. فغرس الملك المِجرفة في الأرض، والتفت للناسك قائلاً: «جئتُك أيها الحكيم، لعلي أصيب عندك بالإجابات



الصحيحة لأستلتي. فإن كنت لا تعرف، فاصدقني القول، وسوف أعود من حيث جئت». ردّ عليه الحكيم مشيرًا لقادم من بعيد: «هناك شخص يركض باتجاهنا، فلنر من ذاك أولاً».

التفت الملك فرأى رجلًا ذا لحية يركض باتجاههم، ضاغطًا على بطنه بكلتا يديه، والدم يسيل من بين أصابعه. ولمّا وصل إلى حيث كان الملك واقفًا، سقط مَغشيًا عليه، وهو يئنّ في ضعف. سارع الملك والحكيم يضمّدان الجرح البليغ في بطن الرجل، فقام الملك بتنظيف الجرح بأحسن ما استطاع، ثم ضمّده بمنديله وبقماشة جاء بها الناسك. ولمّا استمر النزيف، ظل الملك يغيّر الضماد وينظفه، ثم يعيد الربط على الجرح، حتى توقف أخيرًا تدفق الدم. عندها أفاق الرجل، وطلب أن يشرب، فأحضر له الملك مياهًا نقية، وسقاه بيده. ولما كانت الشمس قد غربت وأمسى الجو باردًا، حمل الملك والناسك معًا الرجل الجريح إلى داخل الكوخ، وأرقداه على الفراش. وما إن لامست رأس الأخير الوسادة، حتى غَطّ في نوم عميق.

كان التعب قد أخذ من الملك كل مأخذ، بعد رحلته الطويلة وعمل اليوم الشاق، فاستلقى بدوره عند عتبة الباب، ونام من فوره طوال تلك الليلة القصيرة من ليالي الصيف. ولمّا استيقظ في الصباح، استغرق بعض الوقت ليتذكر أين كان، أو من ذلك الرجل ذو اللحية الراقد في الفراش، محدقًا فيه بعينين لامعتين.



ولمّا رأى الجريح أن الملك قد استيقظ، وتقابلت نظراتهما، قال في صوت واهن: «سامحني!». فتساءل الملك مستغرباً: «فيم أسامحك وأنا لا أعرفك؟». فأجاب الرجل: «إنك لا تعرفني، لكنني أعرفك! أنا عدوك الذي أقسم لينتقم منك لأنك أعدمته أخي واستوليت على ملكي. وقد بلغني أنك ذهبت لرؤية الناسك بمفردك، فعقدت العزم على قتلك في طريق عودتك. لكنك لمّا أطلت الغياب، وأوشك اليوم أن ينقضي ولمّا تعد بعد، خرجت من مكّمني لأبحث عنك. فوقعتُ بين أيدي حراسك، فتعرفوا علي وأصابوني كما رأيت. فهربت منهم مُثخناً وكنت لأنزف حتى الموت لولا أنك ضمدت جراحِي. أردتُ قتلك وأنقذت حياتي! لذا فإنني إذا عشتُ وإن شئتُ، سأكون لك خادماً مطيعاً وفياً، وسأمر أولادي أن يكونوا لك كذلك. أرجوك سامحني!».

سّر الملك سروراً عظيماً لما عقده من صلح مع عدو كاد أن يكون لدوداً، ولمّا نَمى بينهما من مودة على غير توقع منه. فلم يكتفِ الملك بأن عفا عنه، بل قال إنه سيرسل خَدَمه وطبيبه الخاص ليعتنوا به، وزاده بأن ردَّ عليه أملاكه كلها. ثم استأذن منه وخرج باحثاً عن الناسك، يحدوه الرجاء في أن يعرف منه إجابات الأسئلة قبل أن يرحل.

كان الناسك جاثياً على ركبتيه، يبذر البذور في الأرض التي حرثها بالأمس. فدنا منه الملك وقال: «للمرة الأخيرة، أرجوك أن تجيب عن أسئلتِي أيها الحكيم». فأجابه الناسك وقد رفع رأسه



إليه: «لكنها قد أجيبَت بالفعل!». تساءل الملك في عجب: «أجيبَت؟ وكيف ذلك؟». رد الناسك: «لو أنك لم ترحم ضِعفي بالأمس، لما كنتَ حرثتَ الأرض، ولكنتَ مضيتَ عائداً، ولكان ذلك الرجل قد هاجمك، ولكنتَ ندمتَ أشدَّ الندم على أنك لم تبَقَ معي. لقد كان أهم وقت هو ذاك الذي قضيتَه في الحرث، وكنتُ أنا أهمَّ شخص، وكان الإحسانُ إليَّ هو شغلك الشاغل. ثم لما جاءنا ذاك الجريح، كان أهم وقت هو ذاك الذي كنتَ تضمَد فيه جراحه، وإلا لكان مات دون أن تتصالحا. ولذا كان هو الشخص الأهم وقتها، وما فعلته له كان شغلك الشاغل. فاذكر ما أقول لك:

- أهم الأوقات هو: الآن. حاضِرُك هو تاجُ وقتك؛ لأنه الوقت الوحيد الذي تملكه وتقدر عليه.

- وأهم شخص على الإطلاق هو: من تكون معه الآن؛ لأنك لا تعلم إن كان سيتاح لك أن تتعامل مع غيره مستقبلاً أم لا.

- وليكن شُغْلُك الشاغلُ أن تحسِنَ إليه، إذ هذه هي الغاية التي لأجلها خُلِقنا على هذه الأرض»^(١).

(١) قصة مترجمة عن الإنجليزية، لمؤلفها بالروسية ليو تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠)، وهو أحد أعمدة الأدب الروسي في القرن ١٩، ومن أشهر المفكرين الأخلاقيين في التاريخ الروسي. أشهر أعماله روايتا «الحرب والسلام» و«أنا كارنينا»، وتتربعان على قمة الأدب الواقعي الذي يَصوِّر الحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية.



”

«إنما الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما
الغد فلعلك لا تدركه، وأما اليوم فلـك فاعمل فيه»
[الحسن البصري].

“

• حَسَرَات المَاضِي

على معرفتنا الثقافية بمقولة «لا جدوى من البكاء على اللبن
المسكوب»، وعلى إدراكنا العقلي لها، ربما يظل في النفس شيء
ما يدفعها للبكاء على المسكوب حتى بعد مرور سنوات!

والحق أن الندم نوعان: محمود ومذموم. فالمحمود هو
الدافع للتوبة والذي جُعل إحدى شروطها، وهو تألم القلب لما
اقترفه العبد من الذنب، وتذكره مقام ربه والاستحياء منه،
وما يصاحب تلك الحال من مشاعر حزن وتخوف من سوء
العاقبة... إلخ^(١). وهذا مفصل في مواضعه من مراجع التزكية
والآداب والأحكام الشرعية.

أما المذموم والمقصود في هذا المقام فهو طول التحسر
والحزن على على فائت يرى صاحبه أنه لم يكن ينبغي أن يفوت،

(١) لمزيد تفصيل في مسائل الذنب والخطأ والتوبة، يُراجع كتابي «الأسئلة
الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة».



أو على فعل يرى أنه لم يكن يصحّ أن يفعل. فالأول سببه خلل في الفهم الشرعي العقدي لمسائل القدر والرزق والمقسوم^(١). وجاء في تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]: «أعلمناكم بتقدّم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها؛ لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدّر شيء لكان» ١.هـ.

”

عن عبادة بن الصّامِتِ أنه قال لابنِه: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ^(٢).

“

وأما طول التحسّر والتوجّع على ما سبق من تصرفات وسلوك، الذي يكون عادة بعد مدة طويلة نضج فيها صاحبها قد عبر تجارب

(١) لتفصيل ذلك، يُراجع كتابي «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة».

(٢) سنن أبي داود: كتاب السنة - باب في القدر - حديث رقم: ٤٧٠٠.



تجعله يبصر من موقعه الجديد ما لم يكن يراه بعين عمر وخبرة ذلك الوقت، هذا كذلك مذموم بل وفيه ظلم للنفس وإهدار لطاقتها المعنوية فيما يكدرها ولا يجدي نفعًا ولا ينبي عليه عمل. فالمتحسر يحكم على تصرفات نفسه في وقتٍ آخر وبناءً على ظروف أخرى وملابسات مختلفة، وبناءً أيضاً على عقلٍ جديد اكتسبه بالزمن والممارسة، فيوقع الظلم على نفسه وهو لا يشعر.

والخلاصة في شؤون مواجيد الحزن والندم والحسرة والتألم، أن المحمود منها هو ما كان ممارسة لشعور موجود في حينه، ثم بناء عمل عليه والمضي قُدُمًا، سواء كان ذلك بتدارك تقصير أو تقويم سلوك أو حتى التجاوز النفسي بالمسامحة والتفويض إلى الله تعالى.. وغير ذلك من صور الأعمال النفسية أو الذهنية أو السلوكية التي وجَّهنا لها شرع الله تعالى أحكامًا وآدابًا وسنًا. أما مجرد اتخاذ تلك المواجيد المثبِّطة عملاً فهو غالبًا يُثْلَفُ النفس ولا يأتي بخير^(١).

• هواجس المستقبل

- أين ترى نفسك بعد عشر سنوات؟!

- «خطّط لمستقبلك»

- «الخطّة الخمسية»، «الخطّة العشرية»... إلخ

(١) لمزيد تفصيل في التعامل مع تلك المشاعر والمواجيد، يُراجع كتابي «قلب مَصُون».



قبل تعيين الإشكالات الكامنة في تلك التوجهات الحياتية، نتوقف عند دلالة مفهوم التخطيط الذي ننتقده في هذا التصور:

التخطيط من حيث المبدأ كما ذكرنا أعلاه يُراد به التنظيم، والتنظيم - بديهياً - لا يمكن أن يكون إلا لما هو موجود أو قائم، مع تطلّع موزونٍ لما يترتب عليه أو يليه. تمامًا كما لو أنك في الدور الأرضي في بناية ما وتتطلع للوصول للعاشر، فكلّ دور له متطلباته التي لن تعرفها حتى تبلغه. فمن حسن الإعداد أن تخطط بإتقان لعبور الأول، واضعاً في الاعتبار تطلعك للوصول للثاني. أمّا أن تظل في تخطيط وحسابات وتوقعات وتخمينات حول العاشر وأنت بعدُ في الأول، فهذا لم يعد تخطيطاً ولا تطلّعاً في محلّه؛ ذلك أنه بقدر ما تؤدي الغفلة عن الرؤية الكلية لتخبّط خطوات السير المرحلية، فكذلك التفكير في الطريق عن بُعد ليس كالسير الفعلي فيه. وأي طريق لا يتضح حقيقة إلا لسائر. فبدون التركيز في حاضرك لن يمكن لرؤيتك المستقبلية أن تتضح أو تنضج. وإذا لم تُقدّم على الخطوة الأولى ولم تبلغ الدور الأول في البناء، فلن يمكنك حقيقة تصوّر ما بعده، لأنه ليس من أساس عندك تبني عليه تصوّراً صائباً. وبالتالي فالإغراق في تصوّرات الدور العاشر ومتطلباته وأنت بعدُ في الأول، لا تعدو كونها خبط عشواء وضرباً في عِماية!

وتلك التوجهات بعيدة المدى غالباً ما تحيد بالتخطيط من كونه تنظيمًا لحاضر حاضر، لالتهاء بمستقبل غائب. وإنه لمن



العبث الواهم كثرة صرف الفكر والطاقة والجهد في التخطيط التفصيلي ممتد الأمد، ليس فقط لأنك لا تضمن عيش تلك السنوات الخمس أو العشر (أو اليوم التالي حتى!)، بل لأنك أنت نفسك لن تظل نفس الشخص فكريًا ووجدانيًا، ولا الظروف والمؤثرات حولك ستبقى بالكلية على حالها بالضرورة.

وهكذا تسلل هاجس «الضمانات» لنفسيات أصحاب تلك التوجهات الحياتية؛ فتجدهم يُقعدون القواعد ويُجدولون الجداول لمستقبل ويتكلمون بنبرة الضامين الوثائقين من حساباتهم وأرقامهم، لا المنظمين المتفائلين المستعدين! ومع أنّ الله تعالى قرّر: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

لكننا بهواجس المستقبل المحمومة كأنما نقول لربنا إننا ندري ماذا نكسب غدًا! ونضمن أننا سنعيش حتى نهي الخطط الخمسية والعشرية، وننفق ما أمضينا أعمارنا في ادّخاره وتكديسه، ونثق أنّ العمر سيمتد بنا حتى نؤدي قائمة الأولويات المؤجلة، ونعتقد أنّ أرواحنا لن تشيخ وهي تنتظر التحرر من أغلال القوالب السائدة والواجبات التي لم يُكلف الله تعالى بها عباده، بل ابتدعوها من عند أنفسهم وليتهم ابتغوا بها رضا الله تعالى! فمن دوامة لدوامة تفنى أعمار الساعين في جمع ما لا ينفقون ليُنْفِقَ مَنْ لا يشهدون!



”

إننا نتعامل كأننا بالتخطيط «نصنع» أقدارنا حقيقة. ونخشى أن نخطو أي خطوة نحو مستقبل «مجهول» أي بغير ضمانات محسوبة، مع أن كل مستقبل هو في الحقيقة مجهول مهما حسبنا حساباتنا، لأنه ليس ثمة ضمانات على الحقيقة مهما توهمنا ذلك.

“

الضمان الوحيد هو ما وعد الله تعالى به من الحياة الطيبة للمتوكل الحق وعاقبة الخير للمؤمن الحق. وقد ذكرنا في تيه المراد أنّ الكثيرين يخافون من الإقدام على أي تجربة أو الخوض في أي مجهول لا تتضح لهم ثماره ونتائجه، خشية تضییع العمر في التجربة أو خوف الندم من العواقب إذا ثبت خطأ المسار.

”

والحلّ لهذه المعضلة هو الكفّ عن خلقها من البداية!

“

ذلك أنّ النظر في عواقب الأعمال وتوقع نتائج محتملة، وحكمة الموازنة بين الاختيارات أو مقارنة المسارات، لا يعنيان



أبداً تشترط الضمان بصحة أو قطعية تلافي خطأ، فإنك لا تعلم الغيب ولن تعلمه، والصواب وارد الوقوع كما الخطأ، وإنما السداد والتوفيق أرجى لمن تفكر واستخار واستشار، ثم أقدم على ما تراهي له متوكلاً على الله تعالى.

”

وإنك في عواقب قرارات الحياة بين: صوابٍ تحمد الله تعالى عليه وتبني فوقه، وخطأً تستغفرُ الله تعالى منه وتستعينه عليه لتُصلِحَ أو تتجاوز. هذه الخلاصة البسيطة التي نتعمد تعقيدها بهواجسنا وبلبلاتنا، النابعة من تشوّه التصوّر وهشاشة الشخصية وضعف بنية المسؤولية الصحيحة.

“

وأما هاجس ضياع العمر، فالردّ عليه أنك تبذل من نفسك لنفسك، وتدفع ثمن تجربتك ونضجك، وتصل بهذا لرؤى واضحة وتتخذ موقفاً على بصيرة مما تفعل أو لا تفعل في الحياة. ودفع الثمن ليس تهديداً ولا تخويفاً، بل هو تقريرٌ لحقيقة وجودية.

فإنك بالخوف والتذبذب والقلقلة تدفع من عمرك، كما تدفع حين تخوض وتجرب وتحاول متحملاً العواقب بحُلُوها ومُرها.



وكلّ الفارق أن الثمن الأول لا مردود له سوى الغم والتشتت، بسبب التفكير في كل شيء في ذات الحين بنصف قلب. بل إنك على الحقيقة تدفع لتخسر! فإنّ السنوات ستمرّ على أية حال، وليس أسهل من تعليل النفس بسوف وليت!

وإنّك مهما توخّيت أن تتعظ من تجارب الآخرين، لا غنى لك عن نصيبك الذاتي من التجارب، وكل تجربة لا بد لها من ثمن ما. فالإشكال ليس في ذات الثمن المدفوع ولو اتضح خطأ التجربة، وإنما في الاستمرار في دفع ذلك الثمن حتى بعدما يتبين لك الخطأ، خشية التصويب! وللتصويب ثمنه كذلك، لكن شتان بين ثمن دفعته مُرغمًا قبل أن يتبين لك أمرك، وثمان تدفعه مختارًا في عكس ما تبين لك بعدما تبين!

هذا وقد نبّهنا المصطفى ﷺ للفارق بين تقدير العامل لعواقب سعيه وهو اجس الضمانات، بمعيار «المقاربة والسادا». فالله تعالى لم يتعبّدنا بضمان المستقبل أو نجاح الخطط، وإنما بصدق التوجه وإتقان الحاضر. وفي الحديث: «استقيموا ولن تُحصوا، وإنما سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنّه لن يُدخِلَ الجنةَ أحدًا عمَلُهُ». قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟!»، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله منه برحمة» [مُتَّفَق عَلَيْهِ].

ومفهوم الوصيّة النبوية أنه لن يستطيع أحد تحمّل أمانة الوجود ومسؤولية التكليف بحوّله وقوّته وحده (لن تُحصوا)



وإنما بعون الله تعالى. ولن يبلغ أحد أداء حقه تعالى على كل حال، فلذلك غاية الأمر السداد أي لزوم المرجعية الربانية والنبوية. «وقاربوا» أي توسّطوا بين حالين: التشديد على النفس حتى ينقّرها التعنّت، أو التساهل معها حتى يفسدها الدلال. «وأبشروا» برحمة الله وفضله، فليست العبرة بمن استكثر وغرق في دوامات الأشغال، وإنما بمن صدق وأخلص ما استطاع، ليصفو سعيه لله تعالى.

وتأمل الدقة القرآنية في استعمال حرف الجرّ «مِنْ» قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالمطلوب أن تكون مُستعدًّا بما تستطيع الآن، وتسدّد في التخطيط لما يحضرك من قوة بين يديك، لا أن تضمن ما لا تملك بعد، فالله تعالى هو الذي يفتح على المُريد بمزيد، وعلى السائر باليسير.



واذكر أن الخطوة تدلّ على أخذها. فتوكل على الله تعالى، واخطّ الخطوة التي تبيّنت الآن، يتضح ما بعدها في حينها.



خذ الحياة بقوة (الآن)، فأنت عند الله تعالى بما عليه تموت وعليه تبعث، وليس لك من سعيك في الحياة إلا ما أحسنت الآن، ثم ما نويت مُخلصًا وإن حيلَ بينك وبين عمله.



• لتكن لك تجربتك أنت^(١)

حار فهمي فيما يدور بين البشر من حولي. ولست أنا بالذي يرصد نفسه لمراقبتهم، وإنما أنظر إلى أحوالهم فأرى عجبًا، وأخرج إليهم فيعرض لي من شؤونهم ما هو أعجب من العَجَب! ولقد أخذت نفسي ذات يوم باجتناّب البشر ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا. وكنتُ آنذاك حَدَث السنّ، قليل التجربة. ولكنتي في ذات الوقت كنت كثير القراءة عظيم الاعتبار بتجارب الآخرين. ولقد عنّ لي في قراءاتي ما أوقع في خاطري أن البشر - عن جُمْلَتهم - شرٌّ ينبغي البعد عنه، والفرار منه. وعشتُ في ذلك سنوات. لم أهجر دنيا الناس إلى صومعة نائية في طرف من الأرض. وإنما عشتُ بينهم، مقتصدًا في معاملاتي معهم غاية الاقتصاد، حذرًا من شرورهم ودسائسهم أشدّ الحذر، مُفرطًا في التوجّس منهم والشكّ فيهم. وأشهد الله لقد مرّت تلك السنون صافية كأعظم ما يتاح الصفاء لبني الإنسان على الأرض!

ولكنّ نفس الإنسان لا تقف به عند حال، حتى وإن كان حال الصفاء الذي يرومه بنو البشر. وإنما تنتقل به من حال إلى حال، كما ينتقل الفراش من فننٍ إلى فننٍ، ومن رَوْض إلى رَوْض. وهكذا، أبْتُ على الفتى نفسه المملول أن يرتع فيما هُيئَ له من صفو العيش، وسَعَت به إلى الخروج من عزلته، فكأنما

(١) من مذكرات أبي عبد الرحمن عليه السلام، سنة ١٩٧٤، وعمره ٢٣ عامًا.



مَشَتْ به إلى حَتْفِهِ. ودَّع ذلك اللون من الحياة الهائلة الوادعة إلى لون جديد، زعم لنفسه حينها أنه لا شكَّ أفضل وأن مَزِيَّتَهُ أكبر. وسمَّى ذلك اللون الجديد الذي أقبل عليه: التجربة. وكان يحدث نفسه قائلاً: «نعم، نعم؛ إنها التجربة؛ أكبر معلّم في مدرسة الحياة! دعك يا فتى من تجارب الآخرين؛ ولتكن لك تجربتك أنت».

ولم يكن كاذباً إذ زعم لنفسه أن تجريب الأمور هو خير معلّم. ولكن فاته أن التجارب تدمغ الإنسان بخائمتها، وأنها تحفر لنفسها في وجدان الإنسان وكيانه مُسْتَقَرّاً بعيد الغُور. فاته إدراك ذلك في حينه، ولكنه ليس مخطئاً في نسيانه. فمن منا تدفعه نفسه إلى ركوب طريق جديد، فيقف عند رأس الطريق، ويُنشئ يفكر ويقدر فيما يمكن أن ينتظره عند آخر الطريق؟ ومن منا وقف وقدر وفكر، ثم منعه تصوّر النهاية من ركوب الطريق والمُضي فيه إلى منتهاه؟! لن يفعل ذلك إلا رجل قعدت به حَمِيَّتُهُ، ووهن منه العزم. إذ الإنسان مُغرَم بالتجريب، مولع بالمخاطرة.

”

ولو أن كل إنسان منعه عواقب المخاطرة من ركوبها، لما مَشَتْ الإنسانية خطوة واحدة في الرِّكْب الحضاري الذي قادها إلى ما تَرَفَّل فيه اليوم من دَعَة ورفاه.

“



• الصباح رِبَاح، فماذا عن المساء؟

حشدت التنمية البشرية موادّها بفضائل الصباح والتبكير، حتى صارت هاتان الكلمتان ثقلينا الوقع في النفس والسماع؛ إذ إننا في زمان اتباع الهوى الذي يندر أن يكون الاستيقاظ الباكر فيه طواعية، والأندر منه أن يُقضى وقت ما بعد الاستيقاظ فوراً في كل الأعمال النشيطة والمثمرة، من رياضة وتعلم وإنتاج... إلخ. وفي المقابل صار وقت المساء - لأنه الضد لوقت الصباح - محمّلاً بدلائل التعب وانتهاء وقت الإنتاج وحلول وقت الراحة وانخفاض هرمونات النشاط وتفاعلات الطاقة في البدن... إلخ.

وفي كلا التصورين وجهة ودرجة صحة، لكن المشكلة في حصر كل الوجهة وكل الصحة في أحدهما. فلكل وقت فضائله لا ريب، لكن الانتفاع بكل وقت ممكن. فليست الخيرية مقصورة على الصباح ولا الإفادة من العمر منحصرة في المستيقظين باكراً. بل العبرة بما يفعله المرء وقت يكون يقظاً، وبمدى يقظته فيه. وغنيّ عن البيان أن أدبيات التزكية عامرة بأعمال وعبادات لأوقات النهار والمساء، فلا يخلو مسلم عن إمكان طلب رضا الله تعالى ونفع نفسه وغيره في كل وقت بحسبه.

الشأن كل الشأن في التوقف عن الجري وراء وهم «التحكم» في الوقت، ووضع تصورات نموذجية لما «ينبغي» أن يكون عليه اليوم «المثالي»، فإذا لم يوافق يومك من أولى دقائقه ذلك التصور فسد اليوم بُرْمَتَه! لا بد من وقف هذه الدراما الكارثية!



”

كل المطلوب أن تستثمر الوقت المتاح وقت إتاحتها،
وتكفّ عن تعمّد إهدار الموجود بالفعل بدل اللهاث وراء
إيجاد مزيد!

“

• التهيئة النفسية للإفادة من المتاح وقت إتاحتها

«لا وقت!»، «لا أجد وقتًا»، «لا تبقى طاقة»! هذه من
الشكاوى الدائمة التي يعاني منها كل ذو هدف أو طموح جاد؛
فأشغال المعاش اليومية لا تكاد تترك لصاحبها في اليوم فسحة
خلوة بنفسه إلا ساعات معدودة، يصل إليها بنفس مكدودة،
لا طاقة فيها إلا لبعض التقلب في وسائل التواصل والفرجة
والدردشة إلى حين وقت النوم.

الحل العملي لهذه المعضلة يبدأ من الخطوات التالية:

- إذا أخرجنا مقدار الإرهاق البدني الحقيقي من المعادلة،
فمتلازمة «الفناء» والإحساس بنفاد الطاقة الوجودية تجاه أي عمل
جاد هي في الأساس توهم شعوريّ وحيلة نفسية. فهي تبرر اتباع
الهوى العبثي دون الشعور بذنب إهدار وقت أو طاقة أو عمر،
لأن الوقت بالفعل نفذ والطاقة نضبت والعمر ممتد بسوف وليت
ولا بد أن يتغير الحال يومًا ما فتحلّ على صاحبه البركة في
الوقت والطاقة والعزم والهمة!



- وأول تفنيد لهذه الخرافات أن الوقت بحد ذاته لا يغيّر شيئاً من طبائع النفس وما عوّدها عليه صاحبها، فمن عوّد نفسه اتباع الهوى السائم في «الأوقات الصغيرة» أول من يهدر الأوقات الكبيرة في الترنح والتردد والتكاسل والعبث.. كلها فروع لنفس الآفة، فالوقت هو ضحية مستخدمه وليس الجاني!

- ثانياً، الخروج من هذه الدوامة يكون بتهيئة نفسية أو عقد اتفاق مع نفسك أن تخصص الوقت البيني الذي تعرف مسبقاً أنه يكون متاحاً لمدة كذا في توقيت كذا، تخصصه في عمل ما، أيّاً يكن هذا العمل، المهم أن يكون مقصوداً بخلاف الدوران العبثي واللهو السائب. لأن الإقدام على مختلف الأعمال بقصد وعمد أول التربية الواعية وملك زمام النفس، في مقابل «ترك» النفس لملايسات الظروف بما يشعر صاحبه أنه مفعول به لا حول له ولا قوة في تصريف نفسه! فالماكثة في البيت مع أولادها - مثلاً - تعرف لنفسها أوقاتاً يمكن أن تخلو فيها لنفسها، ولو كانت عشر دقائق، تقرر أن تخصصها لورد ما كذكر أو مطالعة أو استماع لمادة. والعائد لبيته بعد خروج يعرف أن له ساعة - مثلاً - قبل النوم يخلو فيها للتقليب في الهاتف، فيقرر أن يخلو فيها لشأن آخر، أو حتى يقرر أن يستمر في خلوته بالهاتف إذا شاء!

- إذا قلنا إن مجموع «الأوقات البينية» المنفقة في التقليب العشوائي في وسائل التواصل والفرجة يصل لنصف ساعة



فحسب في اليوم، فهذه حوالي ٤ ساعات من الفراغ الأسبوعي؛ إذا واصلت الحسبة شهريًا ثم سنويًا، وإذا دقت في مجموع الأوقات البينية التي تزيد في اليوم على نصف ساعة، سيتضح أن عندك ذخيرة من الوقت المتاح بالفعل؛ كل المسألة أن شكل إتاحتها ومقدار توزيعه على غير ما يتخيل تصورك «النموذجي»!

- من جهة أخرى، لا يعكف غالب الناس على نشاط بعينه أكثر من نصف ساعة متصلة، فإذا كنت ستخطط لتقسيم إنجاز هدف ما على أيام الأسبوع لوجدت أن محصلة وقت «التفرغ» المطلوبة يوميًا متقاربة حقيقة!

- المهم أن يدرك صاحب القرار أنه صاحبه! وأنه المتحمل لمسؤوليته وعاقبته، ويكف عن العزف المنفرد على نغمات الأسى والمظلومية والتجني من الحياة والأحياء!



من بديع مقولات مصطفى صادق الرافعي: «وإن يومًا
باقياً من العمر هو للمؤمن عُمْرٌ ما ينبغي أن يُستهانَ
به». ومثل ذلك يقال في محصلة تراكم «السويعات»
المهدرة يوميًا!





• استئقال الخطوة الأولى

أكبر عقبتين نواجههما عند اتخاذ الخطوة الأولى:

(١) الاستعظام: فتبدو لك الخطوة الأولى مهولة وصعبة وتتطلب من التجهيز والاستعداد والتهيؤ ما يجعلك تؤجلها وتسوّفها يومًا بعد يوم حتى تصير كالجبل المعنوي الجاثم على صدرك، فلا أنت تركت نفسك حُرًّا من ذلك الالتزام الذي تهاب الخطو تجاهه، ولا أنت خطوت تجاهه بالفعل لتفرغ منه! والحل البسيط المباشر لهذه العقبة أن تقرر البدء في ذلك العمل لمدة ٥ دقائق فحسب ليس أكثر، ثم تتركه بعدها فورًا! وفي الغالب ستجد أنك بدأت تندمج بعد تلك الدقائق ويتضح أن ما بدا لك جبلاً لم يكن إلا هضبة!

(٢) الاستصغار: فتبدو لك الخطوة الأولى التي حددتها لنفسك ضئيلة وهينة لدرجة أنها لا تساوي شيئاً في جنب الهدف الكبير الذي تسعى له، ولا تستحق بالتالي إجهاد نفسك واستنفارها لأجلها، فتؤجل وتسوّف لحين تحشد طاقاتك لخطوة أكبر منها!

والحل لتلك العقبة أن تخطو فوراً الخطوة الأولى بالقدر المتاح لك على حالك، دون أي مزيد تسويف أو تأجيل أو انتظار لزمان أنسب وحال أيقظ، مستحضراً أن أية خطوة بأي قدر تعني أملاً في بلوغ الغاية على المدى مهما طال (طالما أنك مثابر مداوم)،



أما انعدام أية خطوة بأي قدر والاستئانة للتسويق والتأجيل فلا أمل من ورائهم في وصول أبداً، مهما امتد بك العمر.

”

منذ كم تَعِد نفسك وتقول: غداً، غداً؟ فقد جاء الغد وصار يومك.. فكيف وَجَدته؟ وكيف وَجَدك؟!

“

• التركيز في خطوة الوقت لا خط النهاية

عندما ذكرت مثلاً في إحدى الندوات أن أول مدونة افتتحتها وأنا في المرحلة الجامعية كانت محصلتها قرابة الألف تدوينة، كان رد الفعل الأول استهوال كم التفرغ والتركيز والانقطاع والمثابرة... والحق أنني كنت ببساطة أدوّن شيئاً لمدة ٥ دقائق يومياً قبل الخروج أو عند العودة. ولم يكن في بالي رقم معين لبلوغه أو تصور لخط انتهاء أصله فأرتاح وأعتبر نفسي أنجزت! بل كنت أستمر في القيام بما علي القيام به ما قام في نفسي شعور المسؤولية تجاهه، ولا أعرف أنني فرغت حتى أفرغ حقيقة ويقعد ما قام!

وعلى نفس المنوال بلغ كتاب الأسئلة الأربعة - مثلاً - في طبعته الأولى ألف صفحة ووصل للألفين في الثالثة، على مدى



٥ سنوات تقريبًا! ولو أنني قبل البدء في تأليف كتاب استغرقت في التفكير في الانتهاء والخلاص وكمّ الوقت - بالأحرى السنوات - الذي سيستغرقه إتمامه، لانقضى نفس الوقت في التحسر والتردد والقلقلة والذنب وغيره من مشاعر دوامة الهروبية واللف حول الطموح عوضًا عن الشروع فيه!

”

إن المانع الحقيقي من الإنجاز يكمن في هذا التهويل،
الذي منبعه مدّ العينين لخط النهاية قبل البداية،
والاستعجال على الانتهاء قبل البدء!

“

هذه متلازمة نفسية «الخلاص» التي - عجبًا - لا تعين صاحبها على الخلاص من أي عمل ولا التقدم في أية رحلة! بل تزيده لصوقًا في مكانه وعجزًا عن التخلص من أحماله.

رگز في خطوة الوقت، وابن على الخطوة أختها، حتى تصل بك من تلقاء نفسها ونفسك إلى نهاية طريقها، سواء تمثلت النهاية في إتمام منتج معين أو الفراغ من مادة، أو في ترك الهدف والطموح بالكلية بعد أن اتضح لك عدم صلاحك له أو صلاحه لك.

هذا الاتضح في حد ذاته إنجاز!



• تمهّل واتنّد

لفظة الإنجاز من الألفاظ الثقيلة على المسامع بسبب الدلالة «الإدمانية» التي حمّلتها بها مستوردات التنمية البشرية ومنهجيات استغلال الأوقات، فالعبرة بحشد الكم على الكيف، أو الدلالة «المزاجية» التي حمّلتها بها مستوردات تالية رأت أن جوهر الإنجاز يعني التراخي في الكيف حتى يتمدد الكم الصغير سنوات مديدة!

والوسط بين هذين التّؤدّة أي التمهل والتأني، فبدل أن تُضطر لعودة أدراجك للوراء لأن إحدى المراحل لم تتمّ بإتقان، سرّ متمهلاً من البداية، بغير تكاسل أو استعجال.



وفي سنن الترمذي: «السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتَّؤدَّةُ وَالْإِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ».



إن الرحلة المقطوعة للوصول لهدف ما هي جزء لا يتجزأ من «عملية الإنجاز»، إذ حتى لو لم تبلغ الهدف على ما كنت ترجو وتخيّل، ستكون كل خطوة في الطريق مثمرة بذاتها لأنها علمتك شيئاً وأكسبتك خبرة، ذلك إذا كنت منتبهاً ويقظاً كفاية لذلك.



• الانقطاع للعمل وقت عمله

الانقطاع يعني أن الوقت الذي ستقتطعه لأي عمل عامة، مهما صغر أو قل، ينبغي أن يكون خالصًا له ليس فيه أي شواغل أخرى، من رد هاتف أو متابعة رسائل وخلافها من أكالات الوقت وجودة الأداء. لذلك اجتهد حين تحدد أوقات فراغك أن تفرغ فيها حقًا. ومن يستهين بنفع عشر دقائق أو يستصغر ساعة يوميًا، ما ذلك إلا لأنه لم يجرب هذا المفهوم، وإلا لانقلب الميزان تمامًا. مكتبة سُر مَن قرأ

جرب أن تقرأ صفحة من كتاب وأنت تعبث بمختلف الشواغل بين كل سطر والذي يليه، أو تنقطع لإتمام الصفحة دون أية مشغلة أخرى، وقارن الوقت المستغرق لنفس العمل ونفس الكم!



الانقطاع باختصار يعني أحسن استثمار لما هو متاح بالفعل من أوقاتك، وهذا الذي يجعلك تشعر ببركة الوقت ونمائه. أما أن تكون بين بين فأنت تهدر وقتك وتشتت جهدك وتجنّي على وقتك المشغول والمتاح معًا!



• ركائز العزيمة وتكثير بركة الأوقات

هناك ركائز لا بد أن يداوم عليها كل مسلم. وهي ركائز بديهية لدرجة أنه من بدهتها هي أكثر ما يُستهان به أو يُغفل عنه أو يُفَرِّط فيه عندما يضيق بنا الوقت. وبسبب التخاذل في هذه الركائز بطبيعة الحال نجد أننا نعيش في ضعف دائم للعزيمة، فطالما أنك لا تعطيها وقودها، من أين ستتقَد فيك؟ وهكذا ينفرط العمر من بين أيدينا ونحن ننتظر أنه يومًا ما تقوم في العزيمة، يومًا ما ستتقَد فيَّ الهمة، هذا لا يكون.

١) الركيزة الأولى: ذكر الله تعالى

تأمل في قول الله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فذكر الله تبارك وتعالى أكبر من كل شيء، مهما كان حالك من التفريط والضياع والمعاصي، سواء كانت محقرات الذنوب أو - والعياذ بالله - كبائر، لا شيء يكبر على ذكر الله تبارك وتعالى، ولا حال سيعظم على ذكر الله تبارك وتعالى.



مهما يكن حالك اذكر الله تبارك وتعالى على حالك.



ذكر الله تعالى هو منبه النعسان الغافل في الحياة الذي يشعر أنه غير منضبط في الحياة. وهو حافظ اليقظان فيجدد له



همّته ويحفظه من تكالّب الذنوب عليه، وما منا إلا وهو واقع في صغائر الذنوب أو اللّم. المشكلة كما في الحديث: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ»^(١). نظرة من هنا على سماع من هنا على كلمة من هنا على سوء أدب من هنا مع الوالدين، على ظلم من هنا. أحياناً ننتبه وأحياناً لا ننتبه، المهم أنه لا يخلو أحد فينا من اللّم.

المشكلة في تكالّب وتجمع هذا عليك حتى يهلكك، يسبب لك الهمود ويسبب لك تثبيط العزيمة وتثبيط دافع الحياة نفسها. لا أقول الدافع في الحياة، وإنما الدافع للحياة. ذكر الله تبارك وتعالى والمحافظة عليه تقيك من الوصول إلى هذا الدّرك، وإذا - والعياذ بالله - كنت وصلت إليه نفسياً، فهي مفتاحك للخروج منه.

”

«لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ. فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ اللَّهُ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ». [ابن عطاء السّكندريّ - «الحِكم العطائية»]

“

(١) مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه -



• رسم تلخيصي: أنواع الذكر



(٢) الركيزة الثانية: العهد

وهو صلاة الفريضة.

لماذا أسميتها العهد؟ من قول المصطفى ﷺ لما كان يتكلم عن المنافقين: «إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١). يعني الذي يُبقي بيننا وبين المنافقين سِلماً ويظهرهم من أهل الإسلام هو الصلاة، طالما أقاموا هذه الشعيرة العظيمة وظهرت منهم، سنُعُدُّهم في أهل الإسلام ولا نحاربهم بوصفهم كفاراً.

(١) سنن النسائي: كتاب الصلاة - باب الحكم في تارك الصلاة - حديث رقم: ٤٦٣.



تأمل وصف المصطفى ﷺ للصلاة بأنها عهد، لا في هذا السياق فحسب، بل حتى في سياقك أنت أيها المسلم! الصلاة هي عهد بينك وبين الله تبارك وتعالى، عهد منك بأنك مسلم، وبأنك في كل مرة تصلي أنت تجدد إسلامك بتجديد وتكرار إعلانه؛ لأن الصلاة من أظهر شعائر الإسلام، ومسألة إظهار شعائر الله تبارك وتعالى وإعلانها مسألة ركينة في الدين، خصوصًا لمن يزعم أن الدين كله عبارة عن حجاب قلب وباطن! إظهار شعائر الله على بدنك، في حركاتك، فيما يظهر ويصدر منك، هذا مهم في إقامة دين الله ﷻ والتمكين له في الأرض، ومطلوب في الشرع.

”

والانقسام أو الفجوة التي تحصل بين إقامة الدين في الظاهر وإقامته في الباطن لها أسباب، لكن هذه كلها لا صلة لها ولا تُهَوَّن من قدر أحدهما، لكل منهما قدره في الشرع، فلا بد أن تنزله منزلته.

“

ثم في الحديث المعلوم: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا»^(١).

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها - باب تحت كل شعرة جنازة - حديث رقم: ٥٩٨.



”

تأمل كم الكفارات المكفولة لك ما كتب الله لك حياة،
فضلاً عما يكفره الوضوء والصيام والاستغفار والتوبة
وغيرهم! أنى يقنط مسلم بعدها من رحمة الله تعالى وقد
حَفَّه بكل هذه الحفاوة؟!

“

فإذا دخلنا على الصلاة بوصفها ركيزة من ركائز العزيمة،
سنجد فيها هذه المراحل:

❖ المرحلة الأولى: التهيئة

الاستجابة لنداء الله تبارك وتعالى لك. مع كل أذان تستحضر
أن الله تبارك وتعالى يناديك أنت لتقوم له. ويبدأ الأذان بـ «الله
أكبر»، بمعنى أكبر من كل ما تفعل وأكبر من كل ما يشغلك،
فالآن وقت ترك كل مشاغل الدنيا والقيام لأمر الله تبارك وتعالى.

وكلنا يفترض أنه يعلم أننا مأمورون بالصلاة على وقتها،
بمجرد ما أذن بالصلاة تنهض، طالما ليس هناك مانع شرعي. لكن
انظر كيف أنك تعلم هذا، ثم لا تطبقه! لماذا؟ لأنك تنتظر أن
تحس بمعاني، لن يهبط عليك الإحساس، تحرك أنت لُتحس، وإلا
كيف يُحس الميت؟ كيف يُحس من لا يتحرك؟ فبمجرد أن يؤذن
المؤذن إذ نهضت فوراً تتطهر وتقوم بين يدي ربك تبارك وتعالى،



هذه الحركة في حد ذاتها فيها يقظة، فيها نَفْض للغفلة عن نفسك. لكن عندما تؤخر الصلاة بغير عذر ولا مانع حقيقي طالما «وقتها مفتوح»، من أعطاك هذا الحق للتأخير؟ لا يحق لك طالما ليس هنالك مانع شرعي، لا يحق لك أن تؤخر الاستجابة لأمر ربك.

”

وهذا مثال آخر على نزعة الآلهة الصغيرة في داخلنا، وهي أهواؤنا التي تشرع لنا تشريعات صغيرة مع تشريع الله تبارك وتعالى، ثم نقول عجباً، لماذا لا أشعر بأثر الدين في حياتي؟ هذا السؤال أسأله فعلاً لنفسك، لكن لا تُهمة للدين، وإنما تهمة لتدنيك أنت!

“

ونعلم كلنا كذلك علماً تقريرياً مسألة التردد مع المؤذن، والدعاء للمصطفى ﷺ بالوسيلة والدرجة الرفيعة. فطبّق هذا العلم مباشرة.

✧ المرحلة الثانية: التطهر

كم من مسلم يتوضأ بغير أن يذكر نفسه بكرامات الوضوء وفضله! فالوضوء في نفسه عبادة، وليس كأى اغتسال والسلام. إذ هدفه التطهر على الوجه المطلوب للوقوف في حضرة المولى جل وعلا. فكيف يكون وضوء تستحضر فيه أنه مع كل قطرة تخرج الخطايا، هذا بخلاف أن الصلاة نفسها مُكفّرة هي الأخرى! يعني

تخيل أنت خرجت من الوضوء وقد كُفرت وخرجت عنك خطاياك التي نظرت إليها، التي لمستها، التي قلتها بلسانك، التي مشيت إليها.. ثم ستأتي الصلاة كذلك وتزيدك تكفيرًا! الله أكبر!

”

تأمل كم الصفاء والتصفية التي تُوفّرها وتُيسّرها وتضعها العبادات الكريمة والجليلة بين يديك، وأنت عنها غافل بل وتدهسها بعدم التصديق والعياذ بالله تعالى.

“

✧ المرحلة الثالثة: القيام بين يدي الله تعالى

وهذه يطول الكلام فيها وله مواضعه وافيًا، منها كتاب «ذوق الصلاة عند ابن القيم».

وإنما اللفتة هنا أن الخشوع في الصلاة واستشعار جلال وجمال معنى القيام بين يدي الله تعالى وفي حضرته، يبدأ أول ما يبدأ من التنبيه لنداء الصلاة، الذي يُذكر العبد أن «الله أكبر» من كل ما يشغله في ذلك الآن، الله أكبر من كل عمل، ومن كل كلام، ومن كل همّ وكل اهتمام.. الله تعالى أكبر مما تخاف وتحذر، الله تعالى أكبر مما ترجو وتأمل.. الله تعالى أكبر وأعلى وأجلّ. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَيْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وهكذا ينتبه العبد ويتجدد في نفسه المعنى بما يردد وراء المؤذن.



ثم يكون الوضوء على النحو الموضح أعلاه. هذه بوابة الدخول على جناب الله تبارك وتعالى، لا يخيب من وَلَجها في كل عبادة.

”

مما ينبغي أن يعزم عليه كل فرد مسلم، ويتفق عليه أهل كل بيت مسلم، وحضور كل مجموعة مسلمة، أن يُوقفوا أيّ شاغل يشغلهم فور سماع الأذان، ما أمكن. لا من باب اتباع سنّة التردد وراء المؤذن فحسب، بل توقيرًا لذكر الله تعالى وندائه للعباد، وتصديقًا لما آمَنَ به كل مسلم بالله تعالى أن «الله أكبر». هذه النفسيّة ستدفع صاحبها دفعًا لسرعة إجابة نداء ربّه تبارك وتعالى، طالما لا يمنعه عذر قاهر، وتصونه من عبث التلّهي بعد الأذان لحين إجابته نداء الصلاة «على راحته»!

“

٣) الركيزة الثالثة: سنة الهادي ﷺ

من ركائز العزيمة أن يكون لك نصيب من اتباع سنة المصطفى ﷺ في مختلف أحوالك، تأسّيًا (اقتداءً) وتبرّكًا ونفصًا للغفلة عن نفسك، وتكون زيادة لك في المثوبة إذا عرفها عنك غيرك فتكون سببًا في إحيائها ونشرها.

ويمكن تقسيمها إلى ٣ أنواع عمليًا، يُطلب العلم بكل منها في مراجعه:

- صلاة السنن:

تخيّر من السنن ما تشاء الالتزام به، ثم إذا تخيّر منها فالتزمها ما استطعت. أو نوّع بينها. المهم ألا تترك.

حتى وقتما تكون متعباً أو لا تقدر، لا تترك السنة، على الأقل صلّها جالساً. فبخلاف الفريضة، يمكن للسنن أن تُصلى وأنت جالس، ولو لم يكن عندك العذر الشرعي الذي يبيح الجلوس في الفريضة، لمجرد أنك متعب أو «مكسّل» بكل بساطة، صلّها جالساً، على الأقل أخذت نصف الأجر، وعلمت نفسك عدم الترك!

”

اجعل ديدنك ألا تستسهل الترك للصالحات والخيرات، ولو بدعوى خوف الرياء! بل ناضل وقاوم وجاهد بما يسمعك من طرق ودرجات، فأنت إنما تجاهد من نفسك لنفسك: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

“

- السنن القولية:

مثل التكبير عند السرور والتسبيح عند التعجب أو الاستنكار، والتبسم، وكثرة الاستغفار....

- السنن السلوكية:

المتعلقة بأفعال وآداب أحوال، مثل التَّنَفُّس عند الشُّرب خارج الإناء ثلاثاً، ومسح أثر النوم عن الوجه عند الاستيقاظ، ولعق الأصابع قبل غسلها، واستحباب المضمضة بعد شرب اللبن ونحوه.

وسنن الصلاة تجمع - بطبيعة الحال - القولية والفعلية.

(٣) الركيزة الرابعة: ميراث الأنبياء

وهو طلب العلم بالله تعالى وشرعه، على ما سبق بيانه ^(١).

• رسم تلخيصي: ركائز العزيمة



(١) لمزيد تفصيل يُراجع كتابي «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة»، وقائمة «علوم الاضطرار لكل مسلم ينبغي استقامة إسلامه» المنشورة على مدوّنتي (هدديّات).

خلاصات

✧ أردأ الحياة أن تعيش منتظرًا تحسن الحال وتغير الظروف. فإن ما يمضي من حاضرك لا يعود، ولا يبقى لك بعدها إلا ندم التفریط.

✧ المستقبل آت على كل حال، سواء اشتغلت بترقبه في بطالة، أو العمل لحينه.

✧ أجود الحياة أن تعيش الحال القائم بأحسن ما يمكنك في حينه، وتسأل الله تعالى القبول والسلامة.

✧ يا خُسران من ينساب العمر من بين أصابعه وهو بين: تحسّر على خير فاتٍ وتمنّي خير آتٍ، ويده صفر من كلّ خير حقيقي!

✧ اقطع أملك في أي طريق آخر للصالح، واتخذ الصبر صاحبك ورفيقك حتى آخر أنفاسك

✧ علق رجاءك وتطلعك بالله وحده مطلقا، ولا ترج من مخلوق شيئا

✧ كلما عرفت أمرا الزمه ما استطعت، وابدأ بالأمر الصغيرة قبل الكبيرة، فتلك الصغائر هي تمحيص الصادقين

✧ وكل أمر تلزمه اجتهد أن تبلغ فيه أحسنه، فإذا كنت مصلّيًا فليكن أول الوقت، وإذا كنت متصدقًا فليكن بخير ما تستطيع، وهكذا.



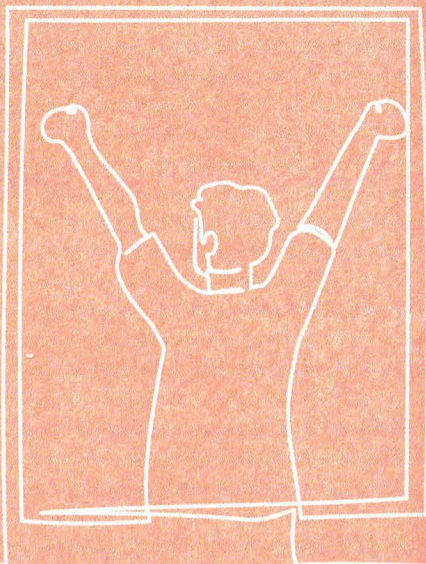
❖ ودع عنك هواجس المستقبل والقلق على ما تصل إليه
ويصل إليك، فإن ربًّا كفاك بالأمس ما كان يكفيك في
غد ما يكون.

❖ أقبل على حاضرك واشغل نفسك بيومك، الآن فقط هو
كل تملك، وهو ما قد به يختم لك، وعليه تبعث.

”

لم تعطني يا رب ما أشتهي كما أشتهيه، وجعلت حظي من
آمالي الواسعة كالمصباح في مطلعته من النجوم التي لا عدد
لها. ولكن سبحانك اللهم! لك الحمد بقدر ما لم تعط
وما أعطيت. لك الحمد أن هديتني إلى الحكمة، وجعلتني
أرى أن نور المصباح الضئيل الذي يضيء جوانب بيتي هو
أكثر نورًا في داخل البيت من كل النجوم التي تُرى على
السطح وإن ملأت الفضاء! سبحانك اللهم! إن هذا الشجر
ليتجرّد ويذوي ثم لا يمنع ذلك أن يكون حيًّا يتماسك
ويشبّ، وإنه ليخضر ويورق ثم لا يعصمه ذلك أن يعود إلى
تجرّده ويَبَسّه؛ فما السعادة أن نجد الزينة الطارئة ولا الشقاء
أن نفقدها، وما الشجرة إلا حكمة منك لعبادك تعلمهم أن
الحياة والسعادة والقوة ليست على الأرض إلا في شيء واحد:
هو نضرة القلب! [مصطفى صادق الرافعي، «أوراق الورد»].

“



الفصل الخامس

ها أنا ذا

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاکْتَسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فَلَيْسَ يُغْنِي الْحَسِيْبُ نِسْبَتَهُ بِلَا لِسَانٍ لَهُ وَلَا أَدَبٍ
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي ^(١)

(١) أبيات منسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.



• خصائص العظماء بين المسؤولية والنجومية

ترى، ما سر الفجوة المتنامية بين أحلام العظمة المزدهرة في الخيال، وصحراء الأفعال الجرداء في الواقع؟! والأعجب أن اكتساح الساحة بموجات الخطابات التحفيزية في العظمة والأثر والتفوق والشغف، وتلوين أحلام الشباب بذلك الهيلمان، يتناسب طرديًا مع الازدياد المذهل لأعداد المُرتَمين على الآرائك أمام التلفاز، أو المُستَلقين في الأسرّة تحت اللحاف، أو الجالسين في المحافل يهزون رؤوسهم استحسانًا للمتحدثين عن أهمية العظمة وضرورة الطموح للعظمة ولزومية العملاق الكامن في كلّ إنسان بالفطرة!

والحق أنك عندما تطالع سير «العظماء» تجد خصائص عامة مواكبة لتلك العظمة. لكن ينبغي الوضع في الاعتبار أن عدّاد الجماهيرية أو سعة نطاق الجماهيرية ليست هي مقياس العظمة. فليست كلّ شخصية جماهيرية تستحق جماهيريتها وانكفاء الناس على متابعتها، بل فهناك من يُكسَوْن حلل العظمة وهم منها خوّاء، ببساطة لأنّ الذين ألبسوهم إياها جماعة من الحمقى! والكثرة تغلب الشجاعة، وقد تغلب الحكمة والعقل كذلك! ولا تجد أهل العلم والتقوى إلا يقدّرون للكلمة قدرها وحسابها، ومع ذلك قد لا تبلغ عدّادات متابعيهم عُشر ما عند فلان وفلان



من مشاهير الشباب البرّاقين، الذين حَظَّ أحدهم من الفهم (على فرض وجوده!) في حجم البُنْدُقة، ومع ذلك يقذف بالكلام على عواهنه كالصواريخ!

فما هي الخصائص التي تميّز العظماء حقيقة؟

- بداية، لم يتّخذوا العظمة بذاتها مقصدًا أو غاية يسعون إليها، ولا شغلتهُم التطلعات للنجومية الجماهيرية بذاتها.

- وإنما كانوا أشخاصًا ذوي وعي بدواخلهم، ووضوح مع أنفسهم، واشتغال عمليّ بواجباتهم. وقام في نفس كلّ منهم شعور قويّ بالمسؤولية الشخصية عن وجوده الفردي، بغضّ النظر عن عدّاد المثبطين أو المُهلّلين حولهم؛ بل لم يكن ذلك العدّاد قد اخترع بعد!

- فَمَن كان منهم مؤمنًا بالله تعالى، سعى سعيه قائمًا بمسؤولية ذلك الإيمان، من باب التعبد لله وأداء أمانة التكليف حيث جعله خالقه، مبتغيًا بذلك وجه ربه ورضاه. ومن كان كافرًا بالله تعالى، سعى سعيه مدفوعًا بوقود داخلي، مبعثه كذلك نوع إيمان شخصي بقضية أو قضايا.

- ثم لزموا عُدَّةً من الصفات التي تفرّق العظماء الحقيقيين عن الزائفين: الصبر، الدأب، المثابرة، الجِدّة، الانضباط الذاتي، الثبات ولو منفردًا، الرجوع بعد الحيود، النهوض بعد التعثر... إلخ.

- ولم يكونوا يشترطون ضمانات مُسبقة قبل اتخاذ قرار أو إقدام على خطوة، ولا تأييدًا حافلًا لاختياراتهم الحياتية، ولا مكافأة فورية لتضحياتهم، أو تخليدًا من الناس لذكراهم. بل إنّ كثيرًا منهم عانى من انصراف الناس عنه وانتقادهم له في حياته، وربما حينًا بعد مماته.

- وكانوا يخوضون مخاضات الحياة بعزم، متحمّلين مسؤولية أنفسهم وقراراتهم، ومُصرّين على الحق الذي تبين لهم، من حيث هو حق، ومن حيث هو متبين لهم. وموقنين بتحقيق ثمرته في حينها هي، ولو لم يشهدوها في حينهم هم.

- وكانت الحياة بالنسبة لهم رحلة متصلة من السهولة والوعورة، والانبساط والانحدار، والعزمات والكبوات؛ لا محطات متقطعة من الإنجازات المتبلبلّة، بين الحماسة المؤقتة والتملّل السريع.

- وفي حين اتخذ سلف العظماء أنفاسهم وأعمارهم مَطِيّة لخدمة الحق الذي استبانوه وآمنوا به، سخر عظماء اليوم الحقوق والقضايا مطايا لخدمة مصالحهم الخاصة، وأطماعهم الشخصية، وتطلعاتهم النفسية للإبهار والاشتهار!

- إنّ مُجرّد اتّخام النفس بأحلام العظمة لا يبعث على العظمة ولا يصنع عظيمًا، بل هو محض أوهام يقظة، نابعة من مزيج فراغ في النفس وغرور بها.

- أما الممتلئ بمعدن العظمة الحقّ فحياته ترجمة «تلقائية» لها.



”

هذا وليس كلَّ حيٍّ يُولد عظيمًا في ميزان الناس، لكنَّ كلَّ جادٍّ في تحمُّلِ مسؤولِية حياته عظيم في ميزان رب الناس. وإذا كان كلام أولئك العظماء حياة، فعظماء اليوم حياتهم الكلام!

“

• من يعمل يره

كثيرًا ما تُستحضر قصص الأعلام والناجحين في إطار عدم الاستسلام لبرائن اليأس عند الفشل، لأنه ما من ليل وإن طال إلا ويَعْقُبُه نهار، ومن لم يفشل فلم يَذُقْ حقيقة طعم النجاح، والفشل ليس نهاية العالم، وإنما بداية طريق مُتَوَجِّجٍ بِأَكَالِيلِ الغار... إلخ.

إلا أنَّ هنالك إطارًا آخر لتلك الصور، فالنجاح الذي حققه أولئك - والنجاح بشكل عام - ليس المحصلة «الطبيعية» للفشل ولا صاحب الملازم للإخفاق، وإلا فالعالم مَلِيءٌ بالفاشلين المقيمين على فشلهم! وستجد في مختلف السير والتراجم عناصر لازمة على تغيُّر الظروف والأشخاص والأمكنة، وهي: الهمة الوَقَّادة، والحافز الداخلي، والعزم الأكيد، والعمل الدؤوب، والصبر الجميل.

أولئك قد نشؤوا على أن المسؤولية مبدأ وليست خيارًا، وأن التفوق طبع وليس رفاهية.



أولئك الذين نأوا بأنفسهم عن لعبة تقاذف المسؤولية وتبادل الملامة والاستمتاع بدور الضحية، وأخذوا زمام حياتهم بقوة وأنفسهم بعزم، لا يرجون من أحد شكورًا ولا ينتظرون من خارج تحفيزًا. أولئك قد فقهوا مغزى الحياة وامتحانها، فأدركوا أن المسؤولية الفردية حتمية، كلٌّ بحسب طاقته، وكلٌّ مجزي بعمله.

من هؤلاء - مثلاً - الإمام بقّي بن مُخلد الأندلسي رحمته الله، من أئمة علماء الأندلس ومحدثيهم. اشتهر بترحاله مشيًا على الأقدام في أرجاء العالم الإسلامي طلباً للعلم والحديث من رواه وأئتمته. فارتحل من موطنه في الأندلس إلى المغرب، ثم إلى بغداد، حتى بلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم حوالي ٢٨٤ شيخاً وعالمًا. وقد لفت حرصه على تتبع العلم والعلماء في أرجاء البلاد الأنظار إليه، حتى لقب بـ«المكنسة»، إشارة إلى من لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويوليها اهتمامه. وذكر في مناقبه أنه من «ملاّ الأندلس حديثاً».

ولتأكد أن الأمر ليس بالسن ولكن بالهمة والصدق والجدية، فالشيخ العز بن عبد السلام رحمته الله، لم يشغل بطلب العلم إلا على كبر في الأربعين، وفتح الله عليه فملاّ الأرض علماً وعزة نفس، وترك تراثاً علمياً ضخماً في علوم التفسير والحديث والسيرة والعقيدة والفقه وأصول الفقه وكتباً في الزهد، حتى لُقّب بسلطان العلماء، وهو لم يبدأ إلا في الأربعين، فتأمل! والإمام النووي رحمته الله، توفي وهو في الخامسة والأربعين من عمره، وترك



مع ذلك من المصنّفات ما كتب الله له أثرا لا ينقطع، يكفيك منها «رياض الصالحين»، و«الأذكار»، و«الأربعون النووية»، وغيرها كثير.

ودونك مثلاً حديثاً، الدكتور «عبد الرحمن السميّط» رحمته الله؛ كان رئيس مجلس إدارة جمعية «لجنة مسلمي إفريقيا»، ويلقب في إفريقيا بـ «خادم الأيتام». حمّل همّ الإصلاح وتنقل في أسفار استمرت لأكثر من ٢٥ عاما قضاها في الدعوة إلى دين الله وتقديم المساعدات لأبناء القبائل الإفريقية، مصطحباً معه زوجته وأطفاله، تاركاً وراءه الحياة الرغيدة والعيش المرفه في الكويت، وهو الأستاذ الجامعي الحائز على زمالات ودرجات علمية من جامعات عربية وأجنبية. أسلم على يديه أكثر من سبعة ملايين شخص في قارة إفريقية فقط، وأصبحت جمعية «العون المباشر» التي أسسها هناك أكبر منظمة عالمية في إفريقية كلها، يدرس في منشآتها التعليمية أكثر من نصف مليون طالب، وتمتلك أكثر من أربع جامعات، وعدداً كبيراً من الإذاعات والمطبوعات، وقامت بحفر وتأسيس أكثر من (٨٦٠٠) بئر، وإعداد وتدريب أكثر من (٤٠٠٠) داعية ومعلم ومفكر خلال هذه الفترة.

المسؤولية الفردية والعزيمة على الرّشد والحافز الداخلي، هذه جذور الشجرة التي لا بد ستؤتي ثمارها مهما طال الزمان، ويكتب الله لمناقبها الخلود بأصل ثابت وفرع من بعد في السماء. وقد وعد الله تعالى بأن: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].



قارن هذا بمن ينفق إجازته الأسبوعية نائمًا في السرير، أو مفترشًا الكنبه أمام التلفاز، بضع ساعات هنا، وبضع هناك، وينتهى يوم بكامله، ثم عدة أيام، ثم في المحصلة عمر بكامله! والأخطر أن يألف المرء الخمول والكسل، فيستنفد ذلك نشاطه العقلي، وقدرته حتى على الطموح والأحلام. لكنه في المقابل، لو أنفق بضع ساعات كل أسبوع في تعلم مهارة، أو اكتساب علم، أو احتراف هواية نافعة، لكان قطع شوطًا ما في شيء ما، والخطوة تدل على أختها.

”

كلنا نحلم لكن أفرادًا معدودين يحققون شيئًا يذكر، ويفسح لهم التاريخ أعز مكان في كتاب الخلود. أولئك الذين تحملوا المسؤولية وصارت لهم عادة. فلا يحسنون غير الإتيان، ولا يتقنون غير الإحسان.

“

إننا لا نفتأ نشتكى من هذا وذاك، ونلقي تهم الإفساد ذات اليمين وذات الشمال على كل أحد، إلا على أنفسنا. والحق أن كل من ألزم أمانة ثم لم يؤدها بأحسن ما يستطيع هو مفسد، وإن اختلفت صور الإفساد. فنحن نفسد على المستوى الفردي: حين تنام عن الصلاة، وتهمل دراستك، وتسيء لوالديك، وتهدر عقلك ووقتك في ألعاب الفيسبوك، ثم ترضى بدرجة «مقبول»



وأنت قادر على الامتياز، وقد آتاك الله عقلاً، وحواساً، ونِعَمًا
سابعة. أترى حينها أنك من المصلحين؟

إن من يعمل اليوم لا بد أن يحصد غداً، مهما طال ذلك الغد
فهو لا ريب آتٍ. ومن لا يعمل، فلا ينتظر أن تمطر السماء ذهباً
أو فضة..

لأن السماء لا تمطر ذهباً..

ولا فضة..

ولا تغييراً..

ولا إصلاحاً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ويظل القانون الخالد: من يعمل يره. ومن لا يعمل
فلا يلومن إلا نفسه.

“

• لماذا لا تغيرني قراءة كتب التغيير ومطالعة قصص
الناجحين؟

هذا السؤال الذي يطيب سؤاله في الختام، بعد أن تكون
مطالعة هذه الورقات قد أثارت في نفسك شيئاً، لكنه يتذبذب
أمام هذا التخوف: ماذا لو ظللت على حالي بعد القراءة كما لو
أنني لم أقرأ؟ ما جدوى المعرفة إذا لم تغيرني؟ لماذا لم تغيرني



ما سمعت وما طالعت وما شاهدت؟.. وهكذا نلقي بالملامة دائماً على جهة خارجية، أو حتى نكتفي بالسخط على أنفسنا لهمودها، ثم لا نزيد فلا نُفيد من كل هذه الدوامة شيئاً بناءً!

والقاعدة التي بغيرها لا يكون تغيير هو أنك أنت مالك زمام نفسك، وليس لشيء أن يغيرك إلا أن «تقتنع» أنت «تعمل» أنت به. فالمؤثرات الخارجية - كتباً وخلافها - دورها:

١. أن تعرض عليك منطقاً؛

٢. وتدعوك بناء عليه لإجراء (قولاً أو فعلاً أو شعوراً أو فكرًا).

هذان العاملان هما معيار الحكم على المؤثرات الخارجية من حيث قدرتها على التأثير. وحدك تملك قرار الاستجابة بحسب ما اقتنعت.

فما العوامل الداخلية التي تظل حاجزا أمام التغيير حتى بعد الاقتناع بجدواه؟

١. الحاجة أم الحركة

بعد الاقتناع العقلي ستقر بصحة هذا الفعل أو ذاك، لكنه إقرار كإقرارك بأهمية اللبن وعزوفك عن شرب كوب كل صباح مثلاً.

لماذا؟

لأنك لم تستشعر «الحاجة»، أي حاجتك أنت شخصياً.



”

هنالك فرق بين الاقتناع بأهمية أمر أو صحته، وهذا المدخل العقلي؛ واستشعار حاجة المرء إليه، وهذا المدخل الوجداني، أي الشعور الذي تجده قام في نفسك، ويظل قيامه فيها مقلقًا دافعًا لك للحركة حتى يستقر ويسكن ويهمد.

“

فأنت لا تأكل مثلاً لأن «الطعام مفيد لجسم الإنسان» كما تعلّمنا كتب العلوم، بل لأنك حين تجوع لا تملك إلا أن تستجيب لتلك الحاجة.

ولنقل - مثلاً ثانياً - إنك قرأت عن مهارات التواصل الفعال، أو كيف تحسن أخلاقك؛ لن تستطيع أن تفيد حقًا بما قرأت إلا أن تكون مستشعرًا لحاجتك لتحسين تواصلك مع الناس، فتكون كالمريض الباحث عن دواء ومستعد لتجربة كل ما يقدم له مما اقتنع به، حتى ينفعه أحدها.

أما أن تقرأ أو تتصفح لمجرد أن الموضوع مهم أو الأمر ممتع أو القصص تحفيزية، فسينتهي بك المطاف في فورة مؤقتة لا تلبث أن تزول، فتكون صفات الحلم والصبر وطيب الكلام وكظم الغيظ وخفض الصوت.. إلخ، مجرد عوارض طارئة في شخصيتك، لا أخلاقًا تخلقت بها، أي تفاعلت وتفعّلت وجاهدت وتكلّفت، حتى صارت لك طبعًا.



لإحداث تغيير حقيقي باقٍ لا بد من معرفة دوافعك لفعل ما تفعل، أو لترك ما تفعل، لأن أي عادة تلبي فيك حاجة ستظل قابلة للاستمرار؛ فإما أن تستغني عن تلك الحاجة أو تهتم بتلبيتها بطرق أفضل، وبالتالي لا تكون عملية التغيير معاداة لحاجتك وحرَبًا على قناعاتك، بل تواصلًا معها بطرق أخرى. بغير ذلك تكون كمن يُعطى دواء وهو لا يعرف مرضه، وبالتالي لن يحرص على التزام العلاج ولن يجد في نفسه الدافع للمثابرة عليه.

”

«يا أخي! إن الجائع يحب الخبز، وإن العطشان يحب الماء. ولو جُعِلَ الخبز والماء بين أيديهما على مائدة أو عُلِّقا في أعناقهما، ما نفعهما علمهما بأنّ الخبز والماء معهما، ولا ينفعهما قربهما منهما دون أن يأكلا من الطعام ويشربا من الشراب! وهكذا أنت! لا ينفعك علمك بالخير ولا قُربه منك ولا حبّك له حتى يكون فيك وتكون من أهله، وإلا تكون مخدوعًا أو مخادعًا في دعواك أنك تحبه! يا أخي، هل رأيت عطشان استمكن من الماء البارد فلم يشربه إلا مُدّعٍ للعطش ليس بعطشان؟! أو هل رأيت جوعان وجد طعامًا قد أمكنه فلم يأكله إلا مُدّعٍ للجوع ليس بجوعان?!»

[المحاسبى - «آداب النفوس»]

“



٢. السياق المتكامل

ما تنفعك القراءة عن الوقت وتنظيمه ولا رؤية لديك لأهداف نافعة تريد تحقيقها؟ وما تنفعك اللباقة مع الناس وأنت لا تعامل أهلِكَ بالحسنى؟ وما تغني عنكَ مهارات العرض والتقديم بغير قلب حي يعايش ما يتكلم به اللسان، فيحول المبادئ والأفكار من عرائس شمع إلى روح تدب فيها الحياة؟

السياق المتكامل يعني أن ترتب أولوياتك. كتب التغيير تنبهك دائماً إلى ترتيب أهدافك لأولويات، لكن الحق أن أولوياتك نفسها بحاجة لترتيب أخص وأهم، وإلا ستشعر بالانفصام بين الوجوه العديدة التي تظهر بها، والأقنعة التي ترتديها لكل حال. فهل تبحث عن قناع ترتديه لموقف واحد، أم طبع تسعى للتخلق والتطبع به دومًا؟

ومن قلة فقه الأولويات أن يغرق المرء قائمة أهدافه بتغيير العالم والتأثير في الناس.. إلخ، وهو غير قادر على تغيير يومه هو وتنظيم أوقاته - يكفي الانجرار وراء التقلب العابث في المرئيات والمسموعات!



حذار من تغيير يكون مجرد تلميع براق لمعدن في أصله صدئًا، بل ابدأ بالأولى فالأولى، فليس كل ما يلمع ذهبًا، لكن كل ذهب لا بد أن يلمع.





٣. الصبر والمثابرة

رحلة المرء مع ذاته تهذيبًا وتقويماً وإنماءً لا أقول من أطول رحلات حياته، بل هي رحلة حياته ذاتها. فمن الوهم استعجال كل شيء في ذات الوقت وتمني الوصول إلى «قمة» التغيير التي ليس وراءها مزيد!

فلا غنى والحال كذلك عن نَفْسٍ طويل متأن، متقبل لحقيقة أنه في كل يوم، بل مع كل نَفْسٍ، هنالك دائماً شيء أحسن يمكن تعلمه، وقيمة مضافة أتخلق بها. فلا بد من الصبر بيقين أن الله لا يضيع أجر عامل، وأنه مهما بدا لك أن المنال عسير، فإنك بتوفيق الله تعالى وعونه لا بد ستحصله ما دمت تجتهد وتستعين بالله تعالى. والمثابرة هي الجِد والاستمرار في الفعل حتى يصير عادة. فالصبر لا يعني بحال القعود عن العمل، وكذلك لا تجدي طريقة الأرنب الذي قطع نصف السباق عدوًا ونام في النصف الثاني! لكن كما علمنا رسول الله ﷺ: «إِنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالُ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(١)، فحفظ بضع آيات يومياً مع فهمهما والعمل بها، خير من إجهادها بسور طويلة تتلوها كقائمة أخبار.

تجنب تماماً أن تعيش «مشحونًا»، لأنك ستكون بالضبط كمن يأكل وجبات ٣ أيام في وجبة واحدة، ظناً منه أن ذلك سيوفر عليه تلك؛ لكن الحاصل أنه يؤذي نفسه، ولا يتففع «بالحشو» الزائد شيئاً.

(١) صحيح البخاري | كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل (حديث



”

إننا نستعجل «الوصول» إلى شيء ما لا نتوقف حتى لنسائل أنفسنا ما هو، في حين أن ما نحن مطالبون به حقيقة هو أن «نحيا» لا أن «نصل»، أن نحيا بما نؤمن به ونجتهد أن نثبت عليه، وفي كل يوم إضافة جديدة «نحياها»، وليس «نكومها» على رف الانتظار.

“

إن العيش بطريقة الشحن للوصول، تعني أنك ستعيش حياتك منتظرًا أن تحيا، ولا تكاد تبدأ في رفع الستار حتى يأتيك الختام!

• هل أنا من سيعدل المائل؟

من أكثر ما سمعت تعقيبًا في معرض كلامي عن مسؤولية الفرد المسلم في الإصلاح الفردي والإصلاح الأممي على السواء، قول القائل:

- أنا من سيعدل المائل؟

والرد عليها:

- المطلوب ألا تكون أنت مائلًا! المطلوب منك عدل نفسك أنت، ثم من يليك ممن تتحمل مسؤوليتهم في دائرتك أنت.



”

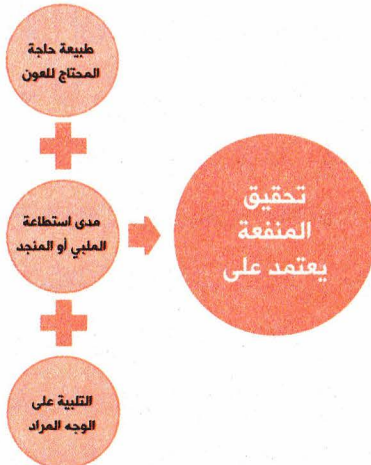
هَلَّا قَمْنَا بِمَا عَلَيْنَا أَوَّلًا حَقَّ الْقِيَامِ، فَرَادَى وَجَمَاعَاتٍ، ثُمَّ رَأَيْنَا
مَا يَصْنَعُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَا بَعْدَ أَنْ غَيَّرَنَا مَا بِأَنْفُسِنَا لِيُوَافِقَ مُرَادَهُ مِنَّا؟!

“

• ما عليك، وما عليك!

لنقل إن شخصًا مُعافى مرّ في مستشفى بمرضى طريح الفراش طلب منه شُرْبَةُ ماء، لكن المعافى عوضًا عن أن يجلبها له أخذته الشفقة بحاله والوجع البادي على محياه فجلس إلى جواره يبكي!

إذا نظرنا لذلك الموقف من منظور التعاطف، فلعل زوايا الفهم والتقدير تختلف، كأن يقال إن مشاطرة الحزن على الألم فيه نوع من الدعم العاطفي، وغير ذلك من فلسفات. لكن الجواب يكون أوضح إذا نظرنا من منظور المنفعة التي تحددها ٣ عوامل:





ثم سألنا: هل كان ذلك المعافى نافعا حقيقة للمريض في بلواه؟

سنجد أن ما كان يحتاجه المريض في تلك اللحظة من المعافى هو شربة ماء، وكان ذلك المعافى قادرا على إحضارها، لكنه عوضا عن تلبية حاجة المحتاج على الوجه الذي يحتاجه، انشغل بتلبية شعوره هو! وبناء عليه فتصرف المعافى غير محمود في جوهره، وإن تلبس ظاهرا بلباس شعور إنساني مرهف أو نبيل كالتعاطف والشفقة والتأثر وما شابه.

هذا أول ما يجب أن نفهمه عن مجموعة العواطف التي نصنفها إجمالا على أنها نبيلة، أي غيرية ومتجردة من حظ النفس. فالحق أنه لا شعور إنساني متجرد من حظ النفس، ولا يمكن تحقيق التجرد إلا بالتصور الإسلامي لمعنى الإخلاص لله تعالى، وهذا تحقيقه عزيز، وليس هو محل الكلام في هذا المقام.

وإنما المقصود هنا أننا يمكن أن نغرق أنفسنا في أحوال نفسية وشعورية غير نافعة لنا ولغيرنا وتعوقنا عن تحقيق النفع الذي يحتاجه الغير على الحقيقة، لكنها تتخذ مظاهر غيرية أو نبيلة فترفع عنا الشعور بالذنب أو التقصير أو حتى التفكير في القيام بإجراء ما. فأنا منشغل بالتعاطف بالدموع والحزن مع مرض المريض الذي لا أقدر على معافاته منه عوضا عن إمداده بطلب أقدر عليه، ومنشغل بالتفكير في الأيام التي سيزل فيها عطشا ينتظر من يمر ليسقيه كما فعلت أنا صدفة، ومنشغل بالغضب من



أهله المفرطين في حقه أو العالم الشرير المليء بالابتلاءات والأمراض أو التقدير الإلهي الذي يطرح مبتلاه في الفراش... إلخ. والإسلام يكرّم المسلم من بين الناس بالمعافاة من ذلك التلبك الفكري والنفسي، أو فض اشتباكه إذا وقع فيه.

كيف هذا؟

أولاً بالتمييز بين ما عليك، وما عليك! أي التمييز بين ما الذي تستطيعه فتقوم عليك مسؤولية القيام به (ما يقوم عليك)، وما ليس عليك أن تحمل همه مما ليس بيدك أصلاً التدخل فيه (فما عليك منه بأس)، كما فيمن يشعر بالذنب لكونه لا يعايش الابتلاء بنفسه مع المبتلين أو لكونه في سعة وهم في ضيق، فهذا الشعور موجّه للوجهة الخاطئة وإن كان في أصله طيباً. ذلك أنك لست مطالباً أن تعيش كالمبتلى لتكون مناصراً له، بل طالما عوفيت فأنت مطالب أن تعيش كالمعافى وتتصرف عن المعافى، بأن تكفّ عن التمارض والتعلل والتحجج بأعذار الخذلان والتخاذل، وتتعبّد بما آتاك الله تعالى على ما تستطيع.

وليس بدعاً أنك لا تجد مفهوم «التعاطف» ورد على هذه الشاكلة في مختلف أدبيات العربية والشريعة، بقدر ما تجدها Sympathy في مستوردات الثقافات الأجنبية خاصة التنمية البشرية ومهارات العلاقات. صحيح أن جذرها عربي، في مادة (ع ط ف)، ومعانيه تؤدي جزءاً من المعنى الذي تنطوي عليه اللفظة الأجنبية، إلا أنك تجد الذائع في معجم العربية والشرع، الغوث، والنجدة



والنُصرة، وشد الأزر، والتعاون، وهي كلها ألفاظ تحمل دلالة إجراء، أي عَطَفَ سلوكك على الشعور، لا الإغراق في المساحة الشعورية بذاتها على نحو ما يدلّ التعاطف وفق المفهوم المستورد. ومن معاني «العطف» في اللغة: الرجوع على شخص بما يكره أو الرجوع له بما يريد. فالمتعاطف الصادق يعطف على المعطوف عليه بما ينفعه حقيقة، ويُتبع شعوره بإجراء سلوكي. ولعل هذا سبب استمرار شيوع هذه اللفظة أجنبيًا حتى بعد إيضاح الفرق اللغوي بينها وبين Empathy التي تعني عطف إجراء على الشعور؛ فالاكْتفاء بمرحلة الاستشعار الوجداني يرفع عن صاحبه عقدة الذنب ويحفظ صورته الإنسانية العامة، ولا يكلفه شيئًا من جهده أو جيبه!

”

وإن البنية الإنسانية غير مهيئة لتتخذ الغم أو اللهو بذاتيهما عملاً، وبالتالي يضرُّ المُغْرِقُ فيهما نفسه من حيث يحسب أنه يُنْفَسُ عنها!

“

والأدهى أنه يصل بعد مرحلة للتبدّل الشعورى بحكم اعتياده اتخاذ الإغراق في الحالة الوجدانية عملاً. وإنما القصد من الغم والحزن ومختلف المواجهات أن تدفع صاحبها لإجراء وتشحذ همّته لنصرة المبتلى والتخفيف عنه، لا أن يتخذ الحالة بذاتها عملاً فتقّعه عن كل نفع لنفسه وغيره! وإن كل من تبكيهم قد



أَفْضُوا أَوْ سَيُفْضُونَ إِلَى مَا قَدَّمُوا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا مُحَالَةً، لَا يَغْنِي عَنْهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ إِلَّا مَا قَدَّمُوا هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، أَوْ يَقْدِمُهُ لَهُمُ الْأَوْفِيَاءُ مِنْ بَعْدِهِمْ حِسْبَةُ عَنْهُمْ.

ثم القاعدة الربانية التي لا تتخلف هي أن سعي كل امرئ سوف يُرى ويجازى يوم يُوقف أمام رب العالمين، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّنَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فليس عليك من حساب الناس من شيء؛ هذا بينهم وبين الله تعالى. وليس المقصود بذلك أن تشغل بمصالحك وتلبية أهوائك وتصم آذانك عن أحوال الأمة وتلبية نداء الغوث حيث أمكنك! وفي الحديث: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»^(١).

وإنما المقصود أن الله تعالى قد مَنَّ علينا بدين عظيم، أبواب الخير فيه مفتحة لكل الخلائق على قدر كل درجات الاستطاعة؛ فخذ بأحسن ما تستطيع وركّز جهدك فيه، بدل أن تنفقه في مجرد التحسّر وزفرات اللو والليت والويل والكيت!

ومن الأحاديث العمدية في الدلالة على سعة أبواب الخير البر والإحسان والنصرة، والتي لم تدع لمتحجّج عذراً في القعود والخذلان:

(١) البيهقي: كتاب السنن الكبرى - كتاب الضحايا - جماع أبواب ما لا يحل أكله وما يجوز للمضطر من الميتة وغير ذلك - باب صاحب المال لا يمنع المضطر فضلاً إن كان عنده.



«قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا يُنَجِّي الْعَبْدَ مِنَ النَّارِ؟
 قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ مَعَ الْإِيمَانِ عَمَلًا.
 قَالَ: يُرْضَخُ مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
 فَقِيرًا لَا يَجِدُ مَا يُرْضَخُ بِهِ؟
 قَالَ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَيِيًّا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا يَنْهَى عَنِ
 الْمُنْكَرِ؟
 قَالَ: يَصْنَعُ لَأَخْرَقَ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَخْرَقَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
 يَصْنَعَ شَيْئًا؟
 قَالَ: يُعِينُ مَغْلُوبًا، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ضَعِيفًا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
 يُعِينَ مَظْلُومًا؟
 فَقَالَ: مَا تُرِيدُ أَنْ تَتْرَكَ فِي صَاحِبِكَ مِنْ خَيْرٍ! تُمْسِكُ الْأَذَى
 عَنِ النَّاسِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟
 قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَفْعَلُ خُصْلَةً مِنْ هَؤُلَاءِ، إِلَّا أَخَذَتْ بِيَدِهِ
 حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

”

كل هذه أبواب نفع لا يكاد أحد يخلو من نصيب استطاعة فيها.

“

فانظر لما في يدك من نعم فأدّ شكرها، وما عليك من واجب الوقت فقم به، وما في نفسك من طاقات مادية أو معنوية فاستثمرها، وما تستطيعه من خير فتصدّق بالقيام به، وما تستطيعه من شر فتصدّق بالامتناع عنه.

وهذه عظمة دين الله تعالى، الذي يضمن جدوى فائدة كل حركة فعلية أو قولية أو قلبية يقوم بها المؤمن ما احتسبها عند الله تعالى وابتغى بها وجهه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] ^(١).

”

«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تُفْرَغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانِ فِي الْأَرْضِ» [ابن الجوزي - «البر والصلة»].

“

ومن درر النصائح النبوية: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. اخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ

(١) لمزيد تفصيل في مسألة الجمع بين ابتغاء وجه الله تعالى وحفظ النفس المشروعة، يُراجع المقطع المسجل على قناة اليوتيوب (هدديات) بعنوان: «العمل لله وللنفس وللناس».



بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

والقوة تبدأ بأن تحرص على ما ينفع، ولا تنجرف وراء هوى ما تريد أو ما تشعر والسلام. فانتبه للأناية الكامنة في الإصرار العنيد على معاشة شعور أو حالة وجدانية تجاوزت قدر التنفيس الطبيعي والمشارك الانساني السوي لتصير هي بذاتها شغلك الشاغل، فتتخذ الحزن والبكاء والاغتمام والعويل عملاً، هذا لا ينفعك ولا ينفع من تتقمص هذه الحالة الوجدانية باسمه!

وإنما النافع في هذا المقام أن تنظر لنفسك ماذا قدمت لها من نفع في الدار الباقية، وتنظر لمن يهتمك أمرهم فانفعهم بجدية بما تستطيع حقيقة.

”

خير النجدة لأخيك أن تنفعه هو بما يحتاج، لا أن تغرق في التنفيس عن حاجة نفسك أنت. فعندما تريد نفع غيرك، فكر فيما يحتاجه ذلك الغير منك لا فيما تريده له، وانشغل بما ينفعه مما تستطيعه دون تكلف ما يجهدك فتثقل عليه المنة.

“

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة

بالله، وتفويض المقادير لله - حديث رقم: ٦٧٧٤



• لا تتمنّ حالًا غير حالك ولا زمانًا غير زمانك

روى البخاري في صحيحه عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ»^(١). وجاء في شرحه في فتح الباري: «قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: حِكْمَةُ النَّهْيِ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْلَمُ مَا يُثَوِّلُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَهُوَ نَظِيرُ سُؤَالِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْفِتَنِ»^١. هـ. فالواحد منا لا يطلع على الغيب ولا يدري إلّا ما يؤول أمره ولا كيف ينجو منه إذا وقع فيه، فكيف يثق بقدرته على الثبات ويأمن على دينه والناس مُخْتَلِفُونَ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ؟ وإنما المنهج السليم سؤال الله تعالى العافية في الدين والدنيا، فإذا نزل البلاء، وقتها يكون سؤال الثبات والصبر وما أشبهه. وهذا وضع يختلف عن تمني الشهادة في سبيل الله تعالى أو التشوّف للجهاد.

ويتضح الفرق بينهما في واقعة رواها ابن حبان في صحيحه: «عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: «طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ». فَاسْتَغْضَبَ [المقداد]، فَجَعَلْتُ

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس (حديث رقم: ٢٩٦٥)



أَعْجَبُ، مَا قَالَ [الرجل] إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ [المقداد]: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيْبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لَا يَذَرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ، وَاللَّهِ، لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَقْوَامٌ أَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوْ لَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ، إِذْ أَخْرَجَكُمْ تَعْرِفُونَ رَبَّكُمْ، مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؟»^(١).

فالمقصود ألا تتمنى زمانًا غير زمانك، ولا حالًا غير حالك، ولا امتحانًا غير امتحانك، فإنك لا تدري ما كنت لتكون أنت فيه! وكذلك لا ينفعك أن تشهد امتحان غيرك فتغمس في معاشة ابتلاء لم يكتب عليك أنت أن تعايشه، فتغفل عن حقيقة معاشة امتحانك أنت بالاختصار على التفرج على امتحانات الآخرين!

ثم إنه لا يقف على حقيقة الابتلاء وحيثياته إلا صاحبه، فلا ينفعك أن تبتئس لابتلاء لم ينزل بك وقت العافية فتسخط وتتذمر بالنيابة عن غيرك، ثم إذا حلّ بك أنت ابتلاؤك ازدادت سخطًا وتذمرًا باسم نفسك، فأَيُّ إيمان هذا الذي لا ينفع صاحبه ولا ينفع به في عافية ولا بلوى؟!!

(١) مسند أحمد | أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ حديث المقداد بن



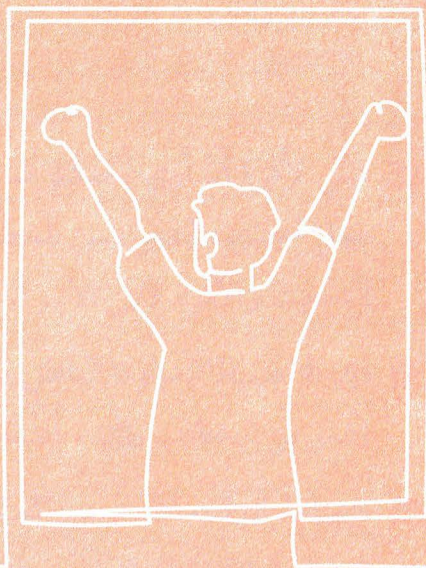
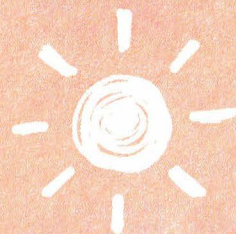
”

والله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته، وحيث يمتحن عباده، وحيث يجعل ابتلاءه؛ فعليك أنت الاشتغال بما تعلق بدمتك أنت بوصفك عبداً مسؤولاً، لا بما تعلق بمقام الربوبية!

“

وحذار أن يكون بلاء المبتلين سبب عافيتهم في الدنيا، بينما تكون عافية الغافل سبب بلائه في الآخرة، والعياذ بالله تعالى.





مِن بَدِيعِ أَقْوَالِ السَّلَفِ
فِي أَخْذِ الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ،
وَسِيَّاسَةِ النَّفْسِ بِحِكْمَةٍ،
وَاسْتِثْمَارِ الْعَمْرِ بِجَدِّيةٍ



«إِنِّي لَأَكْثَرُهُ أَنْ أَرَى أَحَدَكُمْ سَبَهْلًا: لَا فِي عَمَلٍ دُنْيَا وَلَا فِي عَمَلٍ آخِرَةٍ» [عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ، «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير].

«إِنْ لِلَّهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهِجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ» [عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ، «صفة الصفوة» لابن الجوزي].

«إِضَاعَةُ الْوَقْتِ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ، لِأَنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُكَ عَنِ الدُّنْيَا، أَمَّا إِضَاعَةُ الْوَقْتِ فَتَقْطَعُكَ عَنِ اللَّهِ.» [ابن القيم، «الفوائد»].

«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ» [الحسن البصري، «صفة الصفوة» لابن الجوزي].

«إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ، فَاعْمَلْ فِيهِمَا» [عمر بن عبد العزيز، «طبقات ابن سعد»].

«الزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا: قَصْرُ الْأَمَلِ وَارْتِقَابُ الْمَوْتِ، وَلَيْسَ بِأَكْلِ الْغُلِيزِ وَلِبْسِ الْخَشَنِ» [ابن القيم، «الفوائد»].

«الزَّمَنُ كَالطَّاقَةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَثْمِرْهُ فِي الْبِنَاءِ، ذَهَبَ فِي الْهَبَاءِ» [جابر بن حيان، «رسائل الكيمياء»].

«مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَهُوَ مِنْ أَهْلِهِ، وَابْحَثْ عَنِ الْعِلْمِ عِبَادَةً» [ابن الهيثم، «المناظر»].

❖ «قيمة كل امرئ ما يحسنه» [علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، «نهج البلاغة»].

❖ «كَانَ الْمَالُ فِيمَا مَضَى يُكْرَهُ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ تُرْسُ الْمُؤْمِنِ» [سُفْيَانُ الثَّوْرِي، «حلية الأولياء»].

❖ «يا بني، خذ من أدب شيخك قبل علمه» [والدة الإمام مالك، «وفيات الأعيان» لابن خلكان].

❖ «يا بني، العلم نور، فمن طلب النور، وَجَبَ عليه الجِدُّ والصبر» [والدة الإمام أحمد بن حنبل، «سير أعلام النبلاء» للذهبي].

❖ «العلم إرث لا يفنى، والعمل به شرف لا يُضَاهَى» [فاطمة الفهرية، «حسن المحاضرة» للسيوطي].

❖ «وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا: بعلم، وحال، وعمل» [الغزالي، «إحياء علوم الدين»].

❖ «من أمضى يومه في غير حقِّ قضاؤه، أو فرض أدّاه، أو مجدّ أثله، أو خير أسّسه، أو حمد حصّله، أو علم اقتبسه، فقد عَقَّ يومه وظلم نفسه» [ابن أبي الدنيا، «محاسبة النفس»].

❖ «في القلب شَعَث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا



الاجتماع عليه والفرار إليه. وفيه فاقه لا يسدها إلا محبته
والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي
الدنيا وما فيها لم يسد تلك الفاقة منه أبداً. [ابن القيم،
«مدارج السالكين»].

❖ «يا بني، لا يؤيسك من الخير ما مضى من التفریط، فإنه قد انتبه
خلق كثير بعد الرقاد الطويل» [ابن الجوزي - «لغة الكبد»].

«لَوْ ضَيَّعْتَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ تُبِتَ فِي اللَّمَحَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعُمُرِ
بَقِيَّتَ فِي الْجَنَّةِ أَبَدَ الْآبَادِ فَعَلِمْتَ حِينَئِذٍ أَنَّ أَشْرَفَ الْأَشْيَاءِ
حَيَاتُكَ فِي تِلْكَ اللَّمَحَةِ، فَكَأَنَّ الدَّهْرَ وَالزَّمَانَ مِنْ جُمْلَةِ
أَصُولِ النَّعْمِ، فَلِذَلِكَ أَقْسَمَ بِهِ وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
فُرْصَةٌ يُضَيِّعُهَا الْمُكَلَّفُ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]». (من تفسير الرازي لسورة العصر).





مختارات من خطابات مشاهير أجنبية،
عن معاني النجاح والفشل، ومجابهة
الصعوبات واتخاذ القرارات



من خطاب ستيف جوبز^(١) لدفعة ٢٠٠٥ في جامعة ستانفورد

اليوم سأقص عليكم ثلاثة قصص من حياتي:

قصتي الأولى: وصل النقاط للحصول على الصورة الكاملة

تركت كلية «رييد» (Reed College) بعد ستة أشهر من الانضمام إليها. لماذا؟ لأنني بسذاجة اخترت كلية باهظة التكاليف، راحت تستنزف مدخرات والديّ من الطبقة العاملة. بعد ستة أشهر، لم أر لذلك جدو، فلم تكن لدي فكرة عما أريد فعله بحياتي، ولا كيف ستساعدني الكلية على تحديد هدفي، وها أنا أنفق ما أفنى والدي عمرهما في جمعه وادخاره! فقررت أن أترك الكلية، مؤملاً أن كل شيء سيكون على ما يرام. كان قراراً مخيفاً في ذلك الوقت، لكنني الآن حين أعود بالذاكرة إلى السوراء أجد أنه أحد أفضل القرارات التي اتخذتها على الإطلاق. ففي نفس اللحظة التي تركت فيها الكلية، صار بإمكانني التوقف عن حضور الدروس التي لا تهمني، والتردد على تلك التي بدت أكثر متعة.

(١) مؤسس شركة آبل المعروفة، ومخترع جهاز الماكتوش (ماك) والأجهزة المحمولة: آيود وآيفون وآي باد.

لم تسر الأمور كلها على نفس الوتيرة الشاعرية. فلم يكن لدي سكن وبالتالي كنت أنام على الأرض في غرف زملائي، وكنت أرد زجاجات المشروبات للبائع لأسترد ثمن الرهن وأشتري به طعامًا، وكنت أسير سبعة أميال عبر المدينة كل ليلة أحد لأحصل على وجبة جيدة في الأسبوع في معبد «هير كريشنا» Hare Krishna Temple.

وكل ما عثرت عليه بالصدفة وقتها باتباع فضولي وحدسي، اتضح فيما بعد أنه لا يقدر بثمن. وهاكم مثالًا: في ذلك الوقت، كانت الكلية تقدم أفضل دروس الخط في أنحاء الولاية. فكنت أرى كل منشور وكل ملصق على كل دُرج في أرجاء الحرم الجامعي مكتوبًا بخط بديع. ولأنه كنت لم يعد علي حضور الدروس الروتينية، فقد قررت أن أحضر دروس الخط تلك، لأتعلم تلك الفنون. فكان أن تعلمت الكثير عن خط «سيريف» Serif و«سان سيريف» San Serif، وعن المسافات المتباينة بين تراكيب الحروف المختلفة، وعما يجعل من الطباعة البديعة بديعة. كان الأمر رائعًا بحق، وفيه من سحر الفن ما لا يمكن للعلم مساييرته. لقد استمتعت بكل لحظة منه.

ومع ذلك لم يكن لأي من هذا وقتها جدوى عملية في حياتي. إلا أنني لاحقًا بعد عشر سنوات، حينما كنا نصمم أول كمبيوتر «ماك» Mac، تذكرت كل ما تعلمت وقتها، ونفذته على الماك. فكان من ثم أول جهاز ذا خطوط زخرفية جميلة. لو لم



أتردد على ذلك الفصل وقتها، لما حظي جهاز الماك بتشكيلة الخطوط تلك. بالطبع لم يكن من الممكن فهم الصلة بين النقاط وقتها حين كنت في الكلية، ولم تتضح الصورة كاملة إلا بعد عشر سنوات.

”

لا يمكنك الوصل بين النقاط وأنت تنظر للمستقبل، بل حينما تتأمل في الماضي. لذا تأكد بأن النقاط ستتصل معًا بصورة ما في المستقبل، فقط عليك أن تثق بشيء ما: حدسك، قَدْرُك، حظك، أو أيًا كان. هذه الطريقة التي اتبعتها ولم تخذلني أبدًا طوال حياتي، بل صنعت الفارق الكبير في كل مراحلها.

“

قصتي الثانية: عن الحب والخسارة

كنت محظوظًا كفاية بحيث عثرت على ما أحب مبكرًا. بدأت مع صديقي «ووز» Wozniak شركة «آبل» Apple في كاراج والديّ حينما كنت في العشرين. عملنا بجِد، وفي غضون عشر سنوات نمت «آبل» لتصير شركة تقدر أرباحها بالبلايين، وموظفوها بالآلاف. ولما أطلقنا أول منتجاتنا - جهاز الماكينتوش - كنت في الثلاثين. بعدها بسنة تم طردي من الشركة!



كيف يمكن لأحد أن يطردك من شركة أنت مؤسسها؟ حسنًا، ما حدث هو أن آبل ازدهرت بحيث قمتُ بتعيين شخص ما ظننته موهوبًا بما يكفي لإدارة الشركة معي. مضت الأمور بيننا على ما يرام في السنة الأولى من توظيفه، لكننا اختلفنا بعدها حتى توجّب على أحدهما أن يرحل. فكان أن اختار مجلس إدارة الشركة الانحياز لصف هذا الشخص. ومن ثم طُردت في الثلاثين، بعد أن فقدت ما أنفقت زهرة شبابي في بناءه. كان شعورًا مدمرًا تمامًا.

لم أفهم الحكمة حينها، لكن طردي من «آبل» كان أفضل حدث في حياتي على الإطلاق! فقد أزاح عن كاهلي عبء النجاح وحساب كل خطوة، وأحل محلهما خفة العودة مبتدئًا مرة أخرى، متحررًا ومستعدًا للمغامرة. فكانت تلك المرحلة أكثر مراحل حياتي إبداعًا. خلال السنوات الخمس التالية، أسست شركة «نكست» NeXT، وشركة «بيكسار» Pixar، ووقعت في حب امرأة رائعة ستصير زوجتي فيما بعد. أنتجت شركة «بيكسار» أول فيلم رسوم متحركة بالكمبيوتر، «حكاية لعبة» Toy Story، وهي الآن أكثر استديوهات الرسوم المتحركة نجاحًا في العالم. وفي تحول مذهل للأحداث، اشترت «آبل» شركة «نكست»، وعدت أنا إلى «آبل»، بعد أن صارت التقنية التي طورتها في «نكست» هي أساس نهضة «آبل» الحالية. وصارت لي أنا و«لورين» أسرة رائعة.



أنا واثق أنه لا شيء من ذلك كان ليحدث لو لم أطرده من «آبل». أحيانًا يكون الدواء مرًا بحق، لكن المريض يحتاجه. لا تفقد الأمل. وأنا على يقين أن ما أعانني على الصمود هو أنني أحببت ما أفعل. يجب أن تجد ما تحب فعله. فعملك سيشغل مساحة كبيرة من حياتك، والطريقة الوحيدة لتشعر بالرضا حقًا هي أن تعمل ما ترى أنه عمل عظيم. والسبيل الوحيد للعمل العظيم هو أن تحب ما تعمل. إذا لم تكن قد وجدت ما تحب بعد، استمر في البحث. لا تهدأ ولا تقنع بغير ذلك. ومثل كل الأمور القلبية، ستعرفه حين تجده. فاستمر في البحث والتنقيب حتى تجد ما تحب. لا تقنع بغير ذلك.

قصتي الثالثة: عن الموت

حينما كنت في السابعة عشرة، قرأت مقولة مفادها: «إذا عشت كل يوم من أيام حياتك كما لو كان اليوم الأخير، ستكون محققًا يومًا ما». لقد أثرت في تلك المقولة كثيرًا، حتى إنني ظللت طوال الأعوام الثلاثة والثلاثين الماضية أنظر في المرأة كل صباح وأسأل نفسي: «لو أن اليوم كان آخر أيام حياتي، أكنت لأود فعل ما سأفعله اليوم؟» وحيثما كانت الإجابة «لا» لعدة أيام متتالية، أعرف على الفور أنه يتوجب عليّ تغيير شيء ما.



إن الموت هو المصير الذي نشترك فيه جميعًا. فهو يحصد القديم ليفسح المجال للجدید. الآن أنتم الجدید، لكن يومًا ما عما قريب ستكونون تدريجيا القديم، وتُزحزون بعيدًا.

”

وقتک محدود، فلا تضيعه بأن تعيش حياة شخص آخر، ولا تجعل ضوضاء المحيطین بك تمنعک من سماع صوتک الداخلي. والأهم من كل ذلك، تحلّ بالشجاعة لتتبع نداء قلبک وحدسک. فهما بشكل ما يعرفان بالفعل ما تريد حقًا أن تكون. وكل ما عدا ذلك أمور ثانوية.

“





من خطاب بيل جيتس^(١) لدفعة ٢٠٠٧ في جامعة هارفارد

هناك شيء واحد أندم عليه، وهو أنني لما تركت الكلية عام ١٩٧٥ للعمل في البرمجة وتصنيع أول كمبيوتر شخصي، لم يكن لدي وعي حقيقي بالظلم المريع المنتشر في العالم، والفوارق المروعة في المستوى الصحي والمادي والفرص المتاحة، التي تحكم على الملايين بحياة يائسة. ما تعلمته هنا في هارفارد كان أفكارًا جديدة في الاقتصاد والسياسة والتقدم الحاصل في العلوم. إلا أن أعظم تقدم تحققه الإنسانية حقًا ليس اكتشافاتها، وإنما في كيفية تطبيق تلك الاكتشافات للتقليل من تلك الفوارق، سواء عن طريق الديمقراطية، أو التعليم العام، أو الرعاية الصحية الجيدة، أو الفرص الاقتصادية. إن تقليل الفوارق هو أعظم الإنجازات الإنسانية.

إذن، تركت الجامعة وأنا لا أعرف إلا القليل عن الملايين من الشباب الذين حرّموا فرصة كهذه في هذه الدولة نفسها. ولم أكن أعلم شيئًا على الإطلاق عن الملايين المقيمين في فقر مُدقع وأمراض لا حصر لها في الدول النامية. لقد استغرق الأمر مني عقودًا لأعرف عنهم. أما أنتم أيها المتخرجون فجئتم هارفارد في زمان مختلف. أنتم تعرفون عن أشكال الظلم في العالم أكثر ممن

(١) رجل أعمال ومبرمج أمريكي، مؤسس شركة مايكروسوفت.



قبلكم. وأرجو أنكم قد فكرتم فيما قضيتموه من سنوات هنا كيف يمكننا في عصر التكنولوجيا المتسارعة أن نتبنى هذه القضية ونعمل على حلها.

”

تخيل لو كان لديك بضع ساعات في الأسبوع، وبضع دولارات في الشهر لتَهَبَهَا لصالح قضية، وكنت تريد أن تنفق هذا الوقت والمال حيثما سيكون لهما أكبر الأثر في إنقاذ الأرواح وتحسين ظروف المعيشة. أين كنت لتنفقها؟

“

أنا وزوجتي «ميليندا» واجهنا نفس التحدي: كيف لنا أن نبذل أعم النفع لأكبر عدد من البشر بالموارد المتاحة لنا؟ وخلال نقاشاتنا حول ذلك السؤال، قرأنا مقالاً عن ملايين الأطفال الذين يموتون كل عام في الدول الفقيرة، جراء أمراض تغلبنا نحن عليها منذ زمن طويل في هذه الدولة، كالحصبة والملاريا والالتهاب الرئوي والتهاب الكبد والحمى الصفراء. وأحد تلك الأمراض لم أسمع حتى عنها - فيروس الروتا - كان يقتل مليون طفل كل عام، ليس أي منهم في الولايات المتحدة. لقد ضُعننا! لأننا افترضنا تلقائياً أنه لو كان ملايين الأطفال يموتون في حين أنه يمكن إنقاذهم، فإن العالم سيجعل من أولوياته أن ينجدهم ويقدم الدواء لهم. لكن ذلك لم يحدث.



”

إذا كنت تؤمن أن كل حياة تتساوى وغيرها في قيمتها،
فإنه لأمر يثير الاشمئزاز أن ترى حياة تستحق الإنقاذ
وأخرى لا!

“

ومن ثم قررنا أنا وميليندا أن هذه أولويتنا. فبدأنا من حيث
سيبدأ أي شخص في محلنا، متسائلين: «كيف للعالم أن يترك
أولئك الأطفال يموتون؟» الجواب بسيط وقاس في آنٍ معاً: فسوق
العمل لا يدفع لمن ينقذ أولئك الأطفال، والحكومة لا تموّل ذلك.
ومن ثم يموت الأطفال لأن آباءهم وأمهاتهم لا يملكون سلطة في
السوق ولا صوتاً في النظام. لكنني أنا وأنت نملك الاثنين.

فبإمكاننا أن نحسن توجيه قوة السوق لمساعدة الفقراء بابتكار
نوع من الرأسمالية، يتمكن من خلاله عدد أكبر من كسب ربح،
أو على الأقل كسب قوت. ويمكننا كذلك الضغط على حكوماتنا
حول العالم لتنفق أموال الضرائب بالصورة التي تعكس قيم
دافعي الضرائب. فلو أمكننا أن نوجد سبلاً لتلبية احتياجات
الفقراء بطريقة تجلب الربح لأصحاب الأعمال والأصوات
للسياسيين، نكون وقتها قد أوجدنا طريقة محتملة لتقليل الفوارق
الظالمة في العالم. وهذه المهمة غير محدودة بأجل، بلا نهاية،
لكن جهوداً واعية لمواجهة هذا التحدي ستغير العالم.



إنني متفائل بقدرتنا على القيام بذلك، لكنني الآن أخطب من يشكون في ذلك مدّعين ألا أمل في التغيير. فهم يقولون «إن تلك الفوارق موجودة منذ البداية، وستظل موجودة أبدًا، لأنهم الناس لا يهتمون وحسب». أنا أختلف مع هذا تمامًا، لأنني أؤمن أنه لدينا من الاهتمام أكثر مما نعرف ما نفعل به. فكل واحد منا في هذه الساحة قد شهد مأساة إنسانية هزت مشاعره، ومع ذلك لم نفعل شيئًا، ليس لأننا لا نبالي، لكن لأننا لم ندر ماذا نفعل. لو أننا عرفنا كيف يمكننا أن نساعد لكنا فعلنا.

”

إن العائق الحقيقي أمام التغيير ليس قلة المبالاة بل كثرة التعقيدات.

“

لكي نحول الاهتمام إلى فعل، نحتاج لأن نرى مشكلة وحلاً وأثرًا. لكن التعقيدات تمنعنا من رؤية هذه الثلاثة. فالموت جراء حادث تحطم طائرة مثلاً لا يعني أن المشكلة في الحادث، بقدر ما هي في الموت جراء أسباب كان يمكن الحيلولة دون وقوعها. ونحن لا نقرأ عن مثل تلك الوفيات التي كان يمكن إنقاذها، لأن وسائل الإعلام تهتم بتغطية الجديد، وموت الملايين من الفقر والمرض لم يعد شيئًا جديدًا، ومن ثم يظل الأمر في خلفية اهتمامنا، حيث يسهل تجاهله. وحتى حين يصير بؤرة الاهتمام،



يصعب علينا أن نبقي تركيزنا على المشكلة. فمن الصعب أن تظل ناظرًا إلى معاناة لا تستطيع لها دفعًا لأن الحل معقد، ولذلك ننظر بعيدًا.

إن التنقيب وسط التعقيدات بحثًا عن حل يمر بمراحل أربع:

١. حدد هدفك،

٢. ابحث عن أكثر الوسائل فعالية وأبعدها أثرًا،

٣. اعثر على الوسائل التكنولوجية اللازمة لتحقيقها،

٤. أحسن استخدام ما يتوافر بين يديك بالفعل بذكاء.

فلنأخذ الإيدز مثالًا: الهدف بالطبع هو القضاء عليه نهائيًا. أما أبعد الوسائل أثرًا فهو الوقاية. والتقنية المثالية هي المصل الواقي لمناعة مدى الحياة. ومن ثم فالحكومات وشركات الأدوية والمؤسسات تمول أبحاث الأمصال، لكن تلك الأبحاث تستغرق وقتًا قد يربو على العقد، فلا يتبقى في الوقت الراهن إلا أن نعمل بما يتوافر بين أيدينا، وأحسن وسائل الوقاية الحالية هي أن يتجنب الناس التصرفات التي تعرضهم لخطرهم. ولا تخفى أهمية تسجيل التقدم وإثبات الإحصائيات ليتعلم الآخرون من نجاح التجارب وفشلها، وإقناع الحكومات وأصحاب الأعمال بالاستثمار فيها.

لقد أدى ظهور الكمبيوتر الشخصي منخفض التكاليف لإنشاء شبكة قوية للتعليم والتواصل. والرائع بخصوصها أنها تطوي



المسافات وتجعل من الكل جيرانك، وهي إلى ذلك تزيد عدد العقول النيرة التي يمكنها أن تعمل معا على نفس المشكلة، فترتفع بالتالي نسبة الإبداع بشكل مذهل. وفي الوقت ذاته، نجد في مقابل كل فرد يستطيع الوصول لهذه التكنولوجيا خمسة محرومين منها، مما يعني أن هناك عقولاً مبدعة تترك خارج المعادلة، وهم أشخاص بنفس الذكاء والخبرة، لكن بغير التكنولوجيا التي تعينهم على شحذ مواهبهم والمساهمة بأفكارهم في العالم.

ودعوني أتوجه بالسؤال إلى نخبة من العقول المفكرة مجتمعة اليوم في ساحة هارفارد: هل ينبغي أن نوجه خيرة عقولنا إلى حل مشاكل العالم الكبرى؟ هل ينبغي على جامعة هارفارد أن تشجع كلياتها على تبني تحديات تقليص الفوارق الظالمة؟ هل ينبغي على طلاب هارفارد أن يعرفوا عن مدى الفقر حول العالم، وانتشار الجوع، وندرة المياه النظيفة، والفتاة التي حُرمت التعليم، والأطفال الذين يموتون بسبب أمراض نستطيع معالجتها؟ هل ينبغي على المتنعمين في العالم أن يعرفوا عن بائسيه؟ هذه ليست أسئلة بلاغية، وإنما إجاباتها أفعالكم.

إن أُمِّي التي ملأها الفخر يوم قُبِلْتُ هنا لم تتوقف عن حثِّي لأفعل المزيد للآخرين. وبعد أيام قلائل من زواجي أقامت حفلاً، وقرأت فيه علينا رسالة عن الزواج كتبتها لزوجتي مليندا. كانت والدتي مريضة بالسرطان وقتها، لكنها لم تضيع ولو فرصة واحدة أخيرة لتوصل رسالتها. وفي ختام الرسالة قالت:



”

«مِن أولئك الذين أعطوا الكثير، يُتوقع الكثير».

“

حينما تتفكرون فيما أُعطيتُم من مواهب وامتيازات وفرص، سيتبين لكم أنه لا حَدّ لما يَحِقُّ للعالم أن يتوقعه منا. لذلك أطلب من كل واحد منكم أن يتخير مشكلة أو قضية ويجعلها اختصاصه. وإذا استطعت جعلها تخصصك في مسيرتك المهنية فلسوف تصنع المعجزات. لكن ليس بالضرورة أن تفعل ذلك لتترك أثراً، بل هي عدة ساعات كل أسبوع ستمكنك من استثمار الطاقة المتنامية للانترنت لتزداد علمًا، وتجد آخرين يشاركونك نفس الاهتمامات، فتتناقشون في العوائق وكيفية تجاوزها. لا تجعلوا التعقيدات توقفكم. فلتتبَن قضية كبرى، وسترى كيف سيكون ذلك من أعظم تجارب حياتك، وإلا فإن ضميرك سيعذبك إذا أدركت ظهرك لمن كان يمكنك تغيير حياتهم بقليل من الجهد، أولئك الذين لا يشتركون معك إلا في الإنسانية.

”

لديكم أكثر مما كان لدينا، لا بد أن تعجّلوا البدء، وتطيّلوا الاستمرار.

“

من خطاب ج. ك. رولينغ^(١) لدفعة ٢٠٠٨ في جامعة هارفارد

أولاً: عن فوائد الفشل

عندما كنت في العشرينيات مثلكم، كنت أحاول الموازنة بصعوبة بين الطموح الذي اخترته لنفسي وتوقعات المحيطين بي مني. كنت مقتنعة أن الشيء الوحيد الذي أريده هو كتابة الروايات فحسب. لكن والديّ اللذين ينتميان للطبقة الفقيرة، ولم يدرسا في كلية قط، رأيا في مخيلتي الجامعة مجرد سمة شخصية مسلية، لن تؤمن لي دخلاً لدفع الإيجار أو تأميناً عند التقاعد. ومن ثم أرادا أن أحصل على درجة في الأعمال المهنية، لكنني أردت دراسة الأدب الإنجليزي، فكان الحل الوسط هو دراسة إحدى اللغات الحديثة. وما كاد والديّ يغادران مبنى الجامعة بعد التقديم، حتى عدت أدراجي لأحول اختيار التخصص من اللغة الألمانية إلى الأدب الإنجليزي. لم أخبرهما ولم يعلما بذلك إلا يوم تخرجي! وما كانا ليفكرا في مادة أقل نفعا مما درستُ من بين كل المواد على وجه الأرض، حين يتعلق الأمر بتأمين سبيل المعيشة.

أود أن أوضح أنني لا ألوم والديّ على رأيهما. فهناك تاريخ انتهاء صلاحية لعادة لوم والديك على توجيه دفة حياتك في

(١) روائية بريطانية ومؤلفة سلسلة روايات «هاري بوتر».



الاتجاه الخاطيء، وذلك عندما تكبر كفاية لتتولى القيادة، وقتها تكون المسؤولية من نصيبك. كما أنني لا أستطيع انتقاد والدي لحرصهما على ألا أذوق مرارة ما ذاقاه من الفقر. وأنا أتفق معهما أن هذه ليست تجربة نبيلة، فالفقر يجر في أذياله الخوف والتوتر وأحياناً اليأس، وهو يعني آلاف الصعوبات والمواقف المذلة. أن تتحرر من أغلال الفقر بجهودك فذاك ما يستحق الإشادة، أما الفقر بحد ذاته فلا يتغنى به إلا الحمقى.

ما كنت أخشاه حقيقة في مثل سنكم كان الفشل وليس الفقر. ولست أفترض للحظة أن أيًا من الموهبة أو الذكاء أو الامتيازات يمكن أن تحول دون فُجاءات القدر، ولا أن أيًا من الحاضرين قد استمتع بحياة لا يعكر صفوها شيء. ومع ذلك، فحقيقة أنكم قد تخرجتم من هارفارد تشي بأنكم لستم على صلة وثيقة بالفشل، وإنما أقصى ما في الأمر أنكم خفتم من الفشل بقدر ما رغبتم في النجاح. على كل، يجب علينا أن نحدد نحن لأنفسنا ما يعنيه الفشل، لأن العالم حاضر بقائمة من المعايير إن سمحت له أن يتولى تحديده عنك.

وبناء على المعايير المتعارف عليها، كنت بعد سبع سنوات فحسب من التخرج فاشلة فشلاً ذريعاً: زواج قصير جداً، وأم وحيدة، بغير وظيفة، وفقيرة لأقصى مدى ممكن في بريطانيا الحديثة، مع احتفاظي بالسكن. كل مخاوف والدي ومخاوفي تحققت، ومن ثم بكل المقاييس الاعتيادية، كنت أكبر فاشلة



عرفتها في حياتي. ولن أقف هنا لأقول لكم إن الفشل متعة! بل إن تلك الفترة من حياتي كانت مظلمة، ولم يكن لدي أدنى فكرة عما أسمته الصحافة فيما بعد النهاية السعيدة لقصة خرافية! لم يكن لدي أدنى فكرة إلى أين يمتد النفق، وأي بصيص ضوء في آخره بدى لوقت طويل مجرد سراب.

”

إذن، لماذا أحدثكم عن فوائد الفشل؟ ببساطة لأن الفشل يعني التجرد من كل ما غير ضروري.

“

توقفت أخيراً عن محاولة التظاهر بأن أكون أي شيء سوى ما أنا عليه، ووجهت كل طاقتي لإنهاء العمل الوحيد الذي كان يهمني. ولو كنت نجحت في أي مجال آخر، لربما لم أكن لأجد العزم الكافي لأنجح في الميدان الذي كنت واثقة أنني أنتمي إليه. لقد تحررت حينما تحققت أكبر مخاوفي. كنت ما أزال على قيد الحياة، ولدي طفلة أحبها كثيراً، وآلة كاتبة قديمة، وفكرة كبيرة. لقد كان الحضيض هو الأساس المتين الذي أعدت بناء حياتي عليه.

قد لا تفشلون بنفس الدرجة التي فشلت أنا بها، لكنكم لا بد أن تذوقوا بعض الفشل في حياتكم. من المستحيل أن تعيش



بغير فشل، اللهم إلا إذا كنت ممن يعيشون بحرص شديد فكأنك لم تَعش على الإطلاق! ولو عدتُ بآلة الزمن إلى تلك الشابة في الواحد والعشرين، لقلت لنفسي وقتها إن السعادة لا تكمن في قائمة من الإنجازات والمكاسب. حياتك ليست هي مؤهلاتك وسيرتك المهنية، مع أنك ستقابل العديد من الناس في مثل سني وأكبر يخلطون بينهما.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ثانياً: عن ملكة الخيال

لربما يدور بخلدكم أنني اخترت الموضوع الثاني عن ملكة الخيال، لما لعبه من دور في إعادة بناء حياتي، لكن ليس الأمر كذلك تماماً. ومع أنني شخصياً سأظل أدافع عن قيمة قصص ما قبل النوم حتى النفس الأخير، فإنني تعلمت أن أقدر ملكة الخيال بمعناها الواسع. إن ملكة الخيال ليست فحسب القدرة الإنسانية الفريدة على تصوّر ما ليس موجوداً، كما حال كل الاختراعات والابتكارات، لكنها بما تنطوي عليه من قوة تحويليّة تمكّنا من التعاطف مع أناس لم نعيش نفس تجاربهم.

إحدى أعظم التجارب التي مررت بها قبل كتابة «هاري بوتر» هي وظيفتي الأولى في أوائل العشرينات، في قسم الأبحاث الإفريقية، في مقر منظمة العفو الدولية في لندن. في كل يوم، كنت أشهد دليلاً على الشر الذي يُلحقه الإنسان بأخيه الإنسان، ليكسب أو يحافظ على السلطة. وبدأت أعاني من



كوابيس مما كنت أرى وأسمع وأقرأ. ومع ذلك لمست الكثير من الطيبة في النفس الإنسانية في منظمة العفو، أكثر مما لمست في أي مكان آخر. فالمنظمة توظف آلافاً من الناس الذين لم يُعذَّبوا قط أو يُسجَّنوا بسبب آراءهم، ليعملوا باسم أولئك الذين عُذِّبوا وسُجِّنوا. تلك هي قوة التعاطف الإنساني التي تحشد الحَرَكَ الجماعي، فتنقذ أرواحاً وتحرر سجناء. أناس عاديون توافر لهم الأمن والرخاء الشخصي، يتعاونون من كل حَدَب وصوب لينقذوا من لا يعرفون ولن يلتقوا بهم. ومساهمتي الصغيرة في تلك العملية كانت واحدة من أكثر تجارب حياتي تأثيراً وإلهاماً.

بخلاف أي مخلوق آخر على ظهر هذا الكوكب، يستطيع البشر أن يتعلموا ويفهموا بدون أن يمروا بالموقف نفسه، بل بمجرد بأن يتخيلوا أنفسهم في مكان غيرهم. وبالطبع هذه طاقة ذات حدين أخلاقياً، قد تستخدمها لتستغل وتتحكم، بقدر ما يمكنك استعمالها لتتفهم وتعاطف. والكثيرين يفضلون ألا يستعملوا مخيلتهم على الإطلاق. فيختارون أن يظلوا مستريحين في حدود محيطهم الشخصي، دون أن يزعجوا أنفسهم بالتساؤل عما لو كانوا وُلِدوا في ظروف مختلفة. بإمكانهم أن يرفضوا سماع الصراخ، أو اختلاس النظر داخل الأقفاص. بإمكانهم أن يُوصِّدوا أبواب عقولهم وقلوبهم في وجه أي معاناة لا تمسهم شخصياً، بإمكانهم أن يرفضوا أن يعرفوا.



وكنت لأحسد أمثال أولئك ممن يستطيعون العيش هكذا، لولا أنني لا أظن أنهم يعانون من كوابيس أقل مني. فقد اختاروا أن يعيشوا في مساحات ضيقة وهذا يؤدي إلى نوع من الرهاب العقلي من المساحات الشاسعة، ولهذا قيوده الخاصة. فأولئك الذين يختارون ألا يتعاطفوا يخلقون وحوشاً حقيقية لا في الخيال فحسب: مع أنك لا ترتكب الشر بنفسك مباشرة إلا أنك تتواطأ معه.. عندما لا تبالي!

وإذا كنا نمس حياة الآخرين بمجرد وجودنا، فماذا عنكم أيها المتخرجون من هارفارد؟ وأنتم من أنتم بذكائكم وقدرتكم على العمل الجاد، والتعليم الذي تلقيتموه واكتسبتموه، كل هذا يخولكم مكانة فريدة، ومسؤوليات فريدة. حتى جنسيتكم تميزكم، لأن أغلبكم ينتمي للقوة العظمى الوحيدة الباقية في العالم. أصواتكم في الانتخابات، وأسلوب معيشتكم، ووسائل احتجاجكم، وضغطكم على حكوماتكم، كل هذا له أثر يتجاوز حدود دولتكم. إن ذلك امتياز وعبء في آن معاً.

إذا اخترت أن تستعمل منصبك وتأثيرك لترفع صوتك بالنيابة عن لا صوت لهم، إذا اخترت أن تنحاز لا إلى الأقوياء فحسب بل الضعفاء كذلك، إذا حافظت على قدرتك على تخيل نفسك مكان أولئك الذين لا يملكون مميزاتك، فلن تحتفي بوجودك عائلتك الفخورة بك وحدها، بل سيحتفي بك الآلاف والملايين



من الناس الذين ساعدت في تغيير واقعهم. إننا لا نحتاج السحر
لنغير العالم، فنحن نحمل بداخلنا بالفعل كل الطاقة التي
نحتاجها: الطاقة لتخيل الأفضل.

”

أرجو إن لم تذكروا كلمة واحدة مما قلت في المستقبل،
أن تظل مقولة الحكيم الروماني «سينيكا» عالقة في
أذهانكم: «الحياة كالحكاية، العبرة ليس بطولها وإنما
بجودتها».

“





من خطاب أوبرا وينفري^(١) لدفعة ٢٠٠٨ في جامعة ستانفورد

ما تعريفي للنجاح؟ سأقول لكم شيئاً: المال طيب! لن أقف هنا لأقول لكم المال ليس محل العناية، لأن المال حلوا! أنا أحب المال، فالمال يشتري الأشياء، لكن الكثير من المال لا يجعلك ناجحاً تلقائياً. ما تريده حقاً هو المال والمعنى، تريد أن يكون عملك ذا معنى، لأن هذا المعنى هو ما يثري حياتك حقيقة. ما تريده حقاً هو أن تكون محاطاً بأناس تثق بهم وتقدرهم، ويقدرونك هم كذلك. ها هنا تكون ثرياً بحق.

أود كذلك أن أحدثكم عن الفشل، إذ لا تخلو منه رحلة واحد منا. كلنا نتعثر، وكلنا نمر بعقبات. وإذا سارت الأمور على نحو خاطئ، فإنك تصل لنفق مسدود، وتلك طريقة الحياة في إخبارك أن عليك تغيير مسارك. ومن ثم اسأل نفسك في كل مرة تواجه فيها فشلاً: ماذا يعلمني هذا؟ وبمجرد أن تتعلم الدرس، امض قُدماً. حين تتعلم الدرس وتتجاوز الاختبار بنجاح، لن يكون عليك تكراره. ستمر بغيره، لكن لن تكرر، وهذا سر النجاح. فقط تذكر أن تسأل: ماذا يعلمني هذا؟ وليس: لماذا يحدث هذا؟

(١) مقدمة برامج ومنتجة تلفزيونية أمريكية من أصول إفريقية.

”

وبغض النظر عما حدث في الماضي، فلا سلطان له عليك
في اللحظة الراهنة. لأن الحياة هي الآن.

“

كن جزءًا من شيء، لا تعيش لنفسك فحسب. لكي تكون
سعيدًا حقًا لا بد أن تعيش لشيء أكبر منك، شيء يتجاوز حدود
نفسك، لأن الحياة تبادل في الاتجاهين. وهذا من أعظم دروس
الحياة التي تعلمتها. وهذا الدرس نفسه هو الذي بُنيت على
قواعده هذه الجامعة. كلكم يعرف كيف أن الزوجين «ستانفورد»
فقدوا ولدهم الوحيد لما مات متأثرًا بمرض التيفوئيد وهو في
الخامسة عشرة. كان لديهما كل الحق وكافة المبررات ليديرا
ظهيرهما للعالم أجمع وقتها. لكنهما عَوَظًا عن ذلك وجَّها
حزنهما وألَمَّهما لعمل سام. ففي غضون سنة من وفاة ابنهما قاما
بتجميع المنحة المؤسَّسة لهذه الجامعة، راجيين بذلك أن يقدموا
لأولاد الآخرين ما لم يستطيعا تقديمه لولدهما.

كنت سعيدة دائمًا بتقديم برنامجي الحواري، لكن تلك السعادة
بلغت أوجها إلى حد لا أستطيع وصف عمقه وأثره، حينما توقفت
عن مجرد كوني مقدَّمة على التلفاز، متخذة إياها كوظيفة، وقررت
أن أستخدم مهنتي لا أن أتركها تستخدمني، أن أستخدمها كمنصة
لخدمة الجمهور. كان هذا هو ما غير مسار نجاحي نحو الأفضل.



أيًا كان مجال عملك، إذا اخترت أن تُسخر مهاراتك وموهبتك لخدمة المجتمع، فكل ما تفعله يتحول من وظيفة إلى هبة. وأنا على يقين أنكم لم تقضوا كل هذا الوقت بالجامعة فقط لتخرجوا وتحصلوا على «وظيفة».

افعل دائمًا الشيء الصحيح، وتطلع دائمًا للامتياز. فالناس تلاحظ ذلك، ألا ترى أنك تود العودة إلى أحسن من قدم لك الخدمة سواء في محل أو مطعم أو غيره؟ الناس تلاحظ الامتياز مهما صغر العمل. فليكن الامتياز هو شعارك وعلامتك التجارية. لأنك عندما تمتاز تتميز، فلا تُنسى. واحرص على الامتياز وفعل الصواب حتى عندما لا يعرف الناس ذلك. لأن قانون الجاذبية ينص على أن كل فعل له رد فعل مساوٍ له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه.

”

افعل الصواب، وسيتبعك الصواب، وستكافأ دائمًا وفورًا
بالسلام الداخلي، والاطمئنان لاختيارك.

“

وأهم ما تعلمته أن كل نجاح يصاحبه ثمن لا بد من دفعه. لن يحبك كل الناس دومًا، وليس الكل سيسعد لنجاحك. فإذا أحطت نفسك بمن ليسوا معتادين على نجاحك لأنه يكشف لهم



من أنفسهم ما لا يودون رؤيته، سيقولون لك دومًا: «من تظن نفسك؟» إن من يريد لك الأفضل لا يقول ذلك، لأن من يريد لك الأفضل يريدك أن تكون أفضل ما تستطيع. ومن ثم تخير أصحابك ممن يملؤون لك كأسك حتى يفيض. وإذا فاض كأسك، فليس من الحكمة أن تهدره على أصحاب النفوس الصغيرة.

إذا فعلت كل ذلك، فأنا اعدك أن حياتك ستصير مباركة، بل وحلوة. وكلنا يريد أن تكون حياته حلوة بحيث حتى إذا هبت عاصفة - وسوف تهب يومًا ما - تثق في قرارة نفسك أن الغيمة حتما ستنتشع، فلا تهن ولا تضعف، لأنك تعرف من أنت.





من خطاب نيل جايمان^(١) لدفعة ٢٠١٢ في جامعة فيلاديلفيا

عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، أجد أنني خضت رحلة رائعة. لست واثقًا أن بإمكانني تسميتها رحلة مهنية، لأن ذلك قد يعني ضمنيًا قدرًا من التخطيط، وأنا لم أخطط أبدًا. كل ما كان لدي هو قائمة بكل ما كنت أريد أن أفعل، كتبتها في الخامسة عشرة: كتابة رواية للبالغين، وكتاب للأطفال، وقصة مصورة، وعمل فيلم، وتسجيل كتاب مسموع.. إلخ. لذا لم يكن لديّ مسيرة مهنية بالمعنى الحرفي، وإنما كنت أنتقل للبند التالي على القائمة.

اليوم سأخبركم بكل ما كنت أود أنا معرفته حين بدأت، وبضع أشياء أخرى كنت أعرفها وقتها، ثم أختتم بأفضل نصيحة أسديت إلي، وأخفقت تمامًا في اتباعها!

. أولًا:

حينما تبدأ عملك في مجال الفن والأدب لا يكون لديك أدنى فكرة عما تفعل، وهذا رائع! فأولئك الذين يعرفون

(١) كاتب وروائي ومخرج إنجليزي، مؤلف رواية «كوراالين» التي صارت فيلمًا كرتونيًا مشهورًا.



ما يفعلون يعرفون القواعد، ويعرفون ما الممكن وما المستحيل. أنت لا تعرف ذلك ولا ينبغي لك أن تعرف. فقواعد الممكن والمستحيل في الفن وضعها أشخاص لم يقفوا حقيقة على حدود الممكن بتجاوزها إلى ما وراءها. لكنك تستطيع ذلك، لأن كونك لا تعلم أن هذا أو ذاك مستحيل يسهّل عليك القيام به، وكون أحد لم يقم به قبلاً يعني أن القواعد لم توضع بعد ل تمنع أحداً من تكراره!

• ثانيًا:

إذا كانت لديك فكرة عما تود أن تفعل، عما خلقت لأجله، فقط اذهب وافعله. هذا أصعب مما يبدو، لكنه أحيانًا أسهل مما تتخيل! إذ غالبًا ما تكون هنالك أشياء واضحة ينبغي أن تقوم بها قبل أن تصل إلى حيث تريد.

أنا مثلاً أردت أن أكتب روايات وقصص وأخرج أفلامًا، فعملت صحفيًا، لأن الصحفيين مسموح لهم بطرح الأسئلة، ومعرفة طرق هذا العالم. وكذلك كان علي أن أتعلم أن أكتب، وأن أكتب جيدًا. فكان عملي كصحفي يعني أن أتقاضى أجرًا لأتعلم الكتابة بإيجاز ووضوح، وتحت ظروف صعبة، وفي الموعد المحدد.

أحيانًا سيكون الطريق لما تود فعله واضحًا وضوح الشمس، وفي أحيان أخرى سيكون من العسير تبين مدى صحة ما تقوم



به، خاصة حينما يتوجب عليك أن توازن بين أهدافك وآمالك، وتعيّل نفسك وتدفع الإيجار، وتبحث عن وظيفة وترضى بما وجدت. ما ساعدني في هذه المواقف هو تخيل ما كنت أريده كجبل بعيد، ووصول هذا الجبل هو هدفي. طالما كنت سائرًا نحو الجبل فأنا على الطريق الصحيح، أما حين لا أكون متأكدًا مما أفعل فبإمكاني التوقف والتفكير: أهذا يقربني أم يبعدني عن الجبل؟ ومن ثم رفضت وظائف عُرضت علي كمحرر في مجلات، مع أنها وظائف جيدة وكان بإمكانها أن تؤمن لي دخلًا محترمًا، لأنني أدركت رغم جاذبيتها أنها ستبعدني عن الجبل. ولو أنها جاءت قبلاً لربما كنت قبلتها لأنها كانت ستأخذني إلى الجبل وقتها، وإن من طريق آخر.

. ثالثاً:

العمل في مجال الفن معناه أن تتقن فن التعامل مع الفشل. عليك أن تخشوشن وتتعلم أن ليس كل مشروع سيكتب له النجاح. والعمل المستقل لحسابك الخاص في مجال الفن يكون أحياناً كوضع رسائل في زجاجات في جزيرة نائية، مؤملاً أن يعثر أحد على واحدة منها، ويفتحها ويقرأها، ثم يضع لك بدوره شيئاً في زجاجة ويرسلها إليك مع الأمواج، سواء أكان ذلك الشيء ثناء وتقديرًا، أو مآلاً، أو محبة. عليك أن توطن نفسك على أن ترسل مئات الزجاجات فينتهي بها المطاف مرتدة إليك.



كتابي الأول - مثلاً - كان ينبغي أن يكون نجاحه مُدَوِّيًا، وأن يُدِرَّ علي مالا وفيرًا، لولا مشاكل مع الناشر قبل حتى دفع حقوق التأليف. ماذا فعلت؟ هزرت كتفي! آتني الكاتبة لا تزال موجودة، ولدي من المال ما يكفي لدفع الإيجار لبضعة أشهر، فقررت في المستقبل ألا أكتب فقط للمال. لأنك إن لم تحصل على المال، فلم تفعل شيئاً في الحقيقة. أما إذا قمت بعمل أنا فخور به ثم لم أحصل على المال، على الأقل ما يزال عندي العمل. وفي كل المرات التي عملت فيها للمال، لم يكن ما قمت به يستحق العناء، بل لم أحصل على المال في النهاية أحياناً. أما الأشياء التي فعلتها عن شغف ورغبة في تحقيقها على أرض الواقع، فلم تخذلني قط، ولم أندم على ما أنفقت من وقت في أي منها، حتى وإن لم تنشر، فقد تعلمت منها بقدر ما تعلمت من تلك التي نشرت.

• رابعًا:

أرجو أن ترتكبوا أخطاء. إذا كنت ترتكب أخطاء فهذا يعني أنك تفعل شيئاً. والأخطاء نفسها قد تكون ذات فائدة. لقد أخطأت مرة في تهجئة اسم «كارولاين» (Caroline) إلى «كورالاين» (Coraline) في إحدى رسائلي! [فكانت الرواية المشهورة Coraline والتي تحولت إلى فيلم كرتون، ودخل هذا الاسم قاموس اللغة الإنجليزية].



إذن، بغض النظر عن تخصصك تذكر أن عندك قدرة فريدة من نوعها: القدرة على صناعة فن. وهذا بالنسبة لي، ولكثيرين ممن أعرف، كان طوق النجاة. هذه القدرة هي رفيقتك في أوقات الرخاء والشدة على السواء. لذا، اصنع فناً جيداً.

• خامساً:

اصنع فنك أنت، ذاك الذي لا يستطيع سواك عمله. في بداية المشوار غالباً يكون الدافع هو التقليد، وهذا ليس سيئاً، فكثير منا لم يجد صوته الخاص إلا بعد أن حاكى أصوات كثيرين غيره. لكن الشيء الذي تملكه ولا يملكه سواك هو أنت: صوتك، عقلك، قصتك، رؤيتك. فاكتب وارسم والعب وعش كما يمكنك أنت فقط أن تفعل.

سادساً:

أثمن نصيحة تلقيتها جاءتني من الروائي «ستيفين كينج» منذ حوالي عشرين سنة، عندما كانت سلسلتي «رجل الرمال» (Sandman) في أوج نجاحها. كنت كاتب قصص مصورة يحبها الناس ويقبلون عليها. لقد أعجب كنج بها، وعلق قائلاً: «هذا حقاً رائع. ينبغي عليك أن تستمتع بذلك». لكنني لم أفعل، وبدلاً من ذلك، كنت دائم القلق: قلقاً بشأن الموعد التالي، والفكرة التالية، والقصة التالية. فلم تمض علي لحظة في السنوات الأربعة عشرة



أو الخمسة عشرة التالية، بغير أن أكتب شيئاً في رأسي أو أتساءل بشأنه. لم يحدث أن توقفتُ ونظرت حولي: إن هذا حقاً ممتع. أتمنى الآن لو كنت استمتعت بذلك أكثر، فقد كانت رحلة مذهلة، لكنني لم أنتبه لكل المناظر الخلابة لأنني كنت منشغلاً بالقلق من أن أخطئ أو مما سيلي ذلك، عن أن أستمتع باللحظة التي كنت فيها.

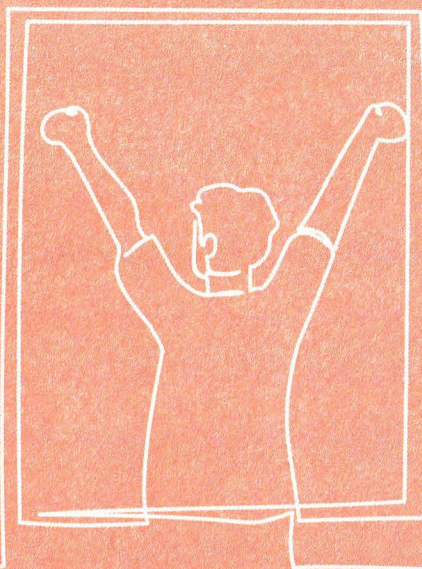
كان هذا أحد أصعب الدروس بالنسبة لي: أن تهوّن عليك وترخي الزمام وتستمتع فقط بالرحلة، لأنها قد تأخذك أحياناً إلى أماكن رائعة لم تتوقعها، كما جئتم أنا اليوم لألقي هذا الخطاب.

إننا اليوم في عالم انتقالي سريع التغير، وهذا مخيف من ناحية، لكنه من ناحية أخرى تحرر هائل. فكل القواعد والفرضيات وما ينبغي أن تفعله، وكيف تنشر ما تعمل، أو تعمل ما تنشر، كل هذا يختفي الآن. بإمكانك أن تكون مبدعاً بقدر ما يحتاج عملك ليصل للآخرين. فاليوتيوب والانترنت وما بعدهما يتيحون لك جمهوراً أكبر عدداً وأوسع مدى مما يتيحهُ التلفاز.

”

القواعد القديمة تتداعى، ولا أحد يعلم ما هي الجديدة بعد. لذا، سارع بوضع قواعدك الخاصة.

“



هل رأيت في حياتك
نهرًا يجري؟



قرأت مرة قصة تحكي عن رسام حالم مرهف الحس رائق البنان، لكنه مُنيّ بالإخفاق في بيع أي من لوحاته البديعة، فالتمس نصيحة صديق له يعمل كاتبًا. ما إن سمع الكاتب شكوى الرسام حتى ابتسم، ونصحه بأن يتوقف عن رسم الأشياء كما يراها بعينه الحالمة، وأن يضرب بفرشاته في جنبات اللوحات فيلطح بها الصفحات، جريًا على صيحة الرسومات الرائجة آنذاك. فإذا سأله أحد عن معنى هذه اللوحة أو تلك، فليشخص ببصره بعيدًا، ثم ليقل: «هل رأيت في حياتك نهرًا يجري؟».

لم يقتنع الرسام في البداية بالتخلي عن تصوراتهِ التي يسكبها باستمتاع على تلك الصفحات البيضاء، إلا أنه تحت وطأة الحاجة والإحباط قرر أن يجرب النصيحة. وما كاد الرسام ينشر بضع لوحات على ذلك المنوال، حتى طارت شهرته في الآفاق، وتلقفه النقاد والمعجبون معًا، وأقيم له معرض خاص.

وفيما الرسام يحيي رواد المعرض، سألته إحدى الزائرات عن إحدى لوحاته المعلقة، فما كان منه إلا أن شخص ببصره أمام الحضور المترقب، وأجاب بعد هنيهة صمت: «هل رأيت في حياتك نهرًا يجري؟»، وكان الرد على جوابه (بالأحرى سؤاله) تصنيفًا حارًا دَوّت به الكفوف والقاعة معًا!



وحدث مرةً أن تأملتُ لوحةً عنوانها «الغراب الأصفر»، فأدهشتني أيما دهشة. ليس لأن الغراب أصفر، بل لأن اللوحة لم يكن فيها قطرة من لون أصفر، ناهيك عن شكل غراب، أو أي شكل ذي معنى، يمكن أن تستبينه من بين «لطخات» رمادية وزرقاء، قذف بها على الورق دون أدنى عناية!

كم نسمع عن الفن التشكيلي والتجريدي ومسميات أخرى عديدة من المستحدثات على الفن والجمال، بينما لا تَمُتُ للفن ولا للجمال بأية قرابة ولو بعيدة! فليس التشكيل ولا التجريد ما يجعل الفن فنًا، وإنما الجمال الذي يأسر القلوب ويخلب الألباب، هو الذي يمكن تسميته فنًا، بل إن بينهما من أواصر الاتصال وعُرى الوصال ما لا يتطلب مزيد بيان.

ومن تلك اللوحات التي تأملتُها، ورأيتها تَمَسُّ شَغاف القلب بما جمعت من رقة ورصانة وحنان، لوحةٌ أم جالسة وفي حجرها طفل رضيع يتطلع إليها. ويبدو أنها كانت جالسةً في حديقةٍ تزدان بالورود البيضاء، إذ طارت بَتَلَةٌ إحدى تلك الورود لتستقرَ على رأس الرضيع، فرفعت الأمُّ يدها لتنفضها عنه. وعند ذلك التقت عيناها بعينه المتطلعتين إليها، فمالت بطرفها إليه وثبتت هو بصره على محيّاها. فكأن الزمن في اللوحة توقف إجلالاً عند تلك اللحظة، ليخلد لنا دفقًا من معاني الأمومة والرحمة والحنان في تلك النظرة وذلك الميل، وتلك اليد الممدودة لتدفع عن الصغير أي أذى، ولو كان بتلة ورد!



لا أعرف حتى اللحظة من الرسام، ولا تاريخ رسم اللوحة، ولا حتى «المذهب» أو «المدرسة» المتبعة، كل ما أعرفه أن تلك الصورة قد رسمت بجمالها «المباشر» الجلي الابتسامة على وجوه من تطلعوا إليها، وأثارت في قلوبهم طيفاً من المشاعر الدافئة.

إن الميل للجمال الحق فطرة في الإنسان السوي. قد يكبر بدرجات عند بعض الناس حتى يصل إلى حد الشغف به، وقد ينعدم في الحالات التي شاعت مع الأسف في العصر الحالي، حتى يستحيل القبح حسناً، والعبث فناً، والبلاهة ذوقاً! وتتعدد التعريفات والشروط والمذاهب، ويظل الجمال الحق يعرفه كل منا حين يراه، ويحبس أنفاسه للمنظر الخلاب حين يقع بصره عليه.

والفن الحقيقي في أي مجال ليس ذاك الذي يتبع قواعد مفروضة لاحقاً، فالفن ليس قاعدة بحد ذاته، وإنما هو معنى تهفو إليه النفوس، دون حاجة إلى «مذهب»، يفرض عليها أن «تصنّف» هذا على أنه «جميل»، وغير المتبع للمذهب على أنه قبيح. الجمال وُجد بالفطرة في نفوس البشر، ومهما تعددت القواعد والتصنيفات، ومهما قام وقعد «كبار النقاد»، سيظل الجميل جميلاً، ويظل «اللامعنى» بلا معنى.

الفن الحقيقي هو الذي يرسم أثره بسمه على الشفاه أو دمعة في العين أو أثراً في النفس، ويبسط سلطانه سواء على الجميع،

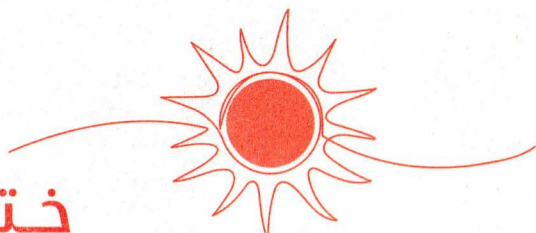


بسطاء كانوا أم نخبة، باحثين عن الجمال كانوا أم مجرد متأملين. وكم منا ربما طالع لوحات لمشاهير ولغيرهم، لكبار الفنانين وصغارهم، بغير أن يتوقف ليسأل «أتخضع تلك اللوحة لمذهب الفن هذا أم ذاك؟» بل لعله لا يستفسر حتى عن صاحب اللوحة أو تاريخ حياته؛ لأن تلك التفاصيل قد تعني ذلك أهل الاختصاص، ولكنها لا تعني بالضرورة متأمل الجمال للاستمتاع بجماله.

إن الجمال لا يطرق باب القلب قائلاً: «عفوًا! أسمح لي أن أتربع على عرش قلبك؟»، بل هو من الذين يدخلون القلوب بلا طرق ولا استئذان. ذلك أن الجمال يُعرف حيث أدلى بحُسنه إِدلاءً، في إطلاق النظر وإطراق الفكر واستشراف النفس، سواء رأى الرائي من قبل نهرًا يجري، أو لم يَرَ.



خَتَامًا



أَسْلِمَ تَسْلَمَ؛

وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ؛

وَلْتَسَعْكَ نَفْسُكَ؛

وَاحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ؛

وَخُذِ الْعَفْوَ مِنَ النَّاسِ وَأَعْطِ الْعَفْوَ مِنْ نَفْسِكَ (مَا تَطِيبُ بِهِ
النَّفْسُ مِنْ أَعْمَالٍ وَأَخْلَاقٍ دُونَ تَحَسُّسٍ أَوْ مَنٍّْ أَوْ أَذَى)؛

وَأَعْمَلْ صَالِحًا وَادْعُ إِلَى صَالِحٍ؛

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ؛

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ؛

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.



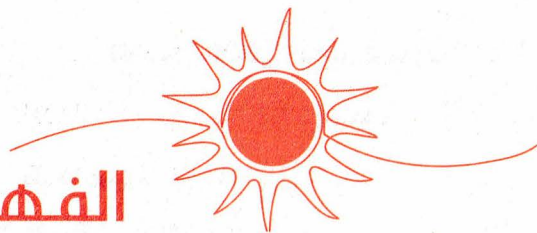
وَأَخْزِ وَعَوْلَانَا أَنْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

هَدَى الْعَبْدُ الرَّعِيضُ

<https://dralnimr.wordpress.com/>

<https://linktr.ee/hoda.alnimr>

الفهرس



تقديم ٥

الفصل الأول: خيط الأفق

عن الشغف والمسؤولية والنجاح في الحياة

- ما معنى النجاح في الحياة؟ ٩
- سرابية انتظار الشغف ١٤
- سرابية انتظار هبوط العزيمة والإرادة ١٧
- السرطان الحديث: الفراغ! ٢٢
- حالة الهاكونا ماتاتا! ٢٥
- نبرة الترهيب من الموت ٣٣
- نبرة الترغيب بالرقائق ٣٤
- واجب الوقت ووقت الواجب ٣٦
- ليست كل الأحلام ممكنة ولن تقدر على كل شيء ٣٨
- بين وزير الملك وملاحه ٤٠
- اعمل أقل، تنجح أكثر! ٤٢
- اقتباسات نافعة من الكتاب ٤٥
- بين التخطيط والتوكل ٤٦
- ما جدوى السعي والتخطيط إذا كان القدر مكتوبًا والرزق مقسومًا؟ ٥٠
- ما السعي الذي يُجدي؟ ٥١



الفصل الثاني: باب السماء

من ربك؟ وما دينك؟

- البداية من عقدة العقيدة ٥٩
- لما أحببت ذاتي أحببت الله! ٦٢
- كيف يكون تحقيق التوحيد عملياً؟ ٦٣
- أولاً: جمع القلب على الله تعالى ٦٣
- ثانياً: جمع الهم ٦٥
- ١. كيف أتأكد من إخلاصي؟ ٦٧
- ٢. هل يمكن الجمع بين العمل لله تعالى وطلب حظ للنفس؟ ٦٨
- ٣. هل أترك العمل إذا خشيت الرياء؟ ٧٠

خلاصات ٧٣

- ما الذي ترجوه عند الله تعالى مما تعمل أو تترك؟ ٧٤
- كيف أوقن بالإجابة وأنا أدعو وأجد دعائي لا يُستجاب؟ ٧٨
- التعرف على ربنا تبارك وتعالى ٨٧
- خارطة مفاتيحية لمعرفة الله العملية ٩٠

خلاصات ٩١

الفصل الثالث: زمام النفس

كيف أحسنُ صُحبة نفسي؟

- نفسك مسؤوليتك أنت ٩٥
- انتظار طوق النجاة ٩٦
- لست وحدك ٩٨



- دراما الجلد والمعاداة ٩٩
- الثقة بالنفس والنزعة القارونية ٩٩
- المثالية الوهمية ١٠٠
- تقدير الذات ١٠٢
- الجدّية في بناء علاقة سويّة مع الذات ١٠٤
- كراهة الذات بسبب الإحباط من كثرة الذنوب والتقصير ١٠٦
- كراهة الذات بسبب الشعور بكراهة الآخرين لها ١١٠
- التصالح مع الذات ١١٢
- كفّ عن الطرق وادخل! الباب مفتوح! ١١٦
- اجعل الحكم لله في نفسك أولاً ١١٩
- إدمان الشكر ونكد اتباع الهوى ١٢٤
- التشريح الغزائمي لابن آدم ١٢٧
- - أولاً: الفطرة ١٢٨
- - الهوى ١٣٠
- - العقل والوجدان ١٣٣
- طعم المسؤولية وطعم الهوى ١٣٨
- لماذا تستعصي علينا إدارة نفوسنا؟ ١٤٠
- مفتاح تربية العادات: العلم مرة والعمل عمر ١٤٩
- كيف نعالج الفجوة بين العلم والعمل؟ ١٥١
- انتبه لنمط الحياة «الهوائية» ١٥٣
- كن ذاج مزاج لا تابعا للمزاجية ١٥٥
- لا تكن ملولاً ١٥٧



- تَخَفُّف من المُلهيات ومُهدِّرات الطاقة ١٥٨
- اخشوشن ١٥٩
- حذار من الحنين للمفقود حتى تجحد الموجود ١٦١
- كن صابراً ثم صبوراً ١٦٣
- اخلق لنفسك الاهتمام باهتمامات جديدة! ١٦٤
- ١. الرياضة ١٦٥
- ٢. القراءة ١٦٥
- ٣. نشاط بدني اجتماعي ١٦٦
- خلاصات ١٦٦

الفصل الرابع: عقارب الزمن

كيف أتحكم في وقتي؟

- أهم الأوقات والأعمال ١٧١
- حَسَرَات الماضي ١٧٧
- هواجس المستقبل ١٧٩
- لتكن لك تجربتك أنت ١٨٦
- الصباح رَبَّاح، فماذا عن المساء؟ ١٨٨
- التهيئة النفسية للإفادة من المتاح وقت إتاحتته ١٨٩
- استئصال الخطوة الأولى ١٩٢
- التركيز في خطوة الوقت لا خط النهاية ١٩٣
- تمهّل واتند ١٩٥
- الانقطاع للعمل وقت عمله ١٩٦
- ركائز العزيمة وتكثير بركة الأوقات ١٩٧



- (١) الركيزة الأولى: ذكر الله تعالى ١٩٧
- (٢) الركيزة الثانية: العهد ١٩٩
- المرحلة الأولى: التهيئة ٢٠١
- المرحلة الثانية: التطهر ٢٠٢
- المرحلة الثالثة: القيام بين يدي الله تعالى ٢٠٣
- (٣) الركيزة الثالثة: سنة الهادي عليه السلام ٢٠٤
- صلاة السنن ٢٠٥
- السنن القولية ٢٠٥
- السنن السلوكية ٢٠٦
- (٣) الركيزة الرابعة: ميراث الأنبياء ٢٠٦

٢٠٧ خلاصات

الفصل الخامس: ها أنا ذا

- خصائص العظماء بين المسؤولية والنجومية ٢١١
- من يعمل يره ٢١٤
- لماذا لا تغيرني قراءة كتب التغيير ومطالعة قصص الناجحين؟ ٢١٨
- ١. الحاجة أم الحركة ٢١٩
- ٢. السياق المتكامل ٢٢٢
- ٣. الصبر والمثابرة ٢٢٣
- هل أنا من سيعدل المائل؟ ٢٢٤
- ما عليك، وما عليك! ٢٢٥
- لا تتمنّ حالاً غير حالك ولا زماناً غير زمانك ٢٣٣

من بديع أقوال السلف في أخذ الحياة بقوة،
وسياسة النفس بحكمة، واستثمار العمر بجدية

٢٣٧

مختارات من خطابات مشاهير أجنب، عن معاني النجاح والفضل،
ومجابهة الصعوبات واتخاذ القرارات

٢٤٣

من خطاب ستيف جوبز لدفعة ٢٠٠٥ في جامعة ستانفورد ٢٤٥
من خطاب بيل جيتس لدفعة ٢٠٠٧ في جامعة هارفارد ٢٥١
من خطاب ج. ك. رولينغ لدفعة ٢٠٠٨ في جامعة هارفارد ٢٥٨
من خطاب أوبرا وينفري لدفعة ٢٠٠٨ في جامعة ستانفورد ٢٦٥
من خطاب نيل جايمان لدفعة ٢٠١٢ في جامعة فيلاديلفيا ٢٦٩

هل رأيت في حياتك نهراً يجري؟ ٢٧٥

خاتماً ٢٨١

الفهرس ٢٨٣



مكتبة

t.me/soramnqraa



◀ هل يرتبط النجاح في الحياة بالاستيقاظ المبكر؟ أم بما نفعله (أو لا نفعله) بعد الاستيقاظ؟

◀ أم بالتخطيط المسبق لروتين صباحي متكامل؟

◀ فماذا عمن لا يُخرجه من الفراش إلا عمل اضطراري؟ ومن لا يجد دافعاً للخروج أصلاً؟ ومن يبدأ "صباحه" في وسط النهار أو آخره أو حتى "مساء"؟!

◀ "نظرية الصباح" كتاب يهدف إلى التفكير في صياغة جواب لسؤال: كيف يمكنني أن أجعل لحياتي معنى، في الصباح وسائر أوقات اليوم؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

القاهرة - أمام مسجد عlish - خلف جامع الأزهر

☎ (002) 01008584820 - (002) 01111322668

✉ elmarefa@hotmail.com

📌 DarElmarefah

📍 darelmarefa

☎ 01004520496

📍 elmarefa.store



دار المعرفة
— للنشر والتوزيع —